علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم





المهاجرة من اليهودية إلى الإسلام ومن أمريكا إلى باكستان

بحثاً عن الحقيقة والإيمان

تأليف

ذاكر الأعظمي



علماء ومفكرون معاصرون
لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم





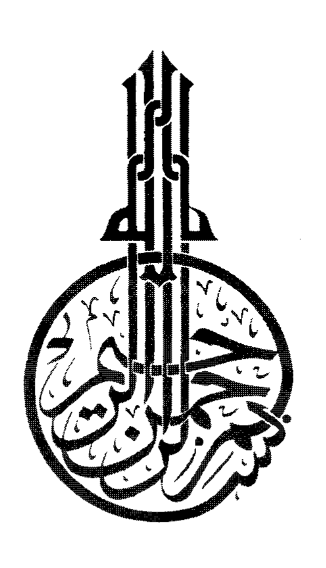
مريم جميلة

المُهاجرةُ من اليهوديّةِ إلى الإسلامِ ومن أمريكا إلى باكستان

بحثاً عن الحقيقة والإيمان

تأليف
ذاكر الأعظمي

دار القلم
دمشق



الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فإنّ موضوعَ التحوّل إلى الإسلام لا زال من أهمّ الموضوعات التي تهمّ القارىء مهما كان انتماؤه العقدي ، فالمسلم يُسَرّ بإسلام غيره ، ويجدُ في عرضه لتجاربه سبيلاً إلى تجديدِ إيمانه هو عبر تذكّر نِعم الله تعالى عليه ، فالله عز وجل يقول: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

إنّ من الأسئلة التي يمكن أن تخطرَ على البال عندما نجدُ شخصاً قد أسلم هذه الأسئلة: لماذا أسلم؟ أو كيف أسلم؟ وغير ذلك من الأسئلة التي قد يقفُ فيها الشخص الذي سئل حيرانَ لا يجدُ ما يجيبُ به ولو بكلمة أو كلمتين ، لأن السبب وراء إسلام كثيرٍ من الأشخاص لم يكن سبباً أحادياً أو مباشراً ، بل هو كما عبَّر أحدُهم وهو السياسي والمؤلف النمساوي المسلم **محمد أسد**[1] عن تجربته بقوله: «لم يكن

---

(١) انظر سيرته في كتابه الماتع (الطريق إلى مكة) طبع في بيروت دار العلم للملايين، وقد توفي السيد محمد أسد عام ١٩٩٢ م (ن).

هناك شيءٌ بعينه من تعاليم الإسلام هو الذي أخذَ بمجامع قلبي ، إنّه المجموع المتكامل المتناسب والمتماسك من هذه التعاليم الروحية من جانب ، والتي ترسم برنامجاً عملياً للحياة من الجانب الآخر» .

ومنهم من كان الصراعُ الداخلي بين الواقع والفطرة سبباً أساسياً وراء سعيه لإيجاد الأجوبة الشافية عن الأسئلة التي تؤرّقه ، ولا يجد لها جواباً عند من ينتمي إليهم عقدياً أو فكرياً من رجال دين أو علماء .

ومن أهم هذه الأسئلة تلك التي تتعلق بالموت والحياة ، وتدفعُ غيرَ المسلمين إلى الاتجاه إلى هذا الدين الحنيف ، لأنها مرتبطة بالهدف الأساس لحياة ووجود الإنسان على الأرض ، الذي أوضحه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

فالإنسان إذا غفل عن معنى الحياة الواضح في الآية المذكورة يولد ويموت كالأنعام ، لا يعلمُ من أين أتى ، ولا إلى أين يذهب؟ وهذا هو بالضبط ما يعتقد به كثيرون ممّن لا يؤمنون بدين الإسلام .

وتحكي المسلمة المهتدية **مريم جميلة** عن تجربتها مع والدها فتقول : «فاجأها والدُها ذات مرة في حديثٍ معها ـ وهي الفتاة الداخلة إلى أعتاب الحياة ـ بقوله : «**إنه لا توجدُ قيمٌ مطلقة ، وإنّما المهم هو أن يعيشَ الإنسانُ حياته متمتعاً بقرب الأهل والأصدقاء ورفاهة العيش في المجتمع الغربي**» .

وصدمها مجتمعُها بتفاهته ، وانغماس أقرانها في اللهو والرقص والاختلاط ، والمواعدة بين الرجال والنساء ، وانشغال الفتيات بالتبرّج والتعري ، ولم تجد الهدفَ الأسمى الذي يؤدي الإنسان

واجبه نحوه ، ويحاسب نفسه على أساسه ، وينتظر الجزاء على معياره.

ولهذا السبب لم تتردّد **مريم جميلة** كثيراً في الدخول في الإسلام بعد أن وجدت فيه الإجابة الواضحة عن مشكلاتٍ كانت تؤرّقها طيلة مراهقتها وشبابها ، وأول هذه المعضلات تتصل بالموت والخوف منه ، وكانت لا تجدُ إجابةً عند أبويها عندما تسألهما عن المصير بعد الموت ، إذ كانا يتعجّبان من سؤالها ، ويقولان لها: «إنّ الحياة أمامها طويلة ، ولكنهما في الواقع كانا لا يؤمنان بالآخرة ولا بالبعث والحساب والجنة والنار».

وعلى الرغم من أنّ **مريم جميلة** قدّمت نموذجاً فريداً للمرأة المسلمة ، وعاشت حياة إسلامية مثالية حافلة بالنشاطات الدعوية والاجتماعية والفكرية ، فقد أسهمت إسهاماتٍ بارزةً في إثراء المكتبة الإسلامية من خلال تأليف كتب إسلامية فكرية قيمة ، لا يُعْرَفُ عنها إلا القليل.

ويطيبُ لي ويسعدني أن أقدّم بين يدي القراء هذا الكتاب الذي يسلط الضوء على حياة الداعية الفاضلة السيدة **مريم جميلة** وأفكارها الإسلامية ، ويستعرض مؤلفاتها ، فلها إسهامات بارزة في مجال الدعوة والإرشاد ، وقدمت عطاءً علمياً عظيماً في مجالات العلوم الإسلامية الأخرى.

وقد قسّمتُ هذا الكتاب إلى فصلين وخاتمة:

الفصل الأول: ملامح عن حياتها ، ونبذة من أفكارها.

الفصل الثاني: تعريف بمؤلفاتها.

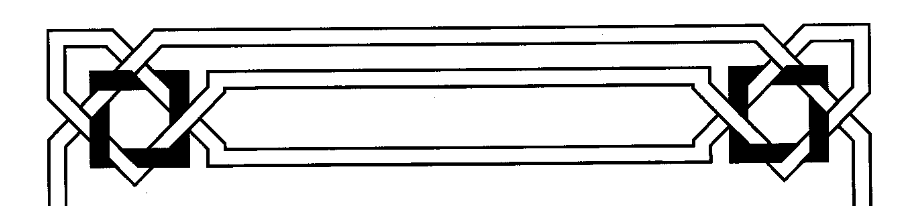
الخاتمة: لخصت فيها أهم نتائج البحث.

وفي الختام، أتقدّم بجزيل الشكر والعرفان إلى الأستاذ المفضال محمد علي دولة، حفظه الله ورعاه، صاحب دار القلم العامرة، على اختيار هذا الكتاب من بين سلسلة «علماء مفكرون معاصرون: لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم». والشكر موصولٌ كذلك لكل من مدَّ لي يد العون وساهم في إخراج هذا الكتاب.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله مني، ويجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض ٢/ ٥/ ١٤٣٠ هـ
١/ ٢/ ٢٠٠٩ م

ذاكر الأعظمي

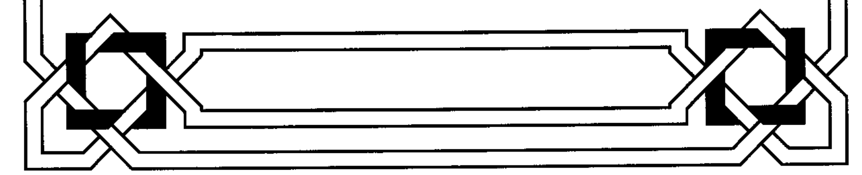


الفصل الأول

لمحات من حياتها ونبذة عن فكرها

المبحث الأول: لمحات من حياة الداعية الفاضلة السيدة مريم جميلة ، ونبذةٌ عن أفكارها.

المبحث الثاني: مراسلاتها مع مؤسس الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية سماحة العلاّمة أبي الأعلى المودودي رحمه الله.





الفصل الأول

لمحات من حياتها ونبذة عن أفكارها

إنّ الداعية الفاضلةَ السيدة مريم جميلة علمٌ من أبرز أعلام الحركة الإسلامية المعاصرة ، ونموذجٌ حيٌّ للمرأة المسلمة المثالية ، ولها إسهاماتٌ بارزة ، وجهود مشكورة في مجال الدعوة الإسلامية ، واهتمامٌ خاص بتشخيص أمراض الأمة الإسلامية ، وطريقة علاجها. فما هي ملامح حياتها الأسرية والاجتماعية؟ وما هي نقطة التحول في حياتها؟ وما الموضوعات الفكرية التي كان لها رأي فيها؟ وما الموقف منها؟ حيث تقول: إنّ الذي أقنعها نهائياً بصدق الإسلام وصحته هو إجابتُه الشاملةُ والواضحة عن مشكلاتٍ كانت تؤرّقها طيلة مراهقتها وشبابها.

وأُولى هذه المعضلات تتصل بالموت والخوف منه ، حيث كانت لا تجدُ إجابة عند أبويها عن المصير بعد الموت ، ولم تسعفْها (التوراةُ) و(التلمودُ) برأي ، فالجزاء فيها دنيوي محض ، أمّا (الإنجيل) فكانت صورةُ الآخرةِ فيه مبهمةً غيرَ مفصلةٍ.

ولم يكن هناك غير (القرآن الكريم) الذي هو الكتاب الوحيد الذي أجاب عن هذا السؤال ، وأراح عقلها الحائر.

هذا ما سنجيبُ عنه في هذا الفصل ـ إن شاء الله تعالى ـ الذي سوف يشمل مبحثين هما:

المبحث الأول: لمحات من حياة الداعية الفاضلة السيدة مريم جميلة.

المبحث الثاني: مراسلاتها مع العلاّمة أبي الأعلى المودودي رحمه الله.

وفيما يلي بيان ذلك:

المبحث الأول

لمحات من حياة الداعية الفاضلة السيدة مريم جميلة

«العربُ لم يجعلوا الإسلامَ عظيماً ، لكنّ الإسلام هو الذي حوَّلهم من قبائلَ في صحراءَ قاحلةٍ إلى سادةِ العالَم» .

مريم جميلة

يا الله! ما أروع الهداية وإبصار النورِ والحق بعد الضلال! .

ما أروعَ أن يجدَ المرءُ نفسه محاطاً بهالات ودفقات إيمانية تنعشُ نفسه وروحه ، وتنتشر في جنباتهما بعد طول ظمأ وإقفار وإعياء ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]! .

إنّ أقدار الله في خلقه عجيبةٌ ، وتصاريفَه مدهشةٌ ، وهدايتَه لخلقه تحارُ فيها العقول والألباب ، ولا تدركها الأبصار ، فإذا أراد شيئاً حصل ، وإذا قدّر شيئاً وقضاه لا بدّ من وقوعه كما قدره وقضاه ﴿ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم: ٣٥] .

كانت هذه مقدمةً لا بدّ منها للحديث عن **مريم جميلة** ، تلك اليهودية الأمريكية التي هداها الله تعالى للإسلام في سياق عجيب ، وجذب مدهش ، وفي زمن لم يكن فيه للإسلام رواجٌ ، ولا للمسلمين سوقٌ نافقة ، ولكنّها الهداية ، لا تعرف الحواجز ، ولا تقف دونها

العقبات ، وتنفُذُ إلى القلوبِ نفاذَ الشمس إلى الأرض ، وتسري في العقول سراية الضياء في الظلام.

١ ـ نشأتها وتكوينها العلمي والفكري:

ولدت هذه المرأةُ العظيمة في نيويورك ١٩٣٤م ، لأبوين يهوديين من أصل ألماني ، واسمُها كان (**مارغريت ماركوس**) ، وكان في طريقة نشأتها في تلك البيئة الملوثة بركام الجاهلية دليلٌ على عناية الله تعالى بها ، فهي لم تذق الخمرَ في حياتها ، ولم تخادن الرجالَ ، ولم تحضر حفلات المجون ، وكل هذا عجيبٌ مِنْ مِثْلها.

وكانت ـ وهي في طفولتها ـ تحضرُ الدروس التي تقيمها مدرسة الأحد اليهودية ، وتسمعُ الحاخامَ وهو يخبرهم بأنّ العربَ واليهودَ هم أبناء إبراهيم الخليل ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم ـ ، فصارت تتمنّى أن تذهب إلى فلسطين لرؤية أولاد عمها والاجتماع بهم ، ثم إنّها صُدمت بعد ذلك يوم رأتْ أبويها يحتفلان بقرار تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧م ، ويجمعان التبرعات لإقامة الدولة اليهودية، ثم يحتفلان بانتصار اليهود سنة ١٩٤٨م ، فصارت تناقِشُ أبويها بقوة في موضوع إقامة دولة اليهود على أحزان العرب وآلامهم ، فكانا يعجبان من كلامها.

ومن المفارقات العجيبة أنَّ رئيس وزراء إسرائيل السابق «ديفيد بن غوريون» كان لا يؤمنُ بإلهٍ له من الصفات الذاتية ما يجعله فوق الطبيعة ، ولا يدخل معابد اليهود ، ولا يعمل بالشريعة اليهودية ، ولا يراعي العادات والتقاليد ، ومع هذا فإنَّه يُعتبر لدى التقاة وانظر

ص ٨١ اليهود التقليديين أحد كبار اليهود في العصر الحاضر ، كما أنَّ مُعظم زعماء اليهود يعتقدون أنَّ الله وكيلٌ للعقارات ، يهبهم الأرض ، ويخصّهم بها دون غيرهم.

كلّ هذه التناقضات جعلت مريم تكتشف زيفَ اليهود سريعاً ، وتكتشف أيضاً حقد العلماء اليهود على المسلمين وعلى الرسول ﷺ؛ لذا كانت الهوّةُ تتسع مع مرور الوقت ، ويزدادُ النفور كلّما اقتربت من اليهود ، وتعمَّقت في أفكارهم.

ثم إنّها أقبلت على القراءة المطوّلة ـ العجيبة من فتاة مثلها ـ فقد قادتها هذه القراءة إلى الهداية ، وأبعدتها عن الغواية والعماية ، وقرأت أول ما قرأت ترجمة معاني القرآن الكريم للبريطاني المسلم محمد مارمادوك بكتال ، فتأثّرت بما قرأت ، وكان لقوة الترجمة أثرٌ في حياتها لم يزل ، خاصة حين قارنت بين هذه الترجمة وبين ترجمة **عبد الله يوسف علي** التي وصفتها بأنها ضعيفة وتبريرية ، أي إنّ المترجم علي لم يستطع أن ينفك عن أَسْرِ النظرة الغربية وهو يترجم كتاب الله تعالى ، وهذه ملاحظة جيدة تدل على عمق فهمها.

ثم إنها عثرت في مكتبة نيويورك العامة على كتاب (مشكاة المصابيح)[١] مترجماً إلى الإنكليزية ، وهو كتابٌ في الحديث النبوي الشريف ، فعكفت عليه حتى فرغت منه. ولو سألنا طلاب العلم والمثقفين منا اليوم عن هذا الكتاب فلربّما جهلوا عنوانه ، فضلاً عن التوجُّه لقراءته ، ومن رحمة الله بها أنها اطلعت على هذا القدر الكبير

---

(١) هو كتاب في أحاديث النبي ﷺ للخطيب التبريزي، اختصر فيه كتاب (مصابيح السنة) للإمام البغوي ، والنصّ العربيّ طبع مراراً في الهند وبيروت (ن).

من الأحاديث النبوية في مرحلة مبكرة ، فهذا الاطلاع الواسع حماها من ضلالة القرآنيين (الذين يزعمون أنهم يأخذون بالقرآن فقط) ، واستطاعت أن تفهم الإسلام فهماً صحيحاً باطلاعها على مصدريه ، والاغتراف من مَعينهما .

واصلت مريم دراستها الجامعية في جامعة نيويورك ـ كلية الآداب ، لكنّها مرضت ، فانقطعت عن الدراسة سنتين ، وتناوشتها الوساوس في مرضها من كل جانب حتى كادت تلحد ، لكنّ الله تعالى تداركها بمزيدٍ من القراءة والاطلاع .

والعجيبُ أنّ **مريم جميلة** استطاعت بهمتها ودأبها أن تتصل بشخصيات إسلامية رفيعة القدر في عصرها ، فقد راسلت العلامة الشيخ **محمد البشير الإبراهيمي** رئيس جمعية علماء المسلمين في الجزائر ، والأستاذ **سعيد رمضان**[1] رئيس المركز الإسلامي في جنيف ، **والدكتور محمد معروف الدواليبي** في سورية ، **والأستاذ سيد قطب** في سجنه بالقاهرة ، رحمة الله عليهم جميعاً .

تِلْكُم **مريم جميلة**، ذاك النموذج الفريدُ للمرأة التي بحثت عن الحقيقة، وصبرت وثابرت حتى عرفت الطريق إلى الله ، وعلمت أنّ حياة المرء إمَّا له وإمَّا عليه ، فاضطلعت بدورها في الحياة امرأةً مسلمةً تدعو إلى الله ، وتقاوِمُ شريعة المبطلين ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

٢ ـ رأيها في باكستان:

ولمريم جميلة رأي خاصٌّ في باكستان حيث تقول :

(١) رئيس تحرير مجلة (المسلمون) وصهر الشيخ حسن البنا (ن).

«رغم أنَّ باكستان شأنها شأن أيّ بلد مسلم آخر ، تزدادُ باستمرار تلوثاً بقاذورات أوربة وأمريكة الكريهة ، إلا أنَّها تجعل من الممكن للمرء أن يعيشَ فيها حياة متفقة مع تعاليم الإسلام.

أعترف أنّني أحياناً أفشل في جعل حياتي اليومية تتفق تماماً مع تعاليم الإسلام ، ولكني أعترفُ بالخطأ بمجرّد ارتكابي له ، وأحاول قدر استطاعتي تصحيحه».

٣ ـ تفاعلها مع أحداث العالم الإسلامي:

تفاعلت مريم جميلة مع أحداث العالم الإسلامي وتياراته الفكرية ، فقالت في رسالة موجهة إلى عموم المسلمين: «**اتبعوا هَدْي القرآن والسنة ، ليس كمجموعة من الشعائر فقط ، بل كمرشد عملي للسلوك في حياتنا اليومية الخاصة والعامة ، اتركوا جانباً الخلافات. لا تضيِّعوا وقتكم الثمين في الأشياء غير المجدية ، وبمشيئة الله سيتوِّج المولى حياتكم بالفلاح العظيم في الحياة الدنيا ، وبالفوز الأعظم في الآخرة**».

٤ ـ مراسلتها مع الأستاذ أبي الأعلى المودودي:

وقد دلّها الأستاذ سعيد رمضان على الأستاذ سيد قطب ، وطلب منها أن تراسله ، كما أرسلت رسائل عديدة لشخصيات أخرى ، لكن نقطة التحوُّل في حياتها كانت صلتها بالأستاذ أبي الأعلى المودودي ـ رحمه الله تعالى ـ. وقد عرفته بقراءتها مقالة له في مجلة إسلامية كانت تصدرُ في جنوب إفريقية ، وقد أُعجبت بالمقالة جدّاً.

ومن الجدير بالذكر أنّ الأستاذ سيد قطب هو الذي نصحها بالاتصال بالأستاذ المودودي ، فأرسلت للأستاذ المودودي رسالة على عنوانه في باكستان ، فما راعها إلا وقد جاءها الجواب بعد قرابة شهرين ، فسرّت

به أيّما سرور ، واستمرت المراسلات بينهما قرابة ثلاث سنين ، وكانت تنقل له في مراسلتها ما يقال عنه في إعلام أمريكة وكندا .

وقد اتَّضح من هذه المراسلات عمق ثقافة **مريم جميلة** إلى حدٍّ مدهش ، فقد سألته أسئلة متنوعة عن شخصيات كبيرة ، وناقشته مناقشة مطوّلة في أشياء بدرت منهم .

فعلى سبيل المثال **سألته عن شاه ولي الله الدهلوي** ، وهو من العلماء الكبار في تاريخ الهند ، ويعدُّ من جملة المجددين ، فظنت أنه أراد اختراعَ مذهب جديد خارج عن المذاهب الأربعة ، فبيّن لها المودودي أن الشاه ولي الله أراد أن يجتهد في تقريب المذاهب الأربعة ، والاستفادة منها جميعاً ، وليس كما ذهبت إليه في ظنها .

وسألته عن الشاعر المشهور **محمد إقبال** وقالت له : إنّ إقبال نصرَ القومية والوطنية في شعره ، فصدّقها الأستاذ المودودي ، وأخبرها أنّ هذا من الأمور التي بالغَ فيها إقبالٌ رحمه الله .

وسألته عن رئيس مصر **جمال عبد الناصر** ، وقالت : إنّه شخص يريدُ أن يعمل لنفسه ولمجده الشخصي ، وأنّ كلّ مساعداته لإفريقية وغيرها تصبُّ في مصلحة الدعاية الشخصية ، وهذا منها فهمٌ دقيق في ذلك الوقت العصيب الذي طغت فيه سمعة جمال عبد الناصر على مفاهيم كثيرة ، وكانت شخصيته القوية ودعاواه القومية قد أضلَّت أكثرَ الناس .

إنّ تفهُّمَ مريم جميلة لشخصية جمال عبد الناصر بهذا الوضوح في آخر الخمسينيات يُعَدُّ فهماً متقدماً .

وسألته عن كمال أتاتورك ، والمآسي التي صنعها في تركية .

ولها قول جميل في سعيد النُّوْرْسي ، حيث قالت عنه : «إنه ليس

بمبالغةٍ أن نقول: إنّ ما تبقى من الإيمان الإسلامي في تركية إنّما يرجع إلى الجهود المثابِرة لبديع الزمان النُّورسي».

وسألته عن القاديانية التي كانت آنذاك في بداية انتشارها وتأسيسها (مساجد الضرار) في أمريكة.

وهذه الأسئلة والمناقشاتُ جرت في زمن يهوديتها ـ وهذا عجيبٌ ـ فهي قد وصلت إلى مرحلة عالية من الفهم والنضج والوعي والثقافة، وهي يهودية، نتمنى أن يصل إليها أغلب المسلمين!!.

٥ ـ إشهار إسلامها:

ثم شرح الله صدرها للإسلام في سنة ١٣٨١هـ=١٩٦١م، فذهبت إلى إمام مسجد في بروكلين في نيويورك، وهو داود فيصل، وأسلمت على يديه، وسمّت نفسها **مريم الجميلة**، وابتدأت حياتها بمرحلة عجيبة كلها ابتلاءات ومحن، فعلى سبيل المثال كانت تذهبُ إلى المسجد، وتناقِشُ المسلمين الذين كانوا يغضبون من آرائها عن جمال عبد الناصر وكمال أتاتورك.

٦ ـ معاناتها بسبب الإسلام:

رأت المركزَ التجاريَّ التونسي في نيويورك، فوَلَجَتْه سعيدةً به لتُفَاجأ بالخمور تملأُ المركز من أرضه إلى سقفه، وفوجئتْ بامرأةٍ فرنسيةٍ موظفة في المركز أخبرتها أنَّ الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة بدأ مرحلةً جديدةً في تونس ترك فيها الدين خلف ظهره.

وكانت بعد تخرُّجها من الجامعة ابتدأت تبحث عن عمل، فذهبت إلى المركز العربي في نيويورك فما إن عرفوا أنها كانت يهوديةً

فأسلمت ، وأنَّها تعارِضُ أعمال وأفكار جمال عبد الناصر إلا وأعرضوا عنها ، بعد مقابلة باردة.

وكانت تحضرُ صلاة الجمعة في المسجد ، فاتفق الطلبة على أن يتداولوا الخطب فيما بينهم ، فلمّا وصلتها النوبةُ كتبت خطبةً بديعةً رائعةً عن وضع المسلمين ، وكيفية علاج أمراضهم ، وألقاها أحدُ الطلبة نيابة عنها ، فقامت عليها قيامة سائر الطلاب؛ لأنها ذكرت القومية ورموزها بسوء ، وبيّنت أنها علة العلل في الجسم الإسلامي.

وكان هناك من الطلّاب من يشكك في الحديث النبوي ، ومَنْ يزيّن لها طريقة أتاتورك ونهرو.

وجاءها يوماً طالبٌ سعودي في الجامعة ليخبرها أنَّ على كل المسلمين أن يصلُّوا مع النصارى في كنيسة الجامعة ، فإن لم يستطيعوا فعلى الأقل يحضرون دروس الأخلاق النصرانية في الجامعة إلى غير ذلك من الآراء المنحرفة!!

وهكذا تعرّضت لمحنٍ كثيرةٍ في عقيدتها وفكرِها وثقافتها ، وكانت تخبِرُ الأستاذ المودودي بكل هذا.

٧ ـ هجرتها إلى باكستان:

ثم بعد ذلك أخبرها أبواها أنّهما سيتقاعدان قريباً ، ويتركان شقّتهما ذات الغرف الأربعة ، ويسكنان في شقة أخرى صغيرة ، وأنه ليس بوسعها أن تكون معهما ، ولا بدّ أن تتدبر أمرها. وكان عمرها آنذاك سبعة وعشرين عاماً ، فضاقت عليها الدنيا بما رحبت ، وكان الأستاذ المودودي قد عرض عليها مراراً أن تهاجر إلى باكستان ، لكنّها كانت مترددة ، ثم بعد كل الذي جرى لها قررتِ الهجرة إلى باكستان ، وأقنع

المودودي أبويها وطمأنهما على ابنتهما التي ستجد كلَّ الرعاية والاهتمام ، وفعلاً حزمت حقائبها ، وتركت نيويورك سنة ١٣٨٢هـ=١٩٦٢م ، واتجهت إلى لاهور بالباخرة.

فيا لها من رحلة شاقة! لكنَّ الإيمانَ العظيمَ يذلِّلُ الصعاب والمشاق ، والغريب أنها وقفت في الإسكندرية ، ونزلت من الباخرة ، فصادفت مسجداً فصلَّت فيه ، فسألها الإمام عن وجهتها فأخبرته أنها ذاهبة إلى باكستان ، فما كان منه إلا أن قال لها (غفر الله له): هل أنتِ غبيةٌ لتتركي أمريكة؟!.

فانظروا رعاكم الله إلى هذا الإمام الغبي في مقابل صبر مريم **جميلة** على ما واجهته!.

ثم إنّها وصلت إلى لاهور ، وأحسن الأستاذ المودودي استقبالها ، وأسكنها في بيته سنتين ، ثم إنّه زوَّجها من أحد أتباعه ، وهو **محمد يوسف خان** ، وهو متزوِّجٌ من أخرى من قبلُ ، وله منها خمسة أولاد ، وهي تعيش إلى اليوم مع ضرتها في بيت واحد في لاهور ،ولها ابنان وابنتان واثنا عشر حفيداً ، وهي سعيدة بحياتها وراضية بها ، ولم تفكر يوماً بمغادرة لاهور إلى أمريكة التي يتمنى الكثيرون الذهاب إليها والعيش فيها.

هذه المرأة المؤمنة لم تمانع في التعدد ، وقد اقتنعت به ، وهي ما زالت في أمريكة ، وكانت تحزن من المانعين له ، أو من المبررين له تبريراً ضعيفاً ، ثم طبّقته بنفسها في لاهور.

والطريف أنها عرضت على المودودي الزواج منها لكنّه اعتذر.

ومريم تعيش إلى اليوم حياةً إسلاميةً رائعةً ، وهي ـ حفظها الله ـ مشرفةٌ على حلقات نسائية في بيتها ، وما زالت تكتب الكتبَ ، وترسل الرسائل إلى الآن ، ولمّا سئلت عن وصيتها للمسلمين قالت: «**ادرسوا القرآن والحديث ، ولا تَتَّبِعوا الحضارة الغربية ، وادرسوا الثقافة الإسلامية**» .

٨ ـ محطات مهمة في حياتها:

أ ـ بقيت بضع سنوات وهي ملحدة تماماً بسبب أنها لم تجد ديناً يشبعُ نهمها الثقافي والفكري والروحي حتى أضاء الإسلامُ حياتها .

ب ـ لبست الحجابَ الكامل، والتزمت به ، فلقد رأيتُ صورة لها وهي بالجلباب الأسود السابغ ، ولا يظهر من جسدها شيء ، وهذه أعظم رسالةٍ لكلِّ المسلمات اللواتي يتساهلن في لبس الحجاب ، ويتهاونَّ به ، فهذه كانت يهودية أمريكية ، ولمّا أسلمت التزمت بالحجاب الكامل السابغ .

جـ ـ حاولت أن تدعو أبويها للإسلام مراراً عندما كانت في أمريكة ، واستمرت تدعوهما بعد وصولها إلى لاهور ، فبعثت إليهما برسائل متعددة ، لكنّهما رفضا ، وماتا على اليهودية سنة ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م .

وهكذا الإيمانُ إذا تمكّنت بشاشته من القلوب لا يستطيع صاحبُه إلا أن يدعوَ إليه من يحب ، ولا يُتصوَّر قعوده عن تلك المهمة الجليلة .

د ـ عدد الكتب التي ألفتها قرابة ٢٥ كتاباً ، وكلُّها تفيض بروح وثَّابة ، وفهم متميز ، واطلاع وثقافة واسعتين ، وأفردت كتاباً عن مأساة الفلسطينيين سمته (أحمد خليل) ، ونشره الأستاذ المودودي في باكستان .

هـ ـ تعدُّ المودوديَّ أعظم مفكري هذا القرن ، على أنها كانت تراسل شخصيات مثل الأستاذ سيد قطب وغيره ، سبق ذكرهم آنفاً ، وهذه شهادة محترمة من امرأة واسعة الثقافة ، عظيمة الاطلاع مثلها.

و ـ أظنّ أنّ القرّاء الكرام يوافقونني على اعتبار هذه المرأة العظيمة مثالاً كبيراً ومهماً في الوصول إلى الهداية عن طريق الاقتناع الكامل الذي تولّد إثر قراءة مطوّلة وثقافة واسعة ، ومراسلاتٍ مع عدد كبير من الشخصيات الإسلامية رفيعة المستوى ، وهي بهذا تصلحُ أن تكون مثلاً رائعاً لبنات جنسها اللواتي يقرأنَ قليلاً ، وثقافة الكثرة الكاثرة منهن ضعيفةٌ.

ما أعظم التبعةَ الملقاةَ علينا في إيصال الإسلام لكلِّ البشر ، إذ كم فيهم من أمثال مريم **جميلة** ممن يبحث عن الحق ويريده؟!!

٩ ـ نقطة التحول في حياتها:

أمّا عن قصة إسلامها ، فإليكم الحوار التالي الذي تحدّثتْ فيه بقدرٍ من التفصيل عن رغبتها في الإسلام ، ومدى تأثيرِ الإسلام في حياتها:

س١ـ كيف نَمَت لديك الرغبةُ في الإسلام؟

ج١ـ كنتُ **مارغريت بيغي ماركوس** ، كأي طفلةٍ صغيرة مولودة في الغرب ، كان لديَّ اهتمامٌ شديدٌ بالموسيقا ، وكنتُ مولعةً بشكل خاص بالسمفونيات والأُوبرات الكلاسيكية ، وهي التي تعتبر قمة الثقافة في الغرب. كما كانت الموسيقا هي المادّة المفضَّلة لي في المدرسة ، التي كنت دائماً أحصلُ فيها على أعلى الدرجات. وكان من باب المصادفة أن أستمعَ إلى الموسيقا العربية عبر الإذاعة ، ممّا بعثَ في كياني دواعي الفرح والسرور ، فعزمت على الاستماع إلى المزيد منها ،

ولم أترك والديَّ في سلام حتى اصطحباني إلى القسم السوري في مدينة نيويورك حيث اشتريتُ مجموعة من التسجيلات العربية.

كان أبواي وأقاربي وجيراني يعتقدون أنّ اللغة العربية وكذلك الموسيقا العربية مخيفة وغريبة، وتسبب الإزعاج لآذانهم، لأنها محزنةٌ، وكنتُ كلّما أبدأ بالاستماع، طلبوا مني إغلاق جميع الأبواب والنوافذ في غرفتي خوفاً من الإزعاج.

وبعد أنْ هداني الله إلى الإسلام في عام ١٩٦١م، كنتُ أجلس ساعات طويلة في المسجد بنيويورك لكي أتمتع بالاستماع إلى تسجيلات تلاوة القرآن الحكيم بصوت كبير القرّاء المقرىء المصري عبد الباسط محمد عبد الصمد.

وفي يوم الجمعة لم يفتح الإمام الأشرطة كعادته (وقت صلاة الجمعة) حيثُ كان في المسجد ذاك اليوم ضيفٌ خاصٌ شابٌ قصير القامة، أسود اللون، يرتدي لباساً متواضعاً، فقام على المنبر ليقدّم لنا نفسه كطالب من زنجبار، ثم تلا سورة الرحمن كاملة. وكان صوتُهُ رائعاً للغاية، حيث لم أستمع إلى مثل هذه التلاوة المؤثّرة حتى من المقرىء عبد الباسط. كنتُ معجبةً غاية الإعجاب بصوته المؤثر، وأسلوب تلاوته العذب، فخطر على بالي أنّ سيدنا بلالاً رضي الله عنه كان يتمتّعُ بمثل هذا الصوت الرائع الجميل.

يعود تاريخ رغبتي واهتمامي بالإسلام إلى الفترة التي كنت فيها طفلة في العاشرة من عمري، حيث كنت أحضر الدروس التي تقيمها مدرسة الأحد اليهودية الإصلاحية، ونمى لدي اهتمامٌ كبيرٌ بالعلاقة التاريخية بين اليهود والعرب. ومن خلال الكتب المدرسية اليهودية، علمتُ أنّ

نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام كان أباً لكلٍّ من العرب واليهود ، وقرأتُ كيف حوَّل الاضطهادُ النصرانيُّ في وقت لاحق من القرون الوسطى حياتهم إلى عدم التعايش والصراع الديني ، مع أنَّ المسلمين استقبلوا اليهود في إسبانية المسلمة (الأندلس) بكل رحابة صدر ، مما يدل على أن هذا التسامح الخاصّ بالحضارة العربية الإسلامية ساهم بشكل كبير لتصل الثقافة العبرية إلى أعلى ذروتها من الإنجازات الثقافية والتقدم العلمي.

بسبب جهلي المطبق بالطبيعة الحقيقية للصهيونية ، ظننتُ بسذاجة أنّ اليهود بدؤوا يعودون إلى فلسطين من أجل تعزيز علاقتهم الوطيدة مع أبناء عمومتهم وأقربائهم الساميين في الدين والثقافة. بالإضافة إلى ذلك ، كنت أعتقدُ أنّ اليهود والعرب سوف يتعاونون ويعملون معاً لتحقيق عصر زاهر وذهبي من الثقافة في الشرق الأوسط.

وبالرغم من ولعي الشديد بدراسة تاريخ اليهود ، كنتُ غيرَ مسرورة بمدرسة الأحد. وفي ذلك الوقت بالذات ، ووجدتُ نفسي بقوة مع الشعب اليهودي في أوروبة ، ثم المعاناة الرهيبة التي عاناها اليهود من قبل النازيين ، وصُدِمْتُ لأنّ أحداً من زملائي ورفاقي في الدرس وكذلك آباؤهم لم يأخذوا دينهم على محمل الجِدّ.

وخلال الخدمات في الكنيس اليهودي ، كان الأطفال يقرؤون شرائط فكاهية مخبأة في كتب الصلاة ،ويضحكون استهزاءً بالطقوس الدينية، وكانوا صاخبين وغير مهذّبين، حتى إنّ المدرسين لم يتمكنوا من تأديبهم وتهذيبهم ، ووجدوا من الصعب جداً عقد الدروس.

أمّا الجو في البيت بالنسبة لممارسة الشعائر الدينية ، فكان مختلفاً

إلى حدٍّ كبير عن الذي كنا نعيشُه في مدرسة الأحد ، فكانت أختي الكبيرة قد كرهت مدرسة الأحد لحدٍّ أنَّ أمي في كثير من الأحيان كانت توقظُها كلَّ صباح بشدّة وصعوبة ، ولم يمرّ يومٌ دون أن تبكي وهي تستيقظُ وتتلفّظ بكلمات صاخبة. وأخيراً قرر والدي السماح لها بالرحيل ، وتركها وشأنها.

وفي الأيام المقدسة لعطلات اليهود ، كان والدي يصحبنا إلى المنتجعات والمنتزهات بدلاً من حضور الكنيس وصيام يوم الغفران «كيبور» لكي نستمتع بالعطلة ، ونأكلَ في المطاعم الجيدة. وعندما أقنعت أنا وأختي أبوينا بمعاناتنا في مدرسة الأحد ، قاما بضمنا إلى منظمة إنسانية ملحدة معروفة باسم «حركة الثقافة الأخلاقية».

أمّا عن منظمة (**حركة الثقافة الأخلاقية**) هذه ، فقد تأسست في أواخر القرن التاسع عشر من قبل **فيليكس ألالدر**. وفي أثناء دراسة الشعائر الدينية ، اقتنع **فيلكس ألالدر** بأنَّ الاهتمام بالقيم الأخلاقية هو نسبياً من صنع الإنسان ، ويشكل ديناً يصلح للعالم المعاصر بأسره.

وكنت أحضر إلى مدرسة الأحد الثقافية الأخلاقية كلَّ أسبوع ابتداءً من سن الحادية عشرة حتى تخرّجت فيها وكنت في الخامسة عشرة من عمري. ومن هنا سنح لي أن أطلع على أفكار الحركة تماماً ، وبدأتُ أنظر إلى جميع التقاليد والأديان بازدراءٍ وسخرية.

ولمّا بلغتُ الثامنةَ عشرةَ من عمري ، انضممتُ إلى حركة صهيونية شبابية معروفة باسم **ميزراشي هاتزير** (Mizrachi Hatzair) ، ولكن سرعان ما علمتُ أن الطبيعة الصهيونية الحقيقية هي التي خلقتِ العداء بين اليهود والعرب إلى درجة أنّه لا يمكِنُ التعايش بينهما ، ووجدتُ

نفسي في وقتٍ لاحق أعاني من حالة اشمئزاز لعدة شهور.

ولمّا بلغتُ العشرين، وكنت طالبة في جامعة نيويورك، كان عليَّ أنْ أدرسَ مادةً اختيارية بعنوان «اليهودية في الإسلام». ولم يدّخر أستاذي لهذه المادة البروفيسور الحاخام أبراهام إسحاق كاتش - رئيس قسم الدراسات العبرية - جهداً لإقناع طلبته - وجميعُهم كانوا يهودًا، وكثيرٌ منهم يطمحون أن يكونوا حاخامات المستقبل - أنَّ الإسلامَ يعودُ أصلُه إلى اليهودية، حيث استمدَّ منها أفكاره وشعائره الدينية. وكان الكتاب المقرر تدريسُه من مؤلّفات البروفيسور كاتش نفسه، ذكر فيه آيات قرآنية، وحاول قُصارى جهده أن يثبتَ أنَّ الإسلامَ يعودُ أصلُه إلى المصادر اليهودية. وعلى الرغم من أنّ هدفه الأساسي هو أن يثبتَ للطلاب تفوّق الديانة اليهودية على الإسلام، إلا أنه أقنعني بعكسِ ذلك تماماً.

وسرعان ما اكتشفتُ أنّ الصهيونية ما هي إلا مزيجٌ من جوانب العنصرية اليهودية، كما أنّ الصهيونية القومية العلمانية الحديثة أثارت مزيداً من الشكوك والشبهات في ذهني، حيث علمتُ أنَّ عدداً قليلاً من قادة الصهيونية يهتمون بأنفسهم بالديانة اليهودية، ويمارسونها في حياتهم اليومية، فضلاً عن اليهودية الأرثوذكسية التقليدية التي تلاقي احتقاراً مكثفاً كما هو الحال في إسرائيل.

وعندما وجدتُ أنّ معظم زعماء اليهود في أمريكة يؤيدون الصهيونية حيث لا يشعرون بأدنى شيءٍ من وخز الضمير بسبب الظلم والهمجية التي يعاملون بها الفلسطينيين، لم يعد لليهوديةِ شيءٌ في قلبي.

وفي صبيحة يوم من أيام نوفمبر ١٩٥٤م قال البروفيسور كاتش

خلال محاضرته مستنداً إلى منطق لا يمكن دحضه: «إنَّ تعاليمَ التوحيد الذي دعا إليه نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ ، وكذلك الشريعة الإلهية التي أنزلت عليه كانت إلهية لا غنى عنها باعتبارها أساساً للقيم الأخلاقية العليا جميعاً. وإذا كانت الأخلاق البحتة ـ كما لقنتها الأخلاقياتُ الثقافية والفلسفات الملحدة الأخرى ـ هي من صنع الإنسان ، ويمكن تغييرها بناءً على الرغبة ، ووفقاً للشهوة والظروف والملابسات ، فإنها سوف تتمخّض عن الفوضى النفسية التي قد تؤدي إلى الفساد والدمار على المستويين الفردي والاجتماعي».

أمّا الإيمان بالآخرة كما دَرَسه الحاخام في (التلمود) ، فقد قال البروفيسور كاتش: «إنه لم يكن مجرّد تمنيات فحسب ، بل هي ضرورة أخلاقية» مضيفاً «أنّ الذين يؤمنون إيماناً راسخاً بأنّ الله سوف يستدعي كلَّ واحد منا يوم القيامة ليقدّم بياناً كاملاً عن حياته الدنيوية ، ثم يكافأَ أو يعاقَب تبعاً لذلك ، وبذلك سوف يملك الإنسانُ الانضباطَ الذاتيَّ للتضحية بالسرور الانتقالي ، وتحمل المشاق ، ثم التضحية من أجل الحصول على السعادة الدائمة».

خلال حضور دروس البروفيسور كاتش ، سنح لي أن ألتقي الآنسة زينيتا ليبرمان (Zenita Liebermann) ، تلك الفتاة غير العادية والمثيرة للغاية والتي لم ألتق مثلها في حياتي. وفي أول يوم حضرت دروس البروفيسور كاتش ، نظرتُ في أنحاء الغرفة أبحث عن مقعدٍ فارغٍ لأجلسَ عليه ، فوجدتُ مقعدين فارغين ، فجلستُ على أحدهما. أما الثاني ، فإنّه كان يحتوي بين مسنديه ثلاثَ مجلدات ضخمة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنكليزية للعلامة عبد الله يوسف

علي ، فأعجبتُ بها ، حيث بدأتُ أفكّر لمن تنتمي هذه المجلدات الضخمة.

وقبل أن يبدأ البروفيسور كاتش محاضرته ، جلستْ إلى جانبي فتاةٌ طويلة القامة ، نحيلة الجسم ، كثيفة الشعر ، وكان مظهرُها مميزاً ومنفرداً. فخطر على بالي بأنّها طالبة أجنبية من تركية أو سورية أو من أية دولة أخرى من الشرق الأدنى. أما معظم الطلاب الآخرين ، فكانوا شباباً يرتدون القلانس السود كحاخامات اليهود ، والذين أرادوا أن يصبحوا حاخامات المستقبل. ولم يكن في الصف من البنات إلا نحن الاثنتان ، وبينما كنا نغادر المكتبة ظهيرة ذلك اليوم ، قدّمتْ لي نفسها ، حيث قالت لي: إنّها ولدت في عائلة يهودية أرثوذكسية ، وهاجر أبواها من روسية إلى أمريكة قبل بضع سنين من ثورة أكتوبر ١٩١٧م هروباً من الاضطهاد والعدوان. ولاحظتُ أن صديقتي الجديدة تتكلّم الإنكليزية بكل دقة وحذر مثل الأجانب ، فهي نفسُها أكدت لي هذه التكهنات ، فأبلغتني أن عائلتها وأصدقاءهم لا يتكلمون إلا اللغة اليديشية فيما بينهم. ولم تتعلّم اللغة الإنكليزية إلا بعد الالتحاق بالمدارس العامة. وقالت لي: إنّ اسمها كان زينيتا ليبرمان ، ولكن في محاولة التقارب مع الأمريكيين ، غير والداها اسم العائلة إلى (Lane) ، بالإضافة إلى تعلم العبرية من والدها ، وقد قالت لي: إنّها تنتهزُ وقت الفراغ لتعلم اللغة العربية.

ودون إنذار مسبق قررت زينيتا قطع الدراسة ، مع أنني واصلت حضور المحاضرات إلى نهاية الدورة ، لم تعد زينيتا نهائياً إلى الدروس. ومضت أشهر هكذا، وكأني نسيتها، وفي يوم من الأيام فاجأتني بالاتصال بي ، وطلبت مني الاجتماع معها في متحف الميترو

بولـيتـان للفنون (Metropolitan Museum) والذهـاب معها لزيـارة معرض مختص بالخطّ العربي والمخطوطات القديمة للقرآن الكريم. ومن خلال جولتنا للمتحف، حكت لي زينيتا قصّةَ إسلامها أمام صديقتين فلسطينيتين لها كشهود. فسألتُها: **لماذا قررت أن تعتنقي الإسلام؟**

فقالت لي: «إنّها غادرت دروس البروفيسور كاتش عندما أصيبت بمرض هو فشل كلوي شديد، حيث تدهورت حالتها الصحية، وفقد والداها الأمل في حياتها» واستطردت قائلة: «وفي ظهيرة يوم من الأيام، كنت أتلظّى من الحمى الشديدة، فبدأتُ أقرأ في المصحف الموجود بجانب فراشي، وبينما كنتُ أتلو الآيات بدأت أشعر بشيءٍ غريبٍ في كياني، حيث أثرت الآيات القرآنية أيّما تأثير في قلبي، وهزّت مشاعري ووجداني، فلم أتمالك نفسي من البكاء، وعلمتُ علمَ اليقين بأنني سوف أُشفَىٰ من مرضي. وسرعان ما تحسّنت حالتي الصحية، واستعدتُ قواي، فاستدعيت صديقتيَّ المسلمتين، وأعلنتُ شهـادة أن لا إلـه إلا الله وأنّ محمـداً رسـول الله، لأدخـلُ فـي دائـرة الإسلام».

أنا وصديقتي زينيتا نأكل في المطاعم السورية، حيث اكتسبنا مذاقاً أكيداً لهذه الوجبات اللذيذة، وعندما يجتمعُ لدينا مال كافٍ كنا نطلب وجبة الكُسْكُس وغيرها من المأكولات العربية من الرز والشوربة، أما في حالة توفر كمية قليلة من النقود فكنا نطلب الأرز والعدس العربي والفول وغيرها من المأكولات العربية الشهية.

وخلال إلقاء البروفيسور كاتش محاضراته، كنت أقارِنُ في ذهني بين ما قرأتُ في العهد القديم والتلمود وبين التعليمات التي يدعو إليها

القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، فتوصّلت إلى نتيجة هي أن اليهودية محرفةٌ إلى حدٍّ كبير ، حيث عبث بها الدهر عبثاً كثيراً ، فلم يبقَ لي إلا أن أعتنقَ الإسلام.

س٢ـ هل كنتِ خائفةً من أنك قد لا تكونين مقبولةً لدى المسلمين؟

ج٢ـ إنّ تعاطفي المتزايد مع الإسلام ومثله العليا أثار غضبَ اليهود الآخرين الذين كنتُ أعرفهم ، وعندما علموا أنني اعتنقتُ الإسلام بدؤوا يعتبرونني كأنني ارتكبت أكبرَ خيانة دينية بالنسبة لهم. وكانوا يقولون لي: إنّ مثل هذا العمل الشنيع لا يؤدّي إلا إلى المسّ بكرامة الآباء والأجداد ، وهو عار عليهم ، ولا يجلب إلا الكراهية لهم.

كذلك حذروني من أنني حتى بعد اعتناقي للإسلام ، لن تستوعبني المجتمعات الإسلامية.

وأثبتتِ الأيامُ أنّه لا أساسَ لمثل هذه المخاوف حيث إنني تلقيتُ ترحيباً حاراً وحفاوةً بالغةً من قبل المسلمين جميعاً ، ولم أجد فرقاً بين المسلم القديم والمسلم الجديد.

كما أريدُ أن أوضِّح في هذا المقام أنني لم أعتنق الإسلام لأنني كرهت دينَ آبائي وأجدادي وتراثهم ، بل قراري هذا كان من طلب ضميري ، وهو الانتقال من الضيق إلى السعة ، أي إلى دين ديناميكي شامل وهو الإسلام ، أليس كذلك؟!

س٣ـ هل واجهتِ المعارضةَ من قبل أهلك بسبب دراستك للإسلام؟

ج٣ـ على الرغم من أنني وددتُ أن أعتنق الإسلام عام ١٩٥٤م ، إلا أن عائلتي تمكّنت من إبعادي عن ذلك. وحذّرتني من أنّ الإسلام

من شأنه أن يعقّد حياتي ، لأنه ليس مثل اليهودية والنصرانية اللتين تعتبران جزءاً من المشهد الأميركي.

وقيل لي : إنّ الإسلام سوف يؤدّي إلى التنفير من أهلي ، والعزلة عن المجتمع الأمريكي.

لم يكن إيماني آنذاك قد وصل إلى درجة الرسوخ الذي يشجّعني على المثابرة والصبر والتحمل لهذه الضغوط الاجتماعية. ونتيجة لهذه الاضطرابات الداخلية ، مرضتُ مرضاً شديداً حتى أُجبرت على قطع دراستي العليا قبل أوانها ، ولزمتُ البيت سنتين تحت الرعاية الطبية الخاصة ، وتحوّلتْ حالتي الصحية إلى الأسوأ ، حتى يئس مني أبواي ، فأدخلاني خلال الفترة ١٩٥٧م ـ ١٩٥٩م إلى عددٍ من المشافي الخاصة والعامة ، فهنا قررتُ أن أعتنق الإسلام إذا شفيتُ من مرضي.

وبعد أن سُمِحَ لي الخروج من المشفى ، وعدت إلى منزلي ، بحثت عن كل الفرص للالتقاء بالمسلمين في مدينة نيويورك. وكان من حُسْن حظي أني التقيت بخيرة الرجال والنساء الذين يتمنّى المرء أن يجتمع بهم ، وكذلك بدأتُ أكتب المقالات للمجلات الإسلامية.

س٤ـ ماذا كان سلوك أهلك وأصدقائك بعد أنْ أشهرتِ إسلامك؟

ج٤ـ بعد أن اعتنقتُ الإسلام ، بدأ أهلي وأقربائي وأصدقائي وأقراني يعتبرونني متعصبةً ومتشددةً إلى حد ما ، وذلك لأنني كنتُ لا أفكر ولا أتحدث إلا عن الإسلام. وبالنسبة لهم ، كان الدينُ حالةً شخصيةً لا علاقة لها بالحياة الاجتماعية ، ويمكن غرسه في ذهن الإنسان مثل أيٍّ من الهوايات الإنسانية الأخرى. ولكن بعد أن قرأتُ القرآن الكريم ، بدا لي أنَّ الإسلام ليس هواية ، **بل هو عقيدة وحياة.**

س٥ـ كيف أثر القرآن الكريم في حياتك؟

ج٥ـ في إحدى الليالي ، كنت حزينة وكئيبة للغاية ، وتناوشتني الوساوس حتى ذهب عني النوم. فدخلَتْ أمي غرفتي ، وقالت لي : إنها على وشك الذهاب إلى المكتبة العامة (Larchmont) ، وسألتني إذا أردتُ أي كتاب من هناك. فطلبتُ منها النظر في المكتبة فإذا وجدت هناك نسخةً من الترجمة الإنكليزية لمعاني القرآن الكريم فلتأتني بها. فعادت بنسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم. فكان اشتياقي إليها شديداً ، فأخذتها من يدها ، وقرأتُها طوال الليل. وهنا أيضاً وجدتُ فيها بعض القصص المماثلة لتلك التي قرأتها أيام طفولتي في الإنجيل.

وخلال المراحل المختلفة من دراستي في المدارس والكلية ، تعلّمت قواعد اللغة الإنكليزية ، إلى جانب الفرنسية والإسبانية واللاتينية واليونانية حسب الضرورة ، والرياضيات ، والهندسة ، والجبر ، والتاريخ الأوروبي والأمريكي ، ، والعلوم الابتدائية ، والأحياء ، والموسيقا ، وغيرها من العلوم الأخرى ، ولكن لم أتعلّم شيئاً عن الله. هل تستطيع أن تتصوّر كم كنتُ جاهلةً بالله ، حتى كتبت إلى الأخ المحامي الباكستاني ، واعترفتُ له لماذا كنت ملحدة؟! لأنني لم أستطع أن أؤمن بأنّ الله في الواقع رجل مسن ، وله لحية طويلة بيضاء ، وهو جالسٌ على عرشه في السماء.

وعندما سألني من أينَ تعلّمتِ هذا الشيء الفظيع؟! قلتُ له: من نسخ البابا سستين شابيل التي رأيتها في مجلة (لايف) لمايكل أنجلو تحت عنوان «التخليق» و«الذنب الحقيقي». وصوَّرَتْ الصور كلها الربَّ بصفة رجل مُسِنّ ، ذي لحية طويلة بيضاء ، ويعلق العديد

من صلبان المسيح الأولى التي شاهدتها مع باولا في متحف (الميترو بوليتان) للفنون. ولكن قرأت في القرآن: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (٣٩) أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٣٩ ـ ٤٠].

كان انطباعي الأول عند قراءة القرآن الكريم أنّ هذا هو الدين الوحيد الحقيقي، وأنه لا شك في صدقه، وصراحته، وإخلاصه، وأمانته، **فهو الدين الذي لا يسمح بالتنازلات الرخيصة والنفاق على الإطلاق.**

وفي عام ١٩٥٩م، أمضيتُ الكثيرَ من وقت الفراغ في قراءة الكتب الإسلامية في مكتبة نيويورك العامة. وفي هذه المكتبة عثرتُ على أربعة مجلدات ضخمة من الترجمة الإنكليزية لكتاب (مشكاة المصابيح)، ومن هنا أدركتُ أنّه لا يمكن فهم القرآن الكريم بشكل صحيح وتفصيلي من دون الرجوع إلى السنة النبوية ذات الصلة الوثيقة بالقرآن الكريم، فهل يمكن تفسيرُ القرآن الكريم دونَ الرجوع إلى النبي ﷺ، الذي أُوحي إليه هذا الكتاب المجيد من لدن حكيم خبير؟!

بعد أن قرأت كتاب (مشكاة المصابيح) بدأت أعترف بأنّ القرآن الكريم وحيٌ إلهي، واقتنعت أيضاً بأنّ القرآن الكريم يجب أن يكون

كلاماً إلهياً وليس من تأليف النبي ﷺ كما يدعي المستشرقون الحاقدون ، فهذا الجواب كان مقنعاً للأسئلة المهمة والمتعلقة بالحياة ، والذي لم أجده في مكان آخر .

في مرحلة الطفولة ، كنتُ خائفةً من الموت ، وخاصة عندما أفكر في موتي في الكوابيس ، كنت أوقظ أبويَّ باكية في منتصف الليل ، وعندما سألتهما لماذا عليَّ أن أموت؟ وما الذي سيحدثُ لي بعد الموت؟ كان ردّهما : عليكِ أن تتقبلي هذه الظاهرة التي لا مفرّ منها . ولكن كان الاقتناع بذلك بعيد المنال ، لأنّ العلوم الطبية كانت تتقدّمُ باستمرار ، ربما وددتُ أن أعيش مئة سنة . وكان أبويّ وجميع صديقاتي قد رفضوا تصوّر الآخرة معتبرينها هي ويوم الدين ، وفكرة الجزاء والعقاب ، والجنة والنار خرافة ، لأنّها من المفاهيم التي كان لها صلة بالعصور الماضية .

وبطبيعة الحال ، تصفّحتُ من دون جدوى صفحات (التلمود) لأعثر على مفهوم واضح للآخرة لا لبسَ فيه . فوجدتُ في (التلمود) أنّ الأنبياء والرسل والأحبار المذكورين في (الإنجيل) سوف يتلقون المكافآت أو العقاب في هذه الدنيا .

أما قصة نبي الله أيوب (Job) عليه السلام فهو نبطي ، أهلك الله كلَّ من أحبه ، وما ملكه ، وابتلاه بمرض لامتحان قوة إيمانه . واشتكى النبي أيوب إلى ربه : لماذا يجعل الرجل الصالح يعاني؟! وفي نهاية القصة ، يعيدُ الله له كل ما خسره في هذه الدنيا ، ولكن لم يذكر شيئاً عن ما يحدث له في الآخرة .

على الرغم من أنني لم أجد ذكر الآخرة في (العهد الجديد) ،

كما هي في القرآن الكريم ، فإنها في العهد القديم مبهمةٌ وغامضةٌ.

كما لم أجد الإجابةَ عن سؤال الموت في اليهودية الأرثوذكسية ، حيث إنّ (التلمود) يلقِّنُ أنَّ الحياةَ ولو كانت هي الأسوأ ، فإنها أفضلُ من الموت. وكـان أبـواي يؤمنـان بالفلسفة التي توجب على المرء أن يتجنّب التفكير في الآخرة ، ويتمتع بأفضل ما يمكن له من سعادة الحياة الدنيوية ، ورخائها. كما يقول الشاعر العربي إيليا أبو ماضي:

تمتّـع بـالصبـحِ مـا دمـتَ فيـه ولا تخفْ أن يزولَ حتى يزولا

وكان لهما رأيٌ خاصٌ في هذا الباب. ووَفْق اعتقادهما فإنّ مقصد الحياة هو الاستمتاعُ بها ، فالسعادةُ هي التي تتحقق من خلال التعبير عن الذات وَفْقاً لمواهب المرء ، ومحبة الأسرة ، والصداقة المشتركة العميقة ، والعِيشة الهنية ، والانغماس في الملاهي المتنوعة ، التي تتوفر في أمريكة! إنهما زرعا التصوّر السطحي للحياة كأنّه ضمانٌ لاستمرار سعادتهما وسرورهما.

ومن خلال التجربة المريرة ، أدركتُ أنّ الانغماس الذاتي لا يؤدي إلا إلى البؤس ، ولم يتم تحقيق أي إنجاز كبير أو صغير دون النضال والكفاح والصبر والمثابرة ، والتواضع ، وإنكار الذات في تاريخ الإنسان.

فمنذ نعومة أظفاري ، أردتُ دائماً أنْ أحقق إنجازاً مهماً في حياتي ، وقبل وفاتي. أردتُ أن أتأكد من أنَّ حياتي لا تضيع في السيئات والمعاصي أو في أشياء لا تعنيني.

كنتُ فتاةً جادة للغاية طوال حياتي ، ودائماً أمقتُ وأكره العبثَ

واللامبالاة ، وهما السمتان الغالبتان على الثقافة المعاصرة. فذات مرة أقلقني وأزعجني أبي بمحاولته إقناعي بأنّه لا توجد هنالك أية قيمة ثابتة ، وذلك لأنّ كل شيء في هذا العصر الحديث يقبل الاتجاهات الراهنة، ولا مفر من ذلك ، وعلينا أن نتكيّفَ معها مهما كان الثمن.

وحيث إنني كنتُ أرغب في إنجاز شيء من شأنه أن يدوم إلى الأبد. ومن خلال قراءتي للقرآن الكريم ، أدركتُ أنّه يمكنني تحقيق هذا الطموح ، فالقرآن هو الذي يقول: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠]. ولو لم يتلقَّ الإنسان العرفان والتقدير على أعماله الصالحة في هذه الدنيا ، فإنّ جزاءه موفورٌ في الآخرة لا ريبَ في ذلك.

وعلى العكس من اعتقاد أبي ، فإنّ القرآن الكريم يخبرنا أنّ الذين يسلكون المناهج الأخلاقية غير التي قرّرها الله سبحانه وتعالى للإنسان لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة ، فإنّ أعمالهم تذهبُ هباءً منثورًا [(١)] ، مهما كان مدى إنجازهم في هذه الدنيا الفانية من الازدهار والتقدم والرقي والنجاح ، سوف يكون مصيرُهم يوم القيامة مصيرَ الخاسرين ، وذلك هو الخسران المبين.

كما يعلمنا القرآن الكريم بأنه يجب علينا أن نتخلّى عن الأنشطة والأعمال التي لا طائل منها حتى نتمكنَ من أداء واجبنا الديني ، كما فرضه الله علينا تجاه أبناء جلدتنا بشكل مطلوب.

وهذه التعاليم القرآنية والإرشادات الإلهية نجدها أكثرَ تفصيلاً في

---

(١) شرطا قبول الأعمال الصالحة في الإسلام الإخلاص وموافقتها لما شرعه الله (ن).

الحديث النبوي الشريف ، التي كانت متطابقة ومتوافقة تماماً مع مزاجي وطموحاتي.

س٦ـ ما رأيكِ في العرب بعدما أسلمت؟

ج٦ـ على مرور الزمن ، أدركتُ أنَّ العربَ لم يجعلوا الإسلام عظيماً ، لكنَّ الإسلامَ هو الذي حوَّلهم من قبائل في صحراء قاحلة إلى سادة العالم. لولا رسولُ الله محمد ﷺ ، لكانَ العرب شعباً مجهولاً كالأسكيمو أو الزولو ، ولولا القرآن الكريم ، لكانت اللغة العربية غير ذات أهمية إن لم تكن قد بادت.

س٧ـ كيف أثّر الإسلام في حياتكِ؟

ج٧ـ وجدتُ في الإسلام ما كنتُ أبحث عنه من القيم المطلقة الأكيدة ، فرويتُ غُلّتي في الإسلام ، لأنَّ الإسلامَ هو الذي دلّني على جادة الحق التي تؤدي بالإنسان إلى تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة ، في حين نجد في الديانات الأخرى ، أنَّ الحق مشوَّهٌ ومحرَّفٌ ، ومقيّدٌ ومحظور ومجزّأ.

ولو سألني أحدٌ كيف عرفت ذلك؟ فأقول له بكل صراحة وأمانة : إنّ تجاربَ الحياة كافيةٌ لإقناعي. فعلى الرغم من أنَّ تمسكي بالعقيدة الإسلامية هادىءٌ وبارد ، إلا أنه قوي وأكيد ، لا لَبْسَ فيه. كنت أعتقد ولا أزال أعتقدُ أنني كنت مسلمة في قلبي ومزاجي ، حتى قبل أن أعلم أنّ هناك شيئاً اسمه الإسلام. ولم يكن إشهار إسلامي إلا شيئاً رسمياً ، لا ينطوي على تغيير جذري في قلبي على الإطلاق ، وإنّما كان قراراً رسمياً كنت أفكر فيه منذ عدة سنوات.

١٠ ـ مريم جميلة تحكي قصة إسلامها بنفسها[١]

منذ نعومة أظفاري ، بدأتُ أتساءل: ماذا يعني حقّاً أنْ أكونَ يهودية؟ وأحسب أنني بدأتُ أسأل نفسي ذلك ، عندما أخذتْ زميلاتي النصرانيات في المدرسة يدعونني في عيد الفصح بقاتلة المسيح. وبعد انتهاء عيد الفصح ، كنّ ينقلبن بكل غرابة إلى رقيقات ودودات حتى نهاية العام. وعندما سألتُ ذات مرّة صبياً رومياً كاثوليكياً: لِمَ يعمل ذلك؟ أجاب بأنَّ القسيس أخبره بذلك.

ومع أنني كنتُ في الخامسة من عمري عندما نشبت الحرب العالمية الثانية ، وفي الحادية عشرة من عمري عندما انتهت ، إلا أنَّ أخبار الحرب المتواصلة في الإذاعة والصحافة ، والوصف الرهيب لعملية استئصال اليهود على يد الحكم الهتلري النازي في ألمانية ترك أثراً لا يُمحَى من ذاكرتي[٢]. وكان هناك اختلاف طفيف ملحوظ حتى في

(١) انظر: كتاب (الإسلام بين النظرية والتطبيق) لمريم جميلة ، ترجمه إلى العربية: س. حمد ، مكتبة الفلاح ، الكويت (١٩٧٨م) ، ص: ١٣ ـ ٢١.

(٢) لم يكن استئصال اليهود على أيدي العنصريين النازيين ـ وما أكثر العنصريين في أوربة ـ عملاً شاذّاً في التاريخ الأوروبي الذي شهد عمليات استئصال كثيرة عبر تاريخه الطويل ، ولعلّ من أبشعها محاكم التفتيش الإسبانية ضد المسلمين ، وحروب الكنائس بين الأوروبيين أنفسهم ، وأخيراً وليس آخراً مذابح المسلمين في البوسنة والهرسك ، فكأنّ النفسية الغربية تبرر جرائم الحروب وجرائم الإبادة الجماعية رغم ادعاءاتهم الكاذبة حول حقوق الإنسان ، ومواقفهم تجاه جرائم إسرائيل الشنيعة بحق الفلسطينيّين ، وخاصة ما جرى في حرب غزة الأخيرة الذي يشهد على كذبهم ونفاقهم (ن).

المظهر البدني بيني وبين أترابي النصرانيات. كل ذلك جعلني أعتقدُ أن كوني يهودية يعني كوني مختلفة، ولا أتبع في الحقيقة المجتمعَ الذي كان عليَّ أن أكون جزءًا منه.

وعندما كنتُ في التاسعة والعاشرة من العمر، وطوال السنتين من دراستي الأسبوعية الدينية اليهودية، استبدّت بي فكرةُ البحثِ الشخصي عن الحقيقة، فالتهمتُ كلَّ ما وصلتْ إليه يدي من كتب اليهودية التي وضعت بالإنكليزية. وسرعانَ ما ألفتُ تاريخَ اليهود المحزن، حتّى إنّ الصورَ التي كانت مرسومةً على صفحات الكتب التي قرأتها، بدت في بعض الأحيان حقيقة أكثر من الحياة الواقعية التي حولي. وبدا لي **(راشي)** وهو من أبرز علماء اليهود في أوروبة في العصور الوسطى كفتى نحيل، بقلنسوته الضيقة، وذؤابتيه الطويلتين، وعينيه الواسعتين السوداوين الحزينتين، يجلس متربعاً، ويتلو من الفجر إلى الغسق من سِفْر من التلمود، و**(موسى بن ميمون)**، وهو مفكّرٌ لامعٌ آخر، وهو يصفُ في رسالةٍ لصديقٍ له أيّامه في مصر عندما كان طبيباً خاصاً لصلاح الدين الأيوبي، ثم ازدهار الثقافة العبرية في إسبانية المسلمة، وما تلاه من أحداث تاريخية لا نهايةَ لها من المذابح والاضطهادات المتعاقبة إبان الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش الإسبانية، وفي النهاية عزل يهود أوروبة بالقوة في الأحياء اليهودية «الغيتو».

وفي الطريق إلى شقة قريبتي في مدينة نيويورك، وكانت هناك مدرسةٌ لتدريب الأحبار اليهود حيث كان المتدينون من الآباء يرسلون أبناءهم بقلانسهم الضيقة، وذوائبهم المتدلية، وأكداس من الكتب العبرية. فيجلسون يتمايلون إلى الأمام وإلى الخلف، يرتّلون بأصوات عالية منسجمة التوراة والتلمود، تحت إِمرةِ مدرّس شديدٍ قاسٍ، ذي

لحية كثّة سوداء ، وعصا طويلة ثقيلة ، يوجِعُ بها عظام تلاميذه الكسالى. ثم يتلو ذلك ترانيم «الكُنُس اليهودي» الباكية.

ومع أنّ هذه التجارب كانت جزءًا لا يتجزّأ من طفولتي ، إلا أنّ عائلتي كانت لا تمُتُّ بصلة إلى هذا العالم. لقد وُلِدْتُ في بيت «إصلاحي» ، «متأقلم مع مجتمعه» وليس محافظاً. ولم يكن والداي ولا أقاربي يتبعون الشريعة اليهودية. وكانت عائلتي ، بخلاف الجمهرة الغالبة من يهود أمريكة من أصل ألماني لا من أصل روسي. وهم لم يطردوا من ألمانية كما طرد اليهود من روسية بالمذابح والاضطهاد ، ولكنّهم نزحوا باختيارهم إلى أمريكة منذ أكثر من قرن ، سعياً وراء الازدهار الاقتصادي. وعلى خلاف يهود أوروبة الشرقية ، فإنّ هؤلاء النازحين من ألمانية لم يأتوا من الأحياء اليهودية «الغيتو» ، بل كانوا قد ذابوا في مجتمعات الأغلبية النصرانية. وإنّ والدة جدتي ، التي كانت شقراء وألمانية المظهر ، كأيِّ ألمانيّة أخرى ، لم تكن أبداً تتوانى عن الاحتفال بعيدِ الميلاد على أكمل وجه ، بما في ذلك الهدايا المنتقاة لأبنائها وأحفادها وشجرة كبيرة مزيَّنة لعيد الميلاد.

ولم يكن اليهودُ «المتحضرون» يسمّون بيت العبادة «كنيساً» ، بل «معبداً». وكانت الطقوسُ المعبدية «الإصلاحية» تقامُ على شكل وأساليب الطوائف النصرانية البروتستانتية ، بمجموعات مختصة مدرَّبة مختلطة من الرجال والنساء (بعضهم مسيحي) يغنّون الألحان المعروفة للتراتيل المسيحية بكلمات أخرى وُضعت كي لا تؤذي المستمعين اليهود.

وكانت طقوسنا في المعابد الإصلاحية جميعها باللغة الإنكليزية تقريباً مع شيء قليل من العبرية ، وفي شرائعنا التي يحسبها المحافظون أساسية لنا لم يكن شيئاً منها ملزِماً لنا ، كما أنها كانت تعتبر من قِبَلِ

قادتنا المصلحين أشياء بالية ، ولا قيمة لها في الحياة الحديثة.

وبالمثل ، فإن بيتنا لم يكن يتميز عن بيت جيراننا النصارى ، وكنا نشعر أننا بعيدون عن التمسّك بالدين مثلهم. والشيءُ الوحيدُ الذي كان يحفظ عائلتنا من أن تفقد هويتها كلية هو تلك الحقيقة المدهشة ، وهي أننا مع كوننا ذائبين في المجتمع النصراني فلم نكن نتزاوج معهم ، وكذلك كانت صلاتُنا الاجتماعية منحصرةً مع أبناء جنسنا.

كنتُ دائماً أحتقرُ اليهودية التقدّمية «الإصلاحية» غايةَ الاحتقار ، لأنّها مع مجاهدتها لتنسجمَ مع الحياة الغربية الحديثة ، أصبحتْ مجرّد مجموعة من التفاهات الفارغة ، الخاليةً من أي معنًى بالنسبة لي. وكنتيجة لتجاهلها التام للشريعة التوراتية ، فقد أصبح أتباعها يهوداً بالاسم فقط.

وفي الحقيقة فقد بدا لي أنَّ «حركة الإصلاح» كانت دوماً تنبذ كل ما في اليهودية ، ولا تستبقي منها إلا الاسم. وكان كثيرٌ من اليهود التقدّميين ملحدين ، يتمسّكون ببعض العبادات اليهودية من قبيل العادة أو التقليد العائلي أو تحت ضغط التآلف الاجتماعي.

لقد كان غرضُ «حركة الإصلاح اليهودية» يُقْصَدُ منه ، «جذبُ أولئك اليهود الذين كانوا ـ لولا الحركة ـ سينشأون ويفقدون كلَّ أثرٍ لشخصيتهم اليهودية ، ويعيدون بناءَ عقيدتهم في الجوهر والمظهر ، بما يتفق والحياة الأمريكية المعاصرة. ولقد جاءت النتائجُ الوهمية للفكرةِ الكاملةِ ولحركة الإصلاح واضحةً تمامَ الوضوح عندما رأيتُ بأمِّ

عينيَّ أنها لم تفشل في صدِّ تلك الثقافة فحسب ، بل شجّعت تلك المسيرة.

لقد كان الجيلُ الأول من المهاجرين اليهود ـ وعلى الأخص أولئك الذين كانوا من أصول أوروبية شرقية ـ متمسِّكاً متعصباً لدينه. إلا أنَّ أحفادَهم بعد أن تشرّبوا أساليبَ الحياة الأمريكية بالثقافة المدرسية العامة ، انقلبوا (دون تمييز) على الشرائع والطقوس اليهودية التي كانت غريبةً عن بيئتهم ، وعلى السلطة الأبوية التي كانت تحاولُ أن تفرض نفسها عليهم بالقوة. ولكنّهم لتمسكهم بفكرة اليهودية عاطفياً وشعورياً ، لم يهجروها كلية ، بل أصبحوا أتباع «معبد إصلاحي» ، وذلك كان يرفعُ منزلتهم الاجتماعية في عين الجمهور ، إذ كان الانضمامُ يتطلّب المال. وكانت العضوية مقتصرةً على الطبقات العليا. إلا أنَّ الجيل الثالث لم يكن توّاقاً لنبذ محتويات اليهودية فحسب ، بل لنبذ الاسم كذلك.

وهكذا ، فما كدتُ أبلغُ سنَّ المراهقة ، حتى أزال أبي وأمي آخر فاصل يفصلنا عن المجتمع النصراني عندما انضما إلى مؤسسة إنسانية «لا إدارية» تُعْرَفُ باسم «جمعية الثقافة الأخلاقية». وبعد سنوات ، وعندما أصبحا غير مرتاحين لهذا ـ وكان من أسباب ذلك أنَّ الغالبية العظمى من الأعضاء كانت من أصل يهودي ـ انضما إلى «الكنيسة الموحدة» المجاورة. ومع أنَّ «الكنيسة الموحدة» التي انضما إليها احتفظت بمظهرها الخارجي النصراني الخلاّب ، إلاّ أنَّ مُثُلَها كانت مطابقةً لجمعية الثقافة الأخلاقية. وقد اقتفت أختي الكبرى الأثر حالاً عندما رأت أبويَّ سعيدين مرتاحين لكونهما «موحّدين». ولربما لن يعتبرا طفليهما يهوديين حتى ولو بالاسم ، وهكذا فقد تمت عملية الإذابة.

ويزعم اليهود الإصلاحيون عامةً أنّ اليهود شعبٌ مضطهد ، لأنهم

يصرّون على أنّهم مختلفون عن جيرانهم. فإذا أزيلَ هذا الاختلافُ أو التمييزُ فإنّ الاضطهاد والصراع سيزولُ من تلقاء نفسه. وأنا لم أجد هذه الحجة مقنعةً في يوم من الأيام، وبالأخص عندما عرفتُ تمامَ المعرفة أنَّ غالبية الملايين الستة الذين قضوا في معسكرات الاعتقال تحت حكم أدولف هتلر النازي، كانوا من اليهود الذائبين في المجتمع الغربي مثلنا.

ولقد فُتِنْتُ منذ طفولتي بعلاقة اليهود بالعرب. ولقد عرفتُ من الكتب العبرية التي طالعتها أَنَّ إبراهيم عليه السلام كان أباً للشعبين[1]. فقد انحدرَ اليهودُ من نسل ابنه إسحاق عليه السلام، بينما يرجعُ نسبُ العرب إلى أخيه الأكبر إسماعيل عليه السلام، أكانت تلك مجرد خرافة أم حقيقة؟ إنّ تعبير (اللاسامية) يعني في أمريكة الكراهية لليهود. ولم يكن ذلك ليوجَّهَ للمعادين للعرب أبداً، مع أنّ العرب ساميون أكثرَ منا بدرجة كبيرة جغرافياً وتكوينياً وثقافياً. وبينما ضعفَ التراثُ اليهوديُّ الساميُّ خلال إقامة اليهود الطويلة في أوروبة، فإنّ قرابتهم الأساسية للعرب استمرت. وفي الحقيقة، فإنَّ الكثير من اليهود الذين أعرفهم من مواطنيَّ، بما في ذلك بعضُ أفراد عائلتي، يشبهون العرب كأي عربي، مع أنّهم من سلالة أوروبية أصيلة.

وصلت الدعايةُ الصهيونيةُ في أمريكة ذروتها في الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٨م وصاحبَ التعاطفَ مع اليهود حملةٌ منظمةٌ في الإذاعة والصحافة تبثُّ الكراهية الشديدةَ العمياء ضد العرب. لقد أحسستُ

---

(١) إن اسحاق عليه السلام أبٌ لبني إسرائيل فقط وليس أباً ليهود العالم (ن).

بفطرتي دجل الدعاية الصهيونية. ويا لخيبة أسرتي! فقد انحزتُ أكثر فأكثر إلى جانب العرب.

وبعد أن قرأتُ كلَّ كتاب تيسّر لي في المكتبة المجاورة لنا عن تاريخ العرب وثقافتهم، وعلى الرغم من اللهجة الجافة، بل المعادية، فقد اقتنعتُ جازمةً أنَّ الدعاية ضدهم كانت ظالمةً. فكلُّ ما قرأتُ عنهم في تلك الأيام كان يثير إعجابي. وإنَّ الميزات نفسَها التي تنفّر الرجل الأمريكي أو الأوروبي العادي من العرب هي التي كانت تجذبني.

وبمرور السنين، اتّضحت الحقيقةُ لي تدريجياً. وهي **أنَّ العربَ ليسوا هم الذين جعلوا الإسلام عظيماً، بل إنَّ الإسلام هو الذي جعل العرب عظماء. فلولا النبي محمد ـ ﷺ ـ لكان العربُ اليوم شعباً مجهولاً كالأسكيمو أو الزولو. ولولا القرآنُ الكريم لكانت اللغة العربية غيرَ ذات أهمية، إن لم تكن قد بادت**. ولأنَّ النبيَّ محمداً ـ ﷺ ـ كان عربياً، ولأنَّ القرآن الكريم أُنزل بالعربية، فإنَّ كلَّ مسلم في العالم العربي ضمن هذه الحدود في ثقافته، دون النظر إلى جنسه أو قوميته. لقد قال الرسول ﷺ: «أحبّوا العربَ لثلاث: لأنني عربي، ولأنَّ القرآن عربي، ولأنَّ حديثَ أهل الجنة عربي»[1].

إنّ الكثيرَ من مثقفينا العصريين يشجبون هذه التعاليم العربية الأصول، ويعتبرونها إقليمية تصلحُ للمجتمع المحدود الذي عاش فيه الرسول ﷺ، لذا فيجب أن تُطرَح كشيء بالٍ.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ١٨٥) والأوسط (٦/ ٢٧١) وهو حديث موضوع كما قال الذهبي. انظر (مَحَجّة القُرَب إلى محبة العرب) للحافظ العراقي ص (٨٩) ط دار العاصمة الرياض (ن).

إلا أنَّ الأصل العربي للرسول ﷺ في نظر المسلم التقي لم يكن اعتباطاً ، فلولا إرادة الله تعالى ، لربما كان رسولنا يونانياً ، أو رومانياً ، أو إنكليزياً. بالتأكيد يجب أن يكون في الأمر سببٌ لاختيار الله رجلاً عربياً ليختمَ به سلسلة النبوة ، مفضِّلاً العرب على أيٍّ من الأمم الأخرى.

والصلةُ بين اليهودية والإسلام أقوى منها بين الإسلام والنصرانية. فإنَّ كلاًّ من اليهودية والإسلام يشتركان على العموم في عقيدة التوحيد الصارمة ، والأهمية العظمى للانقياد الدقيق لشريعة السماء كدليلٍ على خضوعنا وحبِّنا للخالق عز وجل ، ونبذ الكهنوت والتبتل والرهبنة. وفي الشَّبَهِ الأخّاذ بين اللغة العربية والعبرية. حتى إنّ المنهاج الثقافي الذي أوجدته اليهودية الصحيحة والإسلام ليس بينهما اختلاف كبير. فالصبيُّ اليهودي الذي يرتّل التوراة والتلمود في أكاديمية الأحبار في نيويورك لن يشعرَ بالغربة في المسجد. وكذلك فإنَّ الحبرَ يستطيعُ أن يعيشَ كما لو كان بين أهله وهو بين طائفة من العلماء يتدارسون الشريعة الإلهية.

إنّ الدين في اليهودية مختلطٌ بالقومية. ويجدُ الإنسان صعوبةً في التمييز بينهما ، وإنَّ اسم «اليهودية» مشتق من «يهودا» ، واليهوديُّ هو فرعٌ من سبط يهودا. وحتى الاسم لهذا الدين لا يحمِلُ أيَّ معنى لرسالة روحية عالمية. فاليهوديُّ ليس يهودياً بفضل اعتقاده بوحدانية الله ، وضرورة اتباعه الهُدَى المنزل للبشرية ، بل لمجرّد أنه وُلد من أبوين يهوديين. فإن أصبحَ ملحداً معروفاً ، فسيبقى يهودياً في نظر قومه اليهود. وهكذا ، **فإنَّ إفساداً كبيراً بالقومية ، جعل هذا الدين يُفلس روحانياً في جميع مظاهره.** فالإله ليس إله لكل البشر. بل إله لإسرائيل

فقط. والكتب السماوية ليست وحيَ الله للجنس البشري عامة. بل هي في الدرجة الأولى كتب التاريخ اليهودي. وداود وسليمان عليهما السلام ليسا رسولين لله بالمعنى التام، بل هما ملكان يهوديان ليس إلا.

والخلاصُ عند اليهودي لا يكمن في الآخرة كَما يكمن في استعادة فلسطين. وباستثناء يوم الغفران (كيبور) ـ يوم كفارة اليهود أو توبتهم ـ فإنَّ الأعياد والعطل التي يحتفل بها اليهود كيوم التدشين (هانوكاه) ويوم النصيب (بوريم) ويوم الفصح (بيساح): هي أيام ذات أهمية قومية أكثر منها دينية. ونتيجة لذلك، فإن المسيح ويحيى عليهما السلام كُذّبا واحتُقرا في قومهما كمبتدِعَيْن منشقَّيْن، لأنَّ الرسالة التي جاءا بها لم تتفق مع الشعور القومي لليهود السائد آنذاك. ولذلك فقد نزع الله النبوة من بني إسرائيل، وأنعم بها على أبناء عمومتهم العرب.

وكما هو متوقع، فقد كذّب اليهود نبينا الكريم محمداً ﷺ ورسالته بعنف شديد. لقد كانت ضربة قوية لكبريائهم القومية أن يختار الله رجلاً عربياً أمياً رسولاً له.

يقول ناتان أزيل في كتابه «تاريخ الشعب اليهودي المصوَّر» ص (٩٣) المنشور في نيويورك سنة ١٩٥٣م: «إن الدين الإسلامي الذي جاء به محمد في القرن السابع الميلادي، كان كالنصرانية من نتاج الديانة اليهودية. ومحمد ـ كالمسيح ـ لم ينو إيجادَ دينٍ جديد، فقد أعلن عن نفسه كنبي يهودي. سواء من قبيل الاقتناع أو مقتضيات الحال ـ بدافع غريب عنه قطعاً ـ فإنَّ محمداً في بداية حياته كنبيٍّ كان يخاطب في مواعظه الدينية يهود الجزيرة العربية خاصة. ولقد اقتبس الكثيرَ من القصص والشرائع التي في القرآن من التلمود والمدراش، ولكن بطريقة محرّفة مدهشة. فاستعمل في تأليف سوره شاعرية القصص الشهيرة من

العهد القديم اليهودي: آدم، وإبراهيم، ولوط، ويوسف، وموسى، وطالوت، وداود، وسليمان، وإلياس، وأيوب، ويونس. ولكن عندما تصدّى له يهود المدينة، العارفون بكتبهم المقدسة، ليفضحوا وصمه للتوراة بالكفر، أعرض عنهم محمد بفظاظة بعد مشادات عنيفة مع أحبارهم. وجاءه جبريل مرة أخرى في الوقت المناسب، وأمره أن يغيّر القِبلة من بيت المقدس إلى مكة. وبعد قليل، انتقم لما لحقه من الأذى من ألسنة اليهود بالحديد والنار. ومع أنّ قرى اليهود الصغيرة في الجزيرة العربية كانت كثيرةً قوية التحصين، إلا أنه استطاع أن يهزمها بالحيلة والهجوم العنيف، فضُربت أعناق آلاف اليهود ومُثّل بهم»[١].

وهكذا، فإنّ تعاطفي المتزايد مع الإسلام ومثله العليا أثار غضبَ اليهود الآخرين الذين كنتُ أعرفهم، وعندما علموا أنني اعتنقت الإسلام بدؤوا يعتبرونني كأنني ارتكبتُ أكبرَ خيانة دينية بالنسبة لهم. وكانوا يقولون لي: إنَّ مثل هذا العمل الشنيع لا يؤدي إلا إلى المسّ بكرامة الآباء والأجداد، وهو عار عليهم، ولا يجلب إلا الكراهية لهم. كذلك حذّروني من أنني حتى بعد اعتناقي للإسلام، لن تستوعبني المجتمعات الإسلامية.

وأثبتتِ الأيامُ أنه لا أساسَ لمثل هذه المخاوف، حيث إنني تلقيت ترحيباً حارّاً وحفاوةً بالغةً من قِبَل المسلمين جميعاً، ولم أجد فرقاً بين المسلم القديم والمسلم الجديد.

---

(١) لم تُضرَب إلا أعناق قبيلة بني قريظة، التي انضمّت إلى الأحزاب التي جاءت إلى المدينة لتقضي على الرسول وأصحابه، وهم لا يزيدون على أربعمئة مقاتل!! أما التمثيل بهم فهو كَذِب وقح!! (ن).

ويستعلي اليهودُ بأنفسهم اليومَ على أيِّ شيءٍ آخر. وذلك لبقائهم واستمرارهم كشعب رغم الاضطهادات والمذابح المتعاقبة على مرّ العصور، التي قصدت استئصال شأفتهم. إنهم لا يملّون من التباهي كيف أنّهم عاشوا بنجاح، بينما أمم لا تُحْصَى غيرهم أشد منهم قوةً بعددهم وجمعهم قد بادت. ولكن بما أنّ مظاهر اليهودية قد ضعفت، وذلك بسبب انهزام اليهود أنفسهم تحت وطأة «الدنيوية» و«المادية الحديثة»، فهنا يأتي السؤال: لقد حافظ اليهودُ على بقائهم، ولكن لأية غاية عاشوا؟ ما مِنْ أحدٍ من اليهود الذين عرفتُهم في مجتمعي الوطني فكّر يوماً في إلقاء هذا السؤال على نفسه. فكيف بالإجابة عليه؟؟ وهم كغيرهم من اليهود المعاصرين في كل مكان يعتبرون الاستمرار في البقاء بالمفهوم الحيوي والسياسي الزمني المجرد كافياً تماماً.

فيا لسخرية الحياة من هذه الأمة التي كانت رسالتها الوحيدة «كشعب الله المختار» هي أن تنير العالم بمعرفة وحدانية الله وأوامره السماوية؟!

إنني لم أعتنق الإسلام لكراهيتي لشعبي أو تقاليد الأجداد. لم تكن رغبة في الرفض بقدر ما كانت رغبة في الحقيقة. كانت بالنسبة لي تعني التحوّل من عقيدة منطوية محدودة إلى أخرى ثورية وحركية لا تقنعُ بشيء أدنى من سيادة العالم. وهكذا، فإنني أستطيعُ القول مع رجل آخرَ من بني إسرائيل الذين اختاروا السير في الدرب نفسه[١]:

«إنّ جدّي الأول إبراهيم عليه السلام كان سيدرك تماماً غايةَ وجودي هنا في مكة. ذلك أن حيرتي الضئيلة بالنسبة لمحنته المرعبة لم تكن

---

(١) هو المسلم النمساوي الشهير (محمد أسد) صاحب المؤلفات البديعة.

مشكلة. كان سيدرك كما أدركتُ الآن أنَّ المعنى لكل ما هممتُ فيه يكمن في رغبتي في اكتشاف نفسي باكتشاف عالم صلته بالمسألة العميقة للحياة، وبالحقيقة نفسها، تختلف كليةً عما نشأتُ عليه في طفولتي وشبابي. فمجيئي إلى جزيرة العرب، ألم يكن في الحقيقة عودة إلى الوطن؟ كانت عودة للقلب الذي نظر خلفه، إلى بيته القديم، ووراءَ منعطف من آلاف السنين، وهو ينظر الآن إلى هذه السماء ـ سمائي أنا ـ بغبطة موجعة. ذلك أنَّ هذه السماء العربية الأكثرَ ظلمة وعلوًا وبهجة بنجومها من أية سماء أخرى، تُظِلُّ تحتها موكباً طويلاً من أجدادي... إنني أرى الآن كم كانت طريقي سهلةً مستقيمةً رغم طولها. طريق من عالم لم يكن لي، إلى عالم هو لي حقاً»[1]

١١ ـ اهتمامُها بدعوة أبويها إلى الإسلام:

ولم تنسَ مريمُ موطنها الأصلي، فقد بعثت برسالتين إلى والديها في مارس ١٩٨٣م تقول فيها:

«لا بدّ أن تعرفا أنَّ المجتمع الذي نشأنا وعشنا فيه كلّ حياتنا يشهد حالة من التفسّخ السريع، وهو الآن على شفا الانهيار. إنَّ أمريكة الآن تكرار لرومة القديمة في المراحل الأخيرة من انهيارها، والأمر نفسُه يصدق على أوروبة وأيّ مكان تغلب عليه الثقافة الغربية، لقد فشلت العلمانية والماديةُ أن تكونا أساساً لنظام اجتماعي ناجح».

وإليك أيها القارىء الكريم ترجمةً عربية لنصّ الخطابين كاملاً:

---

(١) «الطريق إلى مكة» للنمساوي المسلم. محمد أسد.

الرسالة الأولى:

«أبي وأمي العزيزين!

أعيشُ الآن بباكستان منذ أكثر من عشرين عاماً ، خلالها اكتسبتم عائلة إضافية جديدة محبوبة ، لا شك أنها أضافت سعادةً لسعادتكم. لقد بلغتم عمراً ناضجاً ، والحمد لله ، فقد عشتما عمراً طويلاً بصحة جيدة ، أكثرَ ممّا توقعت. كما أنّكما قد قرأتما كلَّ مؤلفاتي وكتبي عن الإسلام التي أرسلتُها إليكما ، بعقلية متفتحة ، وذهن واسع الإدراك. لهذا لستم في حاجة لأية مقدمة للموضوع الذي أريدُ أن أناقشه معكما الآن ، وكل ما سأقوله لن يكونَ غريباً عنكما.

أتساءل ، هل تدركان كم أنتا محظوظان جدًّا؟ بما أنكما تتمتعان بصحة معقولة ، وأنّكما قادرانِ على الاعتناء بنفسيكما ، ويمكنكما الاستمرار بالتمتع بحياة طيبة. وهل فكرتُما في إحدى المرات ، في المصير المأساوي لمئات الآلاف من كبار السن الآخرين الأمريكان ، ضحايا الأمراض المزمنة ، والوهن ، الذين يتزاحمون على المشافي ، وبيوت التمريض (التي هي في الحقيقة تعتبر مخازن للجُثَث) ، وبيوت المسنين ، وعنابر مؤسسات الأمراض العقلية؟

وهل فكرتُما كذلك ، في العدد الهائل للكبار الأرامل اللواتي يعشنَ في غرفٍ قذرةٍ ، في رعبٍ دائم من هجمات متوقعة ، أو سرقات ، ومن

الشباب الجانح الذي يفترسُ الضعفاءَ وكبارَ السن ، دون وازع أو خوفٍ من العقاب؟ .

سوءُ معاملة الكبار إنها نتاجٌ مباشرٌ لعدم وجود الأسرة التي تحميهم .

هل أختكم الكبيرة عمتي (روزالين) التي تعيشُ في حماية أسرة متحابة ، عطوفة ، ومنزل سعيد ، هل فكرتْ كم هي محظوظة بالنسبة لمثيلاتها الأمريكيات اللائي لا ينلن مثل مكانتها؟ .

لا بدّ أن تعرفا أنّ المجتمع الذي نشأتما فيه ، وقضيتُما كلَّ حياتكما فيه يتفكك ، وعلى حافّة الانهيار .

الواقع أنّ الانحدار هذا كان واضحاً منذ الحرب العالمية الأولى ، والفوضى الأخلاقية وغياب أيةِ قيم محترمة ، أو معايير ثابتة للأخلاق والسلوك ، والهَوَس الجنسي الفاسد ، وانتشاره في وسائل الإعلام الترفيهية ، وسوء معاملة الكبار في السن ، ومعدلات الطلاق التي هي في ارتفاع متزايد بين الأجيال الحديثة ، والزواج الدائم والسعيد أصبحَ نادراً ، والاعتداء على الأطفال ، وتلوّث البيئة ، واستنزاف الموارد النادرة ذات القيمة ، والأوبئة التناسلية ، والاضطرابات العقلية ، وإدمان المخدِّرات والمُسْكرات ، والانتحار كعنصر متقدم في أسباب الوفيات ، والجريمة ، والتخريب ، والفساد الحكومي ، واحتقار القانون بصفة عامة . . . كل ذلك له سبب!!! والسبب في ذلك هو فشلُ العلمانية ، والمادية ، وغيابُ القيم الأخلاقية ، وتجاوزُ التعاليم الإلهية ، والقيم الأخلاقية .

العمل في التحليل النهائي ، يعتمد على العقيدة والمبدأ ، فالمقاصد إذا كانت خاطئة ، لا بدَّ للعامل أن يقاسي .

لا شك أن قراءة هذه الملاحظات ستصيبكما بالإزعاج. ستحتجّان بما أنكما لستما لاهوتيين، ولا فلاسفة، ولا علماء اجتماع، فلماذا تضايقينا بمثل هذه الأمور المعقدة، في حين أنها لا تقعُ في دائرة اهتماماتنا المباشرة؟ وفوق كل هذا فنحن سعداء بحياتنا، وقانعين بها كما هي.

أنتما تريدان فقط الاستمتاع بحياتكما الآن، تعيشان كلياً في الحاضر، وتقبلان ما تجيء به الأيام. إذا كانت الحياة رحلة، أفلا يعتبر ذلك تهوراً في أن نبحثَ عن الراحة والسعادة، ولا نفكر في نهاية هذه الرحلة؟ لماذا وُلدنا؟ ما معنى الغرض من الحياة؟ ولماذا سنموت؟ وماذا سيحدث لكل منا بعد الموت؟!.

أبي: لقد ذكرتَ لي عدّة مرات، أنك لن تقبل الدين التقليدي، لأنك مقتنع بأن الدين يتعارض مع العلم!!، فالعلم والتكنولوجية قد زودتنا بمعلومات عن طبيعة العالم، وأتاح لنا الراحة الوفيرة والرفاهية، وزاد من كفاءة محاربة الأمراض وعلاجها.

نعم، ولكنّ العلمَ لا يمكنه أن يبيّنَ لنا ماهية الحياة وماذا بعد الموت.

العلم يقول لنا فقط «كيف» ولكنّه لا يستطيع أن يقول لنا «لماذا»؟ هل للعلم أن يقول لنا ما هو الخطأ وما هو الصواب؟ ما هو الجميل وما هو القبيح؟ ولمن نتّجه في أعمالنا؟... الدين هو الذي يجيب عن ذلك».

مريم جميلة

الرسالة الثانية:

«ما يحدث اليوم لأمريكة هو تكرارٌ لما حدث للامبراطورية الرومانية في مراحلها الأخيرة للسقوط. المفكرون يعلمون أنّ العلمانية لا تصلح أن تكون الأساس السليم لنظامنا الاجتماعي. وهم يبحثون بقلق في اتجاهات أخرى ليجدوا الحل، ولكنّهم ما زالوا لم يجدوا هذا الحل.

هذا الهم، لا يحمله فقط قليلٌ من علماء الاجتماع، بل إن الأمراض الناتجة عن التفكك تؤثّر عليه وعلى كل شخص آخر منا.

في مراحلها الحرجة، تبنت الإمبراطورية الرومانية القديمة النصرانية كمنقذٍ لها، ومن ثَمَّ سيطرت الكنيسة على أوروبة لأكثر من ألف سنة. وقد أدى هذا إلى وضع حدٍّ لكثير من الفساد الاجتماعي والروحي للبشر.

ولكنّ للحظ العاثر، أثناء اعتماد مفاهيم أخرى للحياة، فقد خلطت الكنيسةُ بين النصرانية والوثنية والعلمانية، وتبنّت كهانة ولاهوتية لم تصمد أمام عصر النهضة والتقدّم العلمي والثورة الفرنسية العلمانية.

وبينما هجر النصارى الأوروبيون والأمريكان كنائسهم وبِيَعهم، أُرسلت الإرساليات الاستعمارية المستغلة لتنصير الناس في آسية وإفريقية.

بعد النصرانية ، اليهودية هي ثاني دين في أمريكة ، وهي التي تسيطر سياسياً واقتصادياً وتهيمن على الإعلام. ولكنّ اليهودية كانت دوماً ضيقة الأفق ، وعشائرية ، ولا ترحّب بمعتنقين جدد. ولم تكن في وقت من الأوقات ديناً عالمياً. وقد كانت الحركة الصهيونية التي أدّتْ إلى تأسيس دولة إسرائيل، هي التعبيرُ العلمانيُ للقوميةِ والقبليّةِ اليهوديةِ.

الأعمال الوحشية المخيفة التي ترتكبها إسرائيل في فلسطين المحتلة ، والعدوان غير المبرر على لبنان المجاور ، ومحاولة الإبادة الجماعية لعرب فلسطين ، وحرمانهم من كل حقوقهم الإنسانية والسياسية ، هي النتيجةُ المنطقية للنظرة الضيقة التي تتملّك اليهود.

وهذا أيضاً هو السبب في أنّ الأحبار الأرثوذوكس لا يرفضون الاعتقاد بأن ما تقوم به إسرائيل لا يجوزُ انتقاده ، وأنها لا تخطىء أبداً ، ويدعمونها في كل ما تفعل. فهذه الأخلاقيات والتصرفات الواضحة تبطل تماماً أن تكون اليهودية هي دين المستقبل.

يشكل المسلمون الدين الثالث في أمريكة ، ومعدلات من يعتنقونه في تزايد سريع اليوم. لم يبقَ الإسلامُ محصوراً في الأماكن البعيدة بالصحارى والأحراش الإفريقية ، بل ظهر الآن كذلك على الساحة الأمريكية.

هناك الآن ثلاثة ملايين[١] مسلم في أمريكة ، وهذا العدد في تزايدٍ سريع. هناك آلاف من الطلبة الممتازين من المسلمين يدرسون بجامعات أمريكة مدرّبين تدريباً عالياً ، ويعملون في شتى المجالات.

---

(١) صار العدد الآن (افتتاح عام ٢٠١٠م) حوالي ٧ ملايين (ن).

وفي العقدين الماضيين ، هناك الآلاف من المواطنين من كل المستويات ، الذين اعتنقوا الإسلام.

في البداية ، كان معظم من اعتنقوا الإسلام هم من السود ، الذين وجدوا فيه الكرامة ، والشرف ، واحترام الذات ، والأخوّة العرقية كما فعل **مالكولم إكس** ، ولكن في السنين التالية دخل الإسلامَ كثير من البيض ذوي الأصول الأوروبية ، باحثين عن التوجيه في كل أمور حياتهم المضطربة السابقة ، مضحين بالكثير نتيجة اعتناقهم له ، ومتحمّلين المشاق في سبيل ذلك.

قليل منهم هم من المحظوظين مثلي ، الذين لهم آباء متفهمون ومحبون مثلكم.

كثير من النوع الآخر ، قاسوا من الاحتكاك بذويهم غير المسلمين.

الكنائس ومعابد اليهود مهجورة ، في حين أنّ المساجد والمراكز الإسلامية ، مليئةٌ بمن يرتادها من المسلمين ، مزدهرة في كثير من المدن الأمريكية الهامة ، وتجتذب أعداداً متزايدة كلَّ يوم.

معظم المسلمين الجدد في أميركة من الشباب النابه والمتعلم تعليماً جيداً. فما الذي جذب هؤلاء الشباب الأمريكي للإسلام؟.

الأمريكان اليوم ، شباباً وشيوخاً ، يبحثون بإصرار عن الهداية الحقة. لقد ذاقوا المرارة مما يسمّى الحرية الشخصية ، ومن الفرص التي يتمتعون بها دون وازع من ضمير بالنسبة للآخرين ، ولا معنى لها في الحقيقة إلا تدمير المجتمع. العلمانية والمادية لا حيلة لهما لتقديم حلول لبناء القيم الأخلاقية للأمريكان ، لا على مستوى الفرد ولا على مستوى المجتمع. وكذلك ، فالنصرانية واليهودية لم تستطيعا ذلك

أيضاً ، ولهذا يتجه الكل إلى الإسلام .

وهم كمسلمين جدد ، يجدون في الإسلام ضالتهم ، ويجدون الصدق ، والراحة النفسية ، والحياة الآمنة .

وهم كمسلمين ، فإنّ الموتَ ليس نهاية كل شيء ، فهم يتطلّعون لآخرةٍ كلُّها نعيم مقيم ، وسعادة دائمة .

هذه التوجيهات موجودة في القرآن الكريم ، وفي أعمال وأحاديث محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذه التعليمات والتوجيهات ، ليست لأناس يعيشون في زاوية بعيدة من العالم ، ولكنّها للبشرية كلها . التي ستجد في الإسلام الحلول لجميع المشكلات ، الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية التي تواجهنا الآن في الغرب .

بالإضافة إلى ذلك ، فالإسلام ليس خاملاً ، ولا بعيداً ، ولا غير شخصي ، فالمسلمون عندهم إيمانٌ راسخ بالله سبحانه وتعالى ، ليس فقط في أنه الخالق ، والقيوم ، الذي يحكم العالم ، بل بأنّ الله هو المُحبّ للمؤمنين ، وهو الذي يُخرجهم من الظلمات إلى النور ، وكما هو مذكور في القرآن الكريم ، هو أقرب إليهم من حبل الوريد .

وبما أنَّ القرآن الكريم ، وحي من عند الله ، وقد وعد الله بحفظه ، فلم يحدث ، ولن يحدث ، أن يتطرّقَ إليه تبديل أو تحريف . وبما أنه كامل بكمال الله ، فلن يدعيَ أحدٌ بأنه يمكن له تحسينه ، أو مراجعة نصوصه ، أو إعادة تشكيله .

وبما أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو آخر الرسل ، **فتوجيهاته لن تعلو عليها توجيهات أخرى .**

القرآن والسنة ، موجهان إلى كل العالم وفي كل الأوقات ، في

الشرق وفي الغرب. وبما أنها لكل زمان ومكان ، فلن يطرأَ عليهما أيُّ إلغاء ، أو أن يصبحا غير صالحَيْن لزمنٍ ما.

يا أبوي ، لقد أصبحتما في سنٍّ متقدمة ، وما بقي من عمرَيْكُما إلا القليل. ولكن ما زال أمامكما متسعاً من الوقت.

فإذا كان قراركما إيجابياً ، فسترتبطان بالتي تحبُّكما كل الحب في باكستان ، ليس فقط بوشيجة الدم ، بل أيضاً برابطة الدين. وكما سيستمر حبنا هذا الموجود بالدنيا ، سنلتقي معاً في الآخرة متحابين أيضاً.

وإذا كان قراركما سلبياً ، فسأخاف عليكما ، من أنَّ هذه السعادة والراحة والحياة الرغيدة المؤقتة ستنتهي في وقت قصير. وحالما يأتي أمرُ الله وتنتهي الحياة فسيكونُ الوقت متأخراً للأسف أو الاعتذار. العقاب سيكون شديداً ، ولا مأوى من العذاب ولا هروب. وأنا كابنتكما المحبة الشفوقة ، تريد أن تنقذكما من هذا المصير ، ولكنّ القرار يقع كليةً عليكما ، لكما كل الحرية للقبول أو الرفض: مستقبلكما يعتمد على قراريكما الآن.

كل حبي وتمنياتي الطيبة لكما.

ابنتكم المخلصة

مريم جميلة

خطاب مفتوح من مريم جميلة إلى
الجيل المسلم الصاعد[1]:

لقد شاهدت مريم جميلة وعاشت الحضارة الغربية بنفسها منذ طفولتها ، فأدركت نقائصها ومفاسدها أيَّما إدراك ، حتى رأت أن من الواجب عليها أن تكشفَ النقاب عن حقيقة هذه الحضارة الخلابة في الظاهر لكي لا يغرق الشباب المسلم فيها ، فها هو خطابها المفتوح إلى الجيل المسلم الصاعد:

أصنام الشباب

مع بعض الاستثناء القليل ، يقوم شبابنا المتعلّم تعليماً عصرياً بتقويم الأسلوب الإسلامي في الحياة بعادات وتقاليد الآباء والأجداد في الماضي ، ويعتبرونه (موضة قديمة) ، ويرون أنّ التمسك بالتعاليم الإسلامية يعني الكبت والتخلّف والرجعية ، والوقوع في أيدي الشيوخ المتعصبين المتشددين ، وكبار السن الملتحين.

فقد تمّ تلقين شبابنا المسلم الصاعد ، لأكثر من نصف قرن أنّ الإسلام الأصولي لا يجذب العقلية الشبابية اليوم. فكم هم في ضياع؟!

هنالك في ذهن الصبيِّ الصغير نهمٌ لا يشبع لاستيعاب ما أمامه من نماذج بشرية يتقمّصها ويتمثّلها كنموذج للمحاكاة.. بل ويستلهمُ منها

---

(١) نشرت مجلة «هاجر أُمّ المسلمين» هذه الترجمة العربية في العدد (٣) من إصدار ٧ مايو ١٩٩٣م ، ص٢١.

لنفسه النمطَ الذي تتشكل به شخصيته وسلوكه بعد ذلك.. وهذا ما يفسر افتتان الشباب وتعلّقهم الشديد بأناس مثل «فرانك سناترا» و«بينك كروسبي» و«ألفيس بريسلي» و«البيتلز» (الخنافس) ـ هؤلاء من مشاهير المغنين والممثلين في أمريكا ـ.

فعندما قام هؤلاء بجولات موسيقية في أوروبة وأمريكة لموسيقا وأغاني «البوب» أحاطت بهم جموع وحشود غفيرة من الشباب الصغير في عمر الثالثة والرابعة والخامسة عشرة. وكانت مجرد لمحة من بعيد كافية لاستثارة الفتيات، ودَفْعهَنّ للبكاء والصراخ والتهيُّج في عصبية ونشوة تافهة مجنونة. فقد كنّ يُشاهَدْنَ وهُنّ يُضْرَبن على أثدائهنَّ، ويقطّعن شعورهن، وكان يغمى على الكثيرات منهنّ من شدة الإثارة ويسقطنَ على الأرض.

إليكم وصفٌ لهذه المصيبة يشهد عليها شاهد من أهلها.. فقد جاء في كتاب «ظلم المراهقة» بقلم جريس وفريد م. هيتشنجر الصادر عن دار «مطبوعات فوسيت» نيويورك ١٩٦٢م، الصفحات من ٨٦ ـ ٨٩ : «إنه عبر وسائل الإعلام الجماهيرية يحدثُ توحيدٌ لآمال وتطلعات الشباب في انحراف جماعي، فالكلمة المطبوعة والشاشة الصغيرة (التليفزيون) والكبيرة (السينما)، والأرض الواقعة بين الفن والترفيه، وبين صناعة التسجيلات الإعلامية التجارية ـ جميعُها تجرّدُ الشباب في التو واللحظة من كل ما يتحلى به من صفات أخلاقية محترمة وعقلية متزنة. وتسلب الشباب كل المعاني الهامة من حياتهم. فتأخذ الجوانب الحيوية من مراهقتهم وشبابهم، وتخلطها في تركيبة تجارية بحتة كما يحدث الآن في أمريكة المراهقة، وعندها يصبح الطيش والعنف

بديلاً عن العمل الحقيقي ، وعن الحركة المفيدة ، في تركيبة الأعمال الفنية جميعاً.

إن الأسرة ـ وإن لم يكن معظمُها مفككاً في أمريكة ـ هي ضحية عداء مستتر من الشباب باعتبارها شيئاً مقيداً. إنّ السمة المشتركة فيما أصاب الشباب المراهق اليوم هي هذه الأصنام ووفرتها وإنتاجها بالجملة. فتلك الأصنام تبدو وكأنها ليست طبيعية لأناس حقيقيين بشخصيات وطباع متميزة. لأنها تنتج في قالب واحد ، يُعَدّ ويجهز للتسويق على نطاق تجاري واسع.

وتلك الأصنام لم تولد تلقائياً ، وإنّما صنعها وكلاء الصحافة والفن والإعلام والإعلان والسينما بمساعدة أطراف أخرى عديدة. ويتمُّ التعبير عن نجاح تلك الأصنام فقط بمؤشر الدولارات وسيارات الكاديلاك الفارهة ، وحمامات السباحة.

وتتحدث تلك الأصنام نفس لغة الشباب الركيكة التافهة ، ويشتركون معهم في ضياع العقلية المثقفة الوقورة.

لقد كان (ألفيس بريسلي) صنماً يُعبَد لفترة طويلة ، بالرغم من أنه قد فات زمن طويل على التواءاته وحركاته الجسدية على المسرح ، التي أثارت بمظهره الخليع جدلاً هددت فيه بعض الدوائر التعليمية المسؤولة باتخاذ إجراءات حكومية نحوه.

لقد اندفع «بريسلي» إلى الثروة بواسطة مستشاره الخاص العقيد توم باركر ، فبعد أسطوانته الأولى «فندق الحسرة» تمهد له الطريقُ إلى الشهرة ، أو بالأحرى إلى سوء الصيت والشهرة ـ فظهرت أسطوانات «العذارى الوالهات» ونوادي المعجبين الهستيرية ، وفتيات الإعلان

الفاتنات، اللاتي يلاحقنه أثناء خدمته بالجيش، مع تصبب بالعشق والغرام من مراهقات ألمانيات. . فأنتج للسينما أنماطاً فاسدة ، حتى صار من الأثرياء وهو بصحبة مجموعة من شبان الطبقة الراقية تحرسهم شرذمة من الحرس الخاص (البودي غارد).

إن مغني البوب هؤلاء ليسوا سوى منتَج أو سلعة من خط تجميعي واحد، يمكن استبدال أي سلعة أخرى أو مبيد حشري في أي سوبر ماركت بها. فهم جميعاً سلعة رخيصة متشابهة في الشكل والمحتوى ، فمعظمهم يرتدي نفس الحلي والنظارات الغريبة ، ونفس تقليعات الملابس الغربية»!!



المبحث الثاني:

مراسلاتها مع مؤسس الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية سماحة العلامة الشيخ أبي الأعلى المودودي

في هذا المبحث نذكر بعض الرسائل بين السيدة مريم جميلة والأستاذ المودودي رحمه الله التي استمرت قرابة ثلاث سنوات ، وقد سألته أسئلة متنوعة فرد عليها المودودي ردّاً مقنعاً شافياً .

وفيما يلي مختارات من هذه الرسائل :

تعريف السيدة مريم جميلة

برسائلها إلى فضيلة الشيخ أبي الأعلىٰ المودودي رحمه الله[1]

عندما بدأتُ وأنا في (التاسعة عشر) من عمري في قراءة متواصلة ومركزة للدراسات الإسلامية التي كانت ظهرت آنذاك بالإنكليزية ، بُغية التزود بالمعلومات المفصّلة عن حقيقة المسلم ، وللحصول علىٰ المعلومات عن الأحداث التي كانت تجري في البلدان الإسلامية أوسع مما كانت تنشر في الجرائد والمجلات ، شرعت في مراسلة عدد من الشباب في البلاد العربية وفي باكستان.

ولكنَّ جُلَّ أولئك الأصدقاء (بالمراسلة) لم يسايروني طويلاً ، إذ انتابني سريعاً اليأس الشديد ، لحياتهم الغربية ، واللامبالاة ، ولمخالفتهم الصريحة في بعض الأوقات لعقائد الإسلام ومدنيته ولعقولهم الصبيانية.

وبدا لي أخيراً أن أراسل ناضجي الأفكار وزعماء المسلمين ذوي النفوذ والكلمة المسموعة ، وبالأخص العلماء منهم.

واستطعت إلىٰ نهاية عام ١٩٦٠ م أن أتبادل الرسائل مع الدكتور **فاضل الجمالي** رئيس الوفد العراقي السابق لدىٰ الأمم المتحدة ،

---

(١) ترجم هذه الرسائل مع مقدمتها الدكتور محمد لقمان السلفي ، وقد قمت بتصحيح بعض الكلمات هنا وهناك (ن).

والدكتور **محمد هيله** مدير المركز الإسلامي بواشنطن آنذاك ، والمرحوم الشيخ **محمد بشير الإبراهيمي** رئيس العلماء بالجزائر والرأس المدبّر **لحركة** التحرير فيها للتخلص من هيمنة الاستعمار الفرنسي ، والدكتور **محمد البهي** من جامعة الأزهر ، والدكتور **حميد الله** في باريس ، والدكتور **معروف الدواليبي** المرجع المعروف في الشريعة الإسلامية وأستاذ علوم الشريعة بجامعة دمشق ، ورئيس الوزراء السابق بسورية ، والأستاذ **سعيد رمضان** رئيس المركز الإسلامي بجنيف.
وكنت أبـذل قصـارىٰ جهـدي حتىٰ أتمكن من الاتصال بالشهيد **سيد قطب** ، الذي كان يقضي حياته منذ مدة طويلة في سجن بمصر.

وكانت نشاطات الشهيد **حسن البنّا** وجماعة الإخوان المسلمين قد حظيت بشهرة واسعة في صحافة نيويورك (ولو علىٰ سبيل الاستهزاء والإِزدراء).

أما الشيخ **المودودي** والجماعة الإسلامية ، فلم تكن جلبت إلىٰ ذلك الوقت انتباه العلماء في أمريكة وأهل الصحافة فيها. ومع أنني كنتُ منذ مدّة طويلة أدرس بنهم جميع الكتب والنشرات الإنكليزية التي كانت تقع عليها يدي في الموضوعات الإسلامية ، إلا أنني لم أسمع قط عن الشيخ المودودي[١] ، ولم أعلم شيئاً عن الجماعة الإسلامية ، حتىٰ

---

(١) هو الداعية الكبير والفقيه الشهير أبو الأعلىٰ بن سيد أحمد حسن مودود ، ولد في مدينة أورنك آباد ـ الدكن سنة ١٩٠٣ ، وحصل علىٰ تعليمه في البيت علاوة على مدارس أورناك آباد ، في عام ١٩١٨ عاش في بهوبال ، وبدأ القراءة من الصحافة والكتابة الصحفية ، ثم دخل ميدانها. وفي عام ١٩١٩ شارك في حركة الخلافة وفي مجلس إعانة ومساعدة =

مقالة السيّد مظهر الدين الصديقي في كتاب (الإسلام هو الطريق المستقيم) الذي قام بطبعه كينيث مورغان في مطبعة رونالد بنيويورك في ١٩٥٨ م.

وعندما اطلعت، بمصادفة محضة، علىٰ مقالة رائعة للشيخ المودوي في مجلة «مسلم دايجست» التي كانت تصدر في مدينة دربن بجنوب إفريقية، رأيتني فجأةً مرغمةً علىٰ مراسلة هذا الشخص، الذي كان يتمتّع بميزاتٍ غير عادية. فكتبت إلىٰ مدير المجلة المذكورة أطلبُ منه عنوانه.

وكتبت إليه رسالتي الأولىٰ، ولم أكن أتوقع أكثر من ردٍّ مقتضب وحيد يعبر فيه عن مشاركته إياي في الأفكار، ولم يكن آنذاك قد خطر

= المسلمين، وفي عام ١٩٢١ اتجه إلىٰ التعليم والمطالعة، وبدأ بدراسة الأدب العربي والتفسير والحديث والمنطق والفلسفة، وفي عام ١٩٢٨ أصدر كتابه الأول «الجهاد في الإسلام»، وفي عام ١٩٣٢ أصدر مجلة (ترجمان القرآن) في حيدر آباد الدكن، وفي العام الذي يليه بدأ حركته الإسلامية، وفي عام ١٩٤١ قدم المودودي إلىٰ لاهور، وأسس فيها الجماعة الإسلامية. قام المودودي بجهاد عظيم بلسانه وقلمه في كل أنحاء الهند تعرض خلالها لمضايقات واضطهاد، فدخل السجن مرات، وحُكم عليه بالإعدام عام ١٩٥٣ م، وخُفف إلىٰ السجن المؤبَّد نتيجة الاحتجاجات العالمية، تُرجمت مؤلفاته إلىٰ عدة لغات منها العربية، وألّفت في سيرته وجهاده كتب كثيرة، بعضها رسائل جامعية، وفي عام ١٩٧٩ مُنح جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، **وكان أول من نال هذه الجائزة**، وفي عام ١٩٧٩ م انتقل إلىٰ جوار ربه تاركاً وراءه آثاراً عظيمة مباركة أهمها الجماعة الإسلامية في باكستان. انظر (أبو الأعلىٰ المودودي: فكره ودعوته) للدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم. ط دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٩ م.

ببالي أنَّ هذه المراسلة سوف يكون لها تأثير حاسم في تاريخ حياتي كلها.

ولم يكن العلامة المودودي في حاجة إلىٰ إقناعي بقبول الإسلام، إذ إنني كنت علىٰ وشك الدخول في الإسلام، وهو لا يعلم، كما أنه لم يكن له أثر قوي علىٰ حياتي العلمية، إذ كنتُ بدأت في كتابة المقالات في الدفاع عن الإسلام قبل أن نتعارف. وكانت أفكاري قد تأسست علىٰ قواعد ثابتة قبل أن يعرفَ أحدٌ منا الآخر. ولكن لابدّ من الاعتراف بأنّ هذه المراسلة، وما يترتب عليها من التوسع في المعلومات، والتبصر في الآراء، زادتني عمقاً في الأفكار، ونضحاً فيها، ووضوحاً في الأسلوب.

وينبغي للقارىء الكريم (عند قراءة هذه الرسائل) أن تكون أمام عينيه الظروف التاريخية التي كان يمرُّ بها العالم آنذاك. فقد كانت رئاسة الولاية المتحدة الأمريكية يتولاها الرئيس جون كنيدي. وكانت أمريكة قد بلغت الذروة في القوة السياسية والازدهار الاقتصادي. وكانت الحرب الباردة بين روسية الشيوعية تحت قيادة خروتشوف وبين الديمقراطية الغربية قد أخذت في الانتهاء.

وفي باكستان كان الرئيس **أيوب خان** يحكم البلاد بلا منازع، ولحماية دكتاتوريته كان قد نفذ الحكم العسكري، وحظر جميع الأحزاب السياسية، كما حظر الجماعة الإسلامية. وكان العلماء المخلصون يُخَوَّفُون، ويُلقَى في قلوبهم الرعبُ، لئلا يتعرضوا بالنقد لنظامه المستبد المخالف للإسلام في قانون الأحوال الشخصية، الذي كان قد طبقه في البلاد علىٰ رغم معارضة الأغلبية الساحقة للشعب المسلم.

وأما أنا فقد كنتُ آنذاك أجتازُ مرحلةَ المراهقةِ المملة المليئة بشعور الوحدة وفتور الهمة بعد أن قضيتُ ثلاث سنوات ونصف سنة متتالية في التحليلات النفسية. وكانت هذه السنوات ثمينة، ولكنها لم تعد بفائدة. وقضيتُ سنتين أخريين في المشافي، أبحث عن وجودي وعن مكانتي في الحياة. وفي هذه الفترة العصيبة من حياتي، أنعم الله عليّ أن هيأ لي الشيخ المودودي الذي أتاح لي فرصةً عظيمةً لأعيش حياة مفيدة. لقد أوجدَ لي أرضاً خصبةً لتنمية الأفكار وللتعبير عنها في صورة كاملة واضحة.

مريم جميلة

١٤ جمادىٰ الثانية ١٣٨٩ هـ
٢٨ أغسطس ١٩٦٩ م.

(١)

فضيلة الشيخ المودودي نيويورك ٥/ ١٢/ ١٩٦٠ م

لقد قرأتُ مقالكم «الحياة بعد الممات» الذي نُشر في مجلة «مسلم دايجست» الصادرة في دربن بجنوب إفريقية ، فوجدتُه بالغ الروعة ، وأستطيع أن أقول: إنني لم أقرأ قط ما يُقنعني في هذا الموضوع مثل ما أقنعني هذا المقال. وعندما قرأتُ عنكم أول مرة في مقالة السيد مظهر الدين الصديقي عن المسلمين في باكستان ضمن كتاب (الإسلام هو الطريق المستقيم) الذي قام بطبعه كينيث مورغان في مطبعة رونالد بنويورك عام ١٩٥٨ م ، وجدتني في وئام تام معكم في الأهداف ، وإن كان الكاتب ـ لكونه عصرياً متحضراً ـ قد ذكركم بازدراء واستخفاف.

وقد اكتشفتُ في العام الماضي أنني أريد أن أجنّد نفسي للجهاد ضد الفلسفات المادية ـ العلمانية والقومية ـ اللتين قد انتشرتا في العالم بشكل مخيف، وأخذتا تهددان وجود الإسلام بل بقاء البشرية بأجمعها.

وقد كتبتُ لهذا الغرض مقالات عديدة ، نشرتُ ستاً منها في مجلتي (مسلم دايجست) (Muslim Digest) المذكورة و(إسلامك ريفيو) (Islamic Review) الصادرة في ووكنك بإنكلترة.

نشرت مقالتي الأولىٰ: بعنوان: نقد كتاب «الإسلام في التاريخ الحديث»[1] للبروفيسور ولفرد كانتوِل سميث مدير المعهد الإسلامي

(١) انظر التعريف بالكتاب بقلم المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد قطب أمد الله في عمره في ملحق هذا الكتاب ص (٢١٠).

بجامعة ميك جيل في مونتريال. وقد فنّدتُ فيها آراءه المزعومة بأن العلمانية والثقافة الغربية تتفقان مع الإسلام ، وبأنّ الإصلاحات التي قام بها كمال أتاتورك في تركية تقدم نموذجاً رائعاً ، ينبغي للبلاد الإسلامية أن تحتذيه.

أمّا مقالتي الثانية فقد كانت بعنوان (القومية خطر يهدّد الوحدة الإسلامية). وقد تصدّيت فيها للكشف عن مدىٰ مخالفة المفهوم الجديد للقومية ومعارضته للأخوة الإسلامية العالمية.

أما مقالتي الثالثة التي نشرتها مجلة «إسلامك ريفيو» في عددها الصادر في يونيو عام ١٩٦٠ م ومجلة «مسلم دايجست» في عددها الصادر في أغسطس من العام المذكور. فقد كانت ردّاً علىٰ مزاعم السيد آصف علي فيفي ، نائب رئيس جامعة كشمير ، التي تتلخص في الدعوة إلىٰ «إسلام غربي» يتكوّن بعد إدخال إصلاحاته المزعومة في الإسلام القديم ، ومراعاة جانب التسامح الكثير فيه حتىٰ يصبح تفاهات أخلاقية فارغة ، لا تقوىٰ علىٰ التأثير في تشكيل المجتمع والثقافة.

وقد كانت المقالاتُ الأخرىٰ تتضمّن ردّاً علىٰ عالم الاجتماع التركي «ضياء آلب تورك» الذي حاول أن يخدعَ قُرّاءه بأنّ القومية والعلمانية تتفقان مع الإسلام (وهو الذي استقىٰ منه أتاتورك أفكاره)

ورددت علىٰ السير أحمد خان الذي مجّد ـ إرضاءً للحاكم القوي ـ العلوم الإدارية وفلسفتها في القرن التاسع عشر ، ورداً علىٰ كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق ، الذي كتبه فور إلغاء الخلافة العثمانية[1] ، محاولاً أن يثبتَ أنَّ الخلافة لم تكن قط جزءاً

---

(١) ثبت أن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) هو نسخة مترجمة و معدلة عن =

مكمِّلاً للإِسلام ، فيجب فصل الدين كلياً ولأبد الآباد عن الدولة .

وقد رددتُ في بعض المقالات علىٰ الرئيس التونسي «الحبيب بورقيبة» الذي اعترض في العام الماضي علىٰ صوم رمضان بأنّه العائق دون النمو الاقتصادي في تونس.

وفي بعضها الآخر رددت علىٰ الدكتور طه حسين المفكر المصري الكفيف الذي قال في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر): إنّ مصرَ جزءٌ لا يتجزء من أوربة ، إذاً لا بدّ فيها من حضارة غربية وعلمانية كاملة .

ولاشك أنّ هؤلاء التقدميين من المسلمين المزعومين أشدُّ خطراً علىٰ الإِسلام من الأعداء المكشوفين ، إذ إنّ هجماتِهم موجهةٌ إلىٰ أسس الإِسلام الجذرية. وهدفي من وراء كتابة مثل هذه المقالات إنّما هو تنبيه المسلمين علىٰ هذه الحقائق.

وقد استمد العالم هذه النظريات المعاصرة مثل العلمانية والقومية والمادية من الفلاسفة «فولتير» و«روسو» و«مونتسكيو» والآخرين أمثالهم ، الذين كانوا الباعثين علىٰ الثورة الفرنسية.

إن هؤلاء المتعصبين المبغضين لجميع الأديان هم الذين ارتكبوا جريمة نشر عقيدة بين الناس مفادها أنّه يمكن للإِنسان أن يترقىٰ ويحظىٰ بالنجاح من دون الصلة بالله. وهذا التضليل بأنّ المرء لا يحتاجُ إلىٰ الله ، وبأنّه لا حياةَ بعد الموت هو الذي ساق كثيراً من الناس إلىٰ

= بحث كتبه المستشرق الإنكليزي مرغوليوث باسم (الخلافة) ليكون ضمن الحرب النفسية التي شنها الحلفاء علىٰ الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولىٰ (١٩١٤ ـ ١٩١٨) (ن).

الاعتقاد بأنّ الازدهار المادي في هذه الحياة هو الغاية المثلىٰ التي يجبُ أن تسعىٰ إليها البشريةُ كلها.

ولم يمكن للعقائد الزائفة مثل الماركسية والفاشية والنازية والذرائعية التي شهرها جون ديوي، والصهيونية التي أوجدت الكارثة الفلسطينية، لا يمكن لها أن تشقّ طريقها إلىٰ الأمام إلا بإيجاد هذا الجو اللاديني المحض. إنني أعزم علىٰ كتابة مقال مسهب في هذا الصدد (انظر مقالتي: المصادر الفلسفية للمادية الغربية في كتابي: (الإسلام ضد التغرب).

ولعلكم تستغربون: مَنْ أكون أنا؟ إنني إمرأةٌ أمريكيةٌ شابةٌ، أبلغ ستاً وعشرين سنة من العمر. وقد أُعجبتُ بالإسلام إعجاباً جعلني أعتقد فيه أنه المنقد الوحيد للعالم. لذا أريدُ أن أدخل في حظيرته. ومشكلتي الكبيرة أنه لا يوجدُ مسلمٌ في الضاحية التي أسكنها من ضواحي نيويورك، فالخوفُ الذي يراودني أنني أشعر بعدَ الإسلام بعزلة مخيفة، الأمر الذي دعاني إلىٰ أن أطلبَ من مدير مجلة «مسلم دايجست» التي نُشر لكم فيها مقال (الحياة بعد الممات)، عنوانكم، آملةً أن تراسلوني في المستقبل. أرجو إرسال بعض النماذج من كتاباتكم، وبالأخص الكتيب الذي ألفتموه قبل سنوات بعنوان: (الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية)، لأننا متَّحدُون في الأفكار، ونعمل لأهداف مشتركة. إنّه يسرني أن أكونَ علىٰ صلة بكم، وأن أتعاونَ معكم بقدر الإمكان في جهادكم.

مع بالغ الاحترام لكم

مارغريت ماركوس

(١)

الآنسة ماركوس: لاهور ٢١/ يناير/ ١٩٦١ م

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

وصل كتابُكِ المؤرخ في ٥/ ١٢/ ١٩٦٠ م بعد أن غادرتُ إلىٰ المملكة العربية السعودية إجابةً لدعوة وُجِّهت إليَّ من الملك سعود الذي يريدُ إقامة جامعة إسلامية بالمدينة المنورة وكان الغرضُ إعدادَ مشروع للجامعة المذكورة ، فبقيت من أجله خارج البلاد لمدة شهر تقريباً. وبعدَ العودةِ تلقيتُ خطابكِ ، والقصاصاتِ الثلاث لمقالاتك ، ولا أستطيع أن أعبِّر لك عن مدىٰ فرحي وسروري البالغَيْنِ بقراءة رسالتكِ والمقالات المنوّه عنها.

وتلاحظين أنني خاطبتكِ قصداً في بداية رسالتي بالسلام عليكم ، وهي التحية التي تخصُّ المسلمين وحدهم ، وذلك ليقيني أنك الآن مسلمةٌ فعلاً ، وإن كنتِ تقولين إنك حتىٰ الآن لم تجتازي مرحلة التفكير في قبول الإسلام. لأنَّ الشخص الذي يؤمن بوحدانية الله ، وبأنَّ محمداً خاتمُ أنبيائه ، وبأنَّ القرآنَ كلامُه ، ويعتقد في الحياة بعد الممات ، فإنّه مسلم حقيقةً من دون أن يؤخذَ في الاعتبار بأنه مولود في بيت يهودي أو مسيحي أو وثني. وإنَّ أفكارك لخيرُ شاهدٍ علىٰ أنك تؤمنين بالحقائق المذكورة. لذا أعتبرك مسلمة وأختاً لي في العقيدة. فلا معمودية ولا طقوس خاصة أمام الأسقف يحتاجها الإنسان للدخول في حظيرة الإسلام. فإن كنتِ تعتقدينَ بصدق الإسلام وحقيقته فلا عليك إلاَّ أن تعلني بيقين أنه لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله.

ثم ينبغي أن تختاري اسماً إسلامياً (مثل عائشة أو فاطمة) وأن تعلني للعامةِ دينَكِ واسمك ليعلم العالم الإسلامي بأجمعه أنكِ أصبحت فرداً في الأخوة الإسلامية العظيمةَ. ويجبُ عليكِ أن تؤدي في كل يوم وليلة خمس صلوات مفروضة ، كما يجبُ عليك أن تطيعي بإخلاص الأوامر الإسلامية الأخرىٰ.

إنني لأجدُكِ علىٰ باب صرح الإسلام ، وأنَّ خطوةً ثابتةً إلىٰ الأمام تدخِلُكِ في صفِّ المسلمين. وأعتقد أن هذه الخطوة إنما تكون نتيجة طبيعية ومنطقية لما تحملينه من الأفكار. إنّ مساعدي الخاص قد أرسل لكِ كتيبات عديدة؛ منها الكتيب الذي أشرتِ إليه ، وها أنا أرسلُ لك أخرى غيرها من مؤلفاتي.

إنني حينما قرأت مقالاتك رأيتُني كأني أقرأ أفكاري الخاصة. وأتوقع أنه ينتابكِ الشعورُ نفسه عندما تقرئين كتبي. وذلك علىٰ الرغم من عدم معرفة حصلت بيننا سابقاً. فلا شكَّ أنَّ هذا الاتفاق التام والاتحادَ في الأفكار دليلٌ على أنَّ كلاًّ منا قد استقىٰ أفكاره من منبع واحد.

هؤلاء المسلمون المتغرّبون الذين أنت تتأسفين علىٰ افتقادهم الروح الإسلامية ، إنهم لأسوأ إنتاج للاستعمار الغربي في البلدان الإسلامية. الصدمةُ الكبرىٰ التي وجهها إلينا الاستعمار لم تكن في ميدان السياسة أو الاقتصاد ، بل كانت موجهةً إلىٰ أعماق عقولنا وأرواحنا ، وقد أوجدَ هذا الاستعمار في أوساطنا عبيداً قلوبهم متعلّقة بالغرب حتىٰ بعد الحصول على الاستقلال السياسي. وهم يطيعون أسيادهم ، ويتبعونهم خطوة خطوة بكل خضوع. وهذه النظريةُ تدعونا إلىٰ القول بأنَّ حربَ

الاستقلال لم تنته بعدُ ، إذ إننا في حاجة إلىٰ حرب طويلة الأمد ضد هؤلاء الغرباء الوطنيين.

والآن لا يسعني إلا أنْ أعبّرَ لك عن مدىٰ استغرابي الشديد من أمر واحد. إنني أريدُ أن أعرفَ باختصار الظروف التي استطاعت فيها امرأة أمريكية شابة أن تحظىٰ بهذا الإدراك الحقيقي الواضح للإسلام ، فهل يمكنك أن تكتبي لي قصة مختصرة لارتقائك الفكري؟

إنني أدرك تماماً مدىٰ ما تشعرين به من الوحدة والعزلة لعدم وجودك في مجتمع إسلامي. ولاشك أن المسلم المخلص تتأذّىٰ روحُه حين يعيش في بلد غير إسلامي ، ولكني أعتقد أنَّما يهوِّنُ عليك مصيبتك أن تعلمي أنَّ كلَّ مسلم مخلص في دينه يشاركك في هذا العالم المعاصر في الشعور بالوحدة والانعزال ، ولا فرق بينهم إلا في الدرجة أو الشكل.

وإذا سنحت لك فرصةٌ لزيارة باكستان ، فإنّه يسرُّني جدّاً أن أراك ، وأن أرحب بك ضيفةً ، وكم يسرني وعائلتي أن تأتي إلينا ، وتصومي معنا شهر رمضان الذي يبدأ هذا العام في ١٧ فبراير ، وينتهي في ١٨ مارس.

وأنا أكون في لاهور إلىٰ نهاية شهر مارس ، أريدُ بعده السفر إلىٰ إفريقية لإقامة جمعية فيها للدعوة الإسلامية إن شاء الله ، وفي نهاية شهر مايو أعود إلىٰ لاهور ، وأبقىٰ فيها بقية السنة كلها ، فمتىٰ ما وصلت تجدينني في بيتي.

أخوك في الإسلام

أبو الأعلىٰ

(٢)

فضيلة الشيخ المودودي نيويورك: ٣١/ يناير/ ١٩٦١ م

وصلتني منذُ أيام هديّتكم، الكتبُ والنشراتُ الإنكليزية التي كانت عبارة عن مكتبة صغيرة. أشكركم عليها شكراً جزيلاً. إنني أحتفظ بها دائماً كذخيرة غالية. ووصلتني الأمس رسالتكم التي تقولون فيها إنكم قرأتم مقالاتي فوجدتموها كأنّها أفكاركم. وأرىٰ أن أؤكد لكم أيضاً عندما قرأت الكتبَ والنشرات الإنكليزية التي أرسلتموها إليّ، تصورت كأني أقرأ أفكاري الخاصة، إلا أنها كانت معبرة بقوة أكثر، وبشمول أتم، حيث تمنيتُ أن أستطيعَ التعبير بمثله في يوم من الأيام.

وقد نُشِرَتّ لي في هذه الأيام مقالتان أُخريان:

الأولىٰ: عن شعر العلاَّمة محمد إقبال، الرجل الوحيد في العالم الإسلامي المعاصر كله الذي استطاع أن يعبِّرَ في شعره عن المعنىٰ الحقيقي لكلمة مسلم، مع المحافظة علىٰ الروعة الفنية.

أما **الثانية** التي عنوانها: المنابع الفلسفية للمادية الغربية، فقد تتبعتُ فيها نشوءَ المادية الغربية من بدايتها بنهضة الحضارة اليونانية القديمة إلىٰ أَوْجها المتمثّل في النظريات الحديثة مثل الشيوعية. وقد حاولتُ أن أثبتَ فيها أنَّ الشرورَ التي نشاهدها اليوم إنما هي نتيجة منطقية للاتجاه الفكري الممتد على مدى خمسمئة سنة ماضية. فإن جميع الزعماء الرواد للفكر الغربي كانوا ماديين متحمسين. بل الحق الذي يقال: إن الفكرة الأساسية للحضارة الغربية الحديثة كانت الوقوف ضد الكنيسة بل ضد الأديان والقيم الروحية كلها. وبهذا نعلم أنّ المادية

جزء من الروح الحقيقية للغرب ، وأن زعماء آسية وإفريقية ـ كما أوضحتم في كتيبكم (القومية والهند) ـ قد رسّخ في قلوبهم الاحتقار لمواريثهم القومية ، وأشرب في قلوبهم حُبَّ الفلسفة المادية. وهم ـ مفعمين بالبغض والغيظ تجاه سادتهم الغربيين السابقين ـ يقذفون النفايات في وجوههم. وهذا ـ علىٰ ما أعتقدُ ـ تعبيرُ عن ثورة عنيفة تتخذ طريقها إلى الإمام في آسية وإفريقية ، وبالأخص في الكونغو.

وأنا خائفةٌ عليكم بعد ما قرأت من وجود العنف في إفريقية ، إنه يؤلمني جدّاً أن أقرأ عن بلدان إسلامية ، مثل مصر التي تقلِّدُ ـ بمهانة ذليلة ـ روسية الشيوعية والصين في سياساتها الخارجية في إفريقية ، وإنني متعاطفة مع تلك البلدان ، ولكني لا أرىٰ في سياساتها الخارجية شيئاً يمكن أن يقال عنه إنّه إسلاميٌّ. ويجوزُ أن يستبشر مسلمٌ ساذج بالجهود التي يبذلها عبد الناصر لنشر دعوة الإسلام في إفريقية ، ولكنّ الأمر الذي لا يشوبه ريب أنه لا يهمّه نشرُ الإسلام بقدر ما يهمه أن يستغل اسمَ الإسلام كشعار للدعاية لنفسه ، وإثبات عظمته وشهرته في قلوب الناس.

إنني أعتقد بإخلاص جازم أنَّ مفهوم الإسلام الذي قدمتموه في كتابَيْكم: (مبادىء الإسلام) و(نظام الإسلام وشريعته)، وفي الكتب الأخرىٰ التي تفضلتم بإرسالها إلي أنه المفهوم الصحيح له ، وأرجو أن لا أُتهم بضيق الفكر من أجل هذا الرأي.

إنني أُكِنُّ الاحترام لكم ولما تعملون له ، لأنكم تدعون إلىٰ الإسلام الخالص ، ولا ترضَوْن التعديل فيه إرضاءاً للنزوات العصرية ، أو الزيادة فيه بالفلسفات الغربية. وإنني أعتقد ـ كما أفهمُ من شرحكم

لمفاهيم الإسلام - أنّه الطريق المثلىٰ للحياة ، وأنه السبيل الوحيد إلىٰ الصدق. ولكنّ المؤسف أن كثيراً من المسلمين لا يوافقوننا هذا الرأي.

لقد التقيت في مناسبات كثيرة طلبةً مسلمين يدرسون في كليات نيويورك وجامعاتها ، يحاولون أن يقنعوني أن كمال أتاتورك كان مسلماً مخلصاً ، وأنّه لابدّ أن تدخل التعديلات في الإسلام حتىٰ يصبح موافقاً للنظريات المعاصرة ، وأن ينبذ كل مبدأ أو عملٍ إسلامي يضاد الحضارة الغربية. وهم يرون أن هذا التفكير وما شاكله حريةً وتقدماً. والذين يفكرون كما نفكر نحن ، فهم الرجعيون عندهم ، والمتعصبون الذين يأبَوْن أن يواجهوا حقائق العصر.

والنقطة الهامة في كتابكم (القومية والهند) التي تستحقُّ أن يشار إليها ، هي معارضتكم لاستعمال المسلمين الزي الغربي ، وقد لا يهتم به الكثيرون لكونه أمراً تافهاً في نظرهم ، ولكني أعتبره بالغ الأهمية. ألم يقل الرسول ﷺ: «مَنْ تشبّه بقوم فهو منهم» أرىٰ أنه ينبغي للمسلمين أن يشعروا بالفخر والعزة في التعبير عن هذه الحقيقة بمظاهرهم المتميزة. ولذا إذا رأيتُ زعيماً مسلماً لابساً الزي الغربي وحالقاً لحيتَه ، فإني أعتبره ناقص الإيمان ، إذ إنه بلباسه يقومُ بدعاية أمام العالم أنه خَجِلٌ من شخصيته الحقيقية ، هل قرأتم كتاب (الإسلام على مفترق الطرق) لمحمد أسد الذي تطرّق للموضوع وأطال فيه.

* * *

وليس من الغرابة في شيء أن تندهشوا من قبول الإسلام من بنت تربّت في بيت أمريكي عصري نموذجي. أنا أذكر لكم الآن كيف وقع هذا.

عندما كنتُ أدرس ـ وأنا في العاشرة من عمري ـ في مدرسة الأحد اليهودية الإصلاحية ، تأثرتُ سريعاً بالتاريخ المأساوي لليهود. وقد أعجبني بصفة عامة تاريخ إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام ، إسحاق الذي كان يعتبر أباً لليهود ، وإسماعيل الذي كان أباً للعرب. فإنّه فضلاً عن أنّ اليهود والعرب كانوا يرجعون في الأصل إلىٰ أسرة واحدة ، كان تاريخهم يتلاحق في فترات كثيرة من العصور. وعلمت أنَّ اليهود مارسوا أروعَ حياتهم الحضارية اليهودية تحت ظل الحكم الإسلامي ، وبالأخص في إسبانية (الأندلس).

ولجهلي بطبيعة الصهيونية المنحوسة اعتقدتُ بسذاجة أن يهود أوربة عائدون إلىٰ فلسطين ليكونوا ساميين حقيقيين مرة أخرىٰ ، وليعيشوا مثل العرب ، وكنتُ في انفعالٍ شديدٍ وأمل أن يتحقق التعاون بين العرب واليهود لإيجاد عصر ذهبي كما وجد في إسبانية (الأندلس).

وقد ابتُلِيْتُ خلال مراهقتي بما سبب لي المقاطعة الاجتماعية في المدرسة ، وهو أنني كنتُ أبذل جُلّ أوقاتي في قراءة الكتب بالمكتبة ، كما أنني لم أكن أرغبُ في الجنس الآخر ، ولا في الاحتفالات الراقصة والأفلام والملابس والحلي والمستحضرات التجميلية. وكنت أرىٰ أنَّ التدخين عادةٌ سيئة مبتذلةٌ وإضاعة للمال. ومع اعترافي بأنه لابد للإنسان أن يشرب الخمر في الحفلات ليكون مقبولاً في المجتمع. وكان والداي يريان أن الشرب بالاعتدال من الأشياء الطيبة اللازمة للحياة ، فإني لم أمسَّ الخمر قط. ولما لم أكن أتصل بالبنات والأولاد الذين هم في مثل عمري ، لم يكن لي أصدقاء طيلة الثماني عشرة سنة التي قضيتُها في المدارس المتوسطة والثانوية.

وقد التقيت ـ أثناء دراستي في السنة الثانية بجامعة نيويورك ـ ببنت

شابة من عائلة يهودية كانت عقدتْ عزمَها علىٰ الدخول في الإسلام. وكانت ـ مثلي ـ تحب العربَ حُباً عاطفياً. فعرَّفتني علىٰ كثير من أصدقائها العرب والمسلمين في نيويورك. وكنتُ أنا وهي نحضر الدروس التي كان يلقيها الحاخام اليهودي ، والتي كان موضوعها (اليهودية في الإسلام) ، وكان يحاول أن يثبت لطلبته تحت شعار «مقارنة الأديان» أن كل صالح في الإسلام مأخوذ مباشرةً من العهد القديم ، التلمود والتفسير اليهودي للتوراة.

وكان الكتاب المقرر الذي ألفه الحاخام المذكور يتضمن السورتين الثانية والثالثة من القرآن الكريم ، يتتبع أصول كل آية من مصادرها اليهودية المزعومة.

وبالإضافة إلىٰ هذا كانت الصهيونية تبثُّ أفكارها بكل حرية عن طريق الدعايات في الأفلام والمطبوعات الملونة التي كانت ترحّب بالدولة الصهيونية. ولكنَّ الأمر الذي يدعو إلىٰ الاستهزاء والاستغراب أنّ المنهج المذكور بدل أن يرسِّخَ في ذهني تفوّقَ اليهودية علىٰ الإسلام ، أوجد فيَّ أفكاراً مضادة. وبالرغم من أن العهد القديم يحتوي علىٰ أفكار عالمية عن الإله ونُظُم أخلاقية عالية نَشَرها الرسل بين الناس ، فإنَّ الصهونية حافظت دائماً على طبيعتها القبلية الضيقة. وبالرغم من وجود بعض الأفكار الجيدة في الكتب اليهودية ، فإننا نجدها كتباً في تاريخ اليهود ، وأنَّ إلههم إله قبلي خاصٌّ بهم.

ولَمَا وجد الأبرشيون ضَيِّقوا الأفكار تعبيراً جديداً عن آرائهم في الصهيونية العلمانية.

إنَّ رئيس وزراء إسرائيل (ابن غوريون) لا يؤمن بإله معلوم له من

الصفات الذاتية ما يجعله فوق الطبيعة ، ولا يدخل معابدَ اليهود ، ولا يعمل بالشريعة اليهودية ، ولا يراعي العادات والتقاليد ، ومع هذا يُعتَبَرُ لدى التقاة واليهود التقليديين أحدَ كبار اليهود في العصر الحاضر. كما أنَّ معظمَ زعماء اليهود يعتقدون أنَّ الله وكيلٌ للعقارات ، يهبهم الأرضَ ، ويخصّهم بها دون غيرهم!!.

فالواقع أنَّ الصهيونية أسوأ مظهر وأبشعه للقومية المادية الغربية الجديدة ، وإنَّ فلسفة النفعية والانتهازية هي التي تبرّر لهم أن يقوموا بحملة قاسية لنفي الأغلبية العربية ، ولسحق الأقلية المنكوبة الباقية في إسرائيل بأقدامهم ، وهم يتظاهرون بأنّهم حملة الرقي والنور إلىٰ الأرض العربية التي كان يعمّها الجهل.

إنَّ دولةَ إسرائيل تتمتع بالتقدم العلمي والتكنولوجي. وهذا ـ علىٰ ما أعتقدُ مع إصرارهم علىٰ نظريتهم الرجعية القبلية أنهم شعب الله المختار ـ يهدد الأمن العالمي.

سمعت مرةً غولدا مائير تلقي كلمة أمام مجلس الأمم المتحدة قالت فيها: «إنني أخالف كلّ من يعارض إسرائيل في حقها للمحافظة علىٰ الأمن بالاحتفاظ بالأراضي العربية التي استولت عليها بالقوة. وإن الأخلاق التي نعترف بها دون غيرها هي أن يبقىٰ الشعب اليهودي في الدولة اليهودية». ولغولدا مائير أن تفكر في بقاء الشعب اليهودي ، ولكنّه ليس إلىٰ حد يعميها حتىٰ عن التفكير القليل لصالح الشعوب الأخرىٰ.

كما أنني اكتشفتُ سريعاً أنَّ العلماء اليهود يُخفون في نفوسهم الحقد علىٰ محمد رسول الله ﷺ أعمق مما يخفونه علىٰ النصارىٰ ، وأنَّ نفاق

اليهودية المجددة كان غير صالح للقبول. ولذا فإني مع كوني من الأصل اليهودي لا تتطابقُ أفكاري ومشاعري مع ما يُكنّه الشعب اليهودي من المعتقدات والأفكار.

ولما كان أبواي ليسا من اليهود المتمسّكين (وهما من الذين يرون أنّ علىٰ اليهود الأمريكيين أن يفكروا ويعيشوا ويعامَلوا مثل غيرهم من الأمريكيين) فقد قررا نقلي من المدرسة الدينية اليهودية بعد أن قضيتُ فيها سنتين، وإلحاقي بالقسم العلمي التابع لحركة الثقافة الأخلاقية التي أسسها الراحل الدكتور فيلكس أولر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد أشرتم في كتابكم (نظام الأخلاق في الإسلام) إلىٰ حركة هذه الفلسفة الإنسانية اللاأدرية التي ترفض الأسس الإلهية للقيم الخلقية، وتعتقد أنها أمور نسبية من صنع البشر. وقد حضرتُ التعليم الأسبوعي في مدرسة الثقافة الأخلاقية لمدة أربع سنوات، حتىٰ تخرجتُ بشهادة بكالوريوس وأنا في الخامسة عشر من عمري.

ومنذُ ذلك الوقت إلىٰ أن دخلتُ في فصل الحاخام كيتش في جامعة نيويورك في أكتوبر عام ١٩٥٤ م بقيت ملحدةً تماماً، رفضتُ جميع الأديان التقليدية المنظمة، معتقدة فيها أنها خرافات محضة.

وفي يوم من الأيام ألقىٰ الحاخام كيتش محاضرة استدلّ فيها علىٰ كون القيم الأخلاقية التي نمت وترعرعت كحقوق عالمية لجميع الإنسان، استدل علىٰ أنها ثابتةٌ لا ريبَ فيها، وأنها من صنع الله لا من صنع البشر، لا كما زعمت لكم سابقاً. أنا لا أتذكرّ الآن الأدلة التي جاء

بها ، ولكنّ الذي أتذكره أنها كانت منطقية ومقنعة لغاية أنها كانت بمثابة نقطة تحول في حياتي.

إنني كلّما تعمّقت في دراسة القرآن الكريم ، ازددتُ علماً ويقيناً أنَّ الإسلام وحدَه هو الذي جعل من العرب أمةٌ لها شأن عظيم. ولولا القرآن لكانت اللغة العربية قد انقرضت الآن. بل الواقع أنها بغير القرآن كانت مغمورةً وتافهةً مثل لغة زولو. إنَّ الآداب والثقافات العربية لمدينة حقاً للقرآن الكريم. لذلك لا يمكن أن يفصل بين الثقافة العربية والإسلامية ، بل هما متلازمتان ، فلولا الإسلام لما كان للثقافة العربية أيّ اعتبار في العالم.

ومع أنَّ والديَّ لا يمكن لهما أن يفهما سبب عدائي للحضارة التي تربيت فيها ، وبالأخص سبب مشاعري العدائية نحو الصهيونية ، فإنّهما لا يحولان دون اختياري الأسلوب الذي أحبّه للحياة. وقد حاولا أولاً أن يثبطا همتي دون التورط في الإسلام خوفاً من أن يوجدَ بُعداً ونفرةً بيني وبينهما وبقية أفراد الأسرة. ولكنّهما بعد أن لاحظا ما لديَّ من العزم والثبات علىٰ ما أنا عليه ، أكدا لي بأنهما لن يقفا دون دخولي في الإسلام ، ولن يضعا العراقيل في الطريق الذي أختاره لتكون حياتي سعيدة. وإنْ كانت آراؤهما تخالِفُ رأيي في كلِّ أمرٍ تقريباً. وإنَّ التسامح وسعة النظر اللذين يتمتعان بهما يجعلانهما لا يهددانني بالحرمان من الإرث ، أو قطع علاقتهما بي مهما بلغ خلافهما من الشدة. وكم يختلفان في معاملتهما هذه عن الآباء اليهود التقليديين الذين يعتبرون الولد الذي يغير دينه ميتاً!.

بالأمس كنتُ قد ذهبتُ إلىٰ الاتحاد الإسلامي في نيويورك لأتعلّم كيف أؤدي الصلوات الخمس بالعربية من الإمام الدكتور نور الدين

شريبة أحد خريجي الأزهر ، وهذا استعدادٌ لصوم رمضان الآتي الذي أعزم علىٰ أن أصومه لأول مرة.

أمّا عن عملنا للإِسلام ، فهل الأفضل أن نعمل سويّاً أو علىٰ انفراد؟ أمر أتركه لكم بعد أن علمنا أننا نتفق في الأفكار والنظريات. وأنني أكون شاكرة لكم جدّاً إذا تفضلتم بمشورتكم في ضوء هذه الرسالة الطويلة التي كتبتها لكم.

مع خالص احترامي لكم

مارغريت ماركوس

(٢)

الآنسة ماركوس لاهور: ٢٥/ ٢/ ١٩٦١ م

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

وصلني كتابكِ المؤرخ في ٣١ يناير متأخراً قليلاً ، وأنا آسفٌ علىٰ أني لم أتمكن من بعث جواب عاجل نتيجة مشاغل شاغلة. وأخاف أنَّ هذا التأخر سبّبَ لكِ إزعاجات توجب عليَّ أن أعتذرَ إليك من أجلها.

لقد قرأتُ نبذة عن حياتك ببالغ الاهتمام وكبير الاعتناء ، وقد تحقّق لدي بعد أن أنهيتُ قراءتها أنّ الإنسان الذي يتمتع بعقل مفتوح غير متحجرٍ لابدّ أن يجد أمامه المدخل الذي يوصله إلىٰ الطريق الحق ، إذا كانت جهودُه مخلصةً ومطردةً. أما البلايا والمحن التي ذكرتِ أنّك تعرّضت لها ، والعذاب الذهني الذي ابتُليتِ به ، لم تكن عندي أمورٌ غير متوقعة ، إنَّ الإنسان الذي يمرُّ بصراع عنيف وشديد مع ما يحيط به من الظروف الاجتماعية ، ولا يحظىٰ بأدنىٰ عطف ولا بأقل تشجيع في محيطه الفكري والأخلاقي ، إنّه ليكونُ من الغرابة في مكانٍ إن كانت أعصابه لا تنهار. إنّ عدم انسجامكِ نتيجةٌ فطرية لافتقادِ التوافق بينك وبين المجتمع الذي تعيشين فيه ، إنَّ مزاجك وذوقكِ والأفكار التي تحملَينها ، والعادات والسلوك اللذين تتمتعين بهما ، كلها تضاد مبدئياً ما عليه قومك ، ويغايرُ المجتمع الذي تعيشين فيه. وكان من الممكن أن يضرّكِ الصراعُ العنيفُ ويؤذيك أكثر مما آذاك به فعلاً. إنّكِ مثل شجرة استوائية غُرست في المنطقة الشماليةِ ، لذا يجبُ عليكِ أن

تواجهي ببسالة ما يتعذّر اجتنابه ، كل إنسان يستطيعُ أن يترعرعَ ويبرزَ في جوٍّ ملائم ، ولكنّه مهدد ـ إذا كان الجوُّ غيرَ ملائم ـ أن يفقد اتزانه الفكري ، وأن تذوبَ طاقاته وصلاحياته. وهذه هي الأسبابُ التي جعلتكِ غير متزوجة حتىٰ الآن ، إنّ مجتمعكِ لن يرغَب في امرأةٍ مثلك. لأن جميع الصفَاتِ التي تتحلين بها هي معايبُ لدىٰ ذلك المجتمع ، فلا يمكن أن تجدي رفيقَ حياتك في المجتمع الذي تعيشينَ فيه الآن. وإن كنتِ مرتبطة بأحدٍ ارتباطاً زائفاً ، فإنه لا يكادُ يكون ارتباطاً زوجياً ناجحاً مرغوباً فيه.

أنا مهتم بمشاكلك منذُ أن تلقيتُ رسالتك الأولىٰ ، وأرىٰ أنّه لابد من أن تختاري أحد الآمرين :

إما أن تبدئي العمل للإسلام جهاراً في أمريكة ، وأن تجمعي حولك جماعة من المتعاطفين والمتعاونين في العمل.

وإما أن تهاجري إلىٰ إحدىٰ الدول الإسلامية ، وأنا أرجح مجيئك إلىٰ باكستان.

أما رأيي أنا ، فليس من السهل أن أقول أيهما يناسبك ، إنّه يرجع إلىٰ ظروفك وأحوالك الخاصة ، ولكنّ الشيءَ الذي أستطيعُ أن أقوله إنك إذا أقمت في باكستان فستجدين نفسكِ فيها بين أناس يتفقون معك في الأفكار ، ما عدا اختلاف اللغة. وسوف تحصلين إن شاء الله علىٰ التشجيع وعلى جميع أنواع المساعدات المعنوية والمادية. كما نتوقع جداً أن تجدي شاباً مسلماً يتمتع بالصفاتِ الحميدة ليكونَ رفيقاً لك في الحياة. وسوف تجدين منّي كلَّ مساعدة بعد وصولك إلىٰ باكستان. ولكنّه يؤسفني أن أقولَ لك: إنني لا أستطيعُ أن أساعدك في نفقات

سفرك من أمريكة إلىٰ باكستان للشروط القاسية في بلادنا للحصول علىٰ العملات الأجنبية.

إنني آمل أنَّ لا يقف والداك والذين يريدون لك الخيرَ في طريقك. إنّهم يجب أن يعلموا أنَّ بنتهم إذا أُكرهت علىٰ البقاء في جوٍّ غير ملائم فإنهم يحكمون عليها أن تعيشَ حياةً ملؤها اليأسُ والقنوطُ، بل خطر الانهيار العصبي يهدِّدُ حياتها دائماً. ولكنّها إذا حظيتْ بجوٍّ اجتماعي يناسِبُها، فإنَّ أفكارَها تنمو وتزدهر، وتستطيع أن تعيشَ حياةً مفيدةً ومستمرةً. أنا أعتقد أنهم يستطيعون أن يدركوا هذه النقطة جيداً، حتىٰ لا يوجدوا العراقيل، بل ليس من الغريب أن يرحّبوا برأيي ويفرحوا به.

سألتني عن كتاب (الإسلام علىٰ مفترق الطرق) فقد قرأته وقرأتُ المؤلفات الأخرىٰ للأستاذ محمد أسد، وقد أتيحتْ لي فرصةُ التعارف الشخصي معه عندما أقام في القارة الهندية بعد أن دخل في الإسلام. ولعلّه يهمّك أن تعرفي أنه أيضاً من أصل يهودي من النمسة، أنا أقدّره كثيراً لما بذله من الجهود في سبيل نشر الأفكار الإسلامية، وبالأخص انتقاده للحضارة الغربية وفلسفاتها المادية.

ويؤسفني أن أقول: إنّه وإن كان في الأيام الأولى من دخوله في الإسلام مسلماً مخلصاً عاملاً، ولكنّه تدرج إلىٰ الإهمال، حتىٰ سار أخيراً علىٰ دروب المسلمين التقدميين مثل اليهود الإصلاحيين تماماً، وقد أبعد الشقة ما صدر منه حديثاً إذ طلق زوجته العربية، وتزوّج امراةً أمريكيةً عصرية. وإن كانت هذه الحقائقُ لا يمكن أن يتغاضى عنها الذي يتمتع بأدنىٰ درجة من الإنصاف، ولكنّي لا أستطيعُ أن أتهمه وألومه كثيراً علىٰ هذا.

في السنوات الأولىٰ من دخوله الإسلام لاحظتُ أنّ تغيرات تدعو إلىٰ البهجة والسرور طرأت علىٰ حياته ، ولكنّ الحقيقة التي لا ريبَ فيها أنَّ الإنسان الذي يرغبُ أن يعيشَ حياة إسلامية صادقة يفاجَأ بأن جميع كفاءاته تفقد القيمة في هذا المجتمع. وهو الحادث المؤلم الذي وقع مع محمد أسد ، فإنه كان متعوّداً علىٰ مستوىً عصري عالٍ للحياة ، فلمّا دخل الإسلام ، واجهته صعوبات مالية قاسية ، فكانت النتيجةُ أن اضطرَّ إلىٰ التوفيق بين الأمرين. ومع هذه التغيرات المنافية **أعتقدُ حتىٰ الآن أنَّ أفكاره ومعتقداته لم تتغير** ، وإن كانت حياته العملية ابتليت بتعديلات كثيرة.

قال رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «يأتي على الناس زَمَانٌ الصَّابِرُ فيهم على دينه كالقَابِضِ على الجَمْرِ»[١]. وقد تحققت هذه النبوءة حيث إذا أراد رجلٌ أو امرأة أن يعيش كما يتطلّب منه الإسلام فإن عاصفة شديدة من المعوقات تواجهه في كل خطوة من قبل الحضارة المادية وأهلها. وإنَّ البيئة كلَّها تنقلِبُ أعداءً لذلك المسلم. وعند ذلك إمّا أن يضطر إلىٰ التوفيق بين الأمرين ، أو أن يعيش في صراع عنيف مع المجتمع. وأعتقد أنَّ أقوى رجلٍ أعصاباً لا يستطيعُ أن ينتصرَ في هذا الصراع.

هل سبق لك الاتصال بالمركز الإسلامي في واشنطن أو في مونتريال ، فإنَّه قد يفيدك الاتصال به ، وعنوان المركز الإسلامي في مونتريال كما يلي: المركز الإسلامي ١٣٤٥ ، طريق الهلال الأحمر. مونتريال٢. كويبي. كندا.

---

(١) حديث صحيح رواه الترمذي عن أنس (ن).

أشكرك علىٰ شعورك نحوي ، وتفكيرك من أجل سلامتي في جولتي القادمة في البلدان الإفريقية. ويسرني أن أخبرك أنَّ المناطق التي أنوي زيارتها من القارة الإفريقية في سفري هذا ، مستقرّةٌ الأحوال ، بعيدةٌ عن الاضطرابات. أريدُ زيارة الصومال وكينية وأوغندةَ وتنجانيقة ، وزنجبار ، وموريشوس ، وجمهورية جنوب إفريقية. وهي بلاد تكثر فيها الجمعيات الإسلامية من الهند والباكستان والبلدان العربية. وآمل أن أتمكّن من العمل للدعوة الإِسلامية في إفريقية متعاوناً مع تلك الجمعيات.

أنا أدركُ تماماً مدىٰ أفكاركِ المذهلةِ عن الرئيس عبد الناصر ، إنّه بدلاً عن أن يكون مدافعاً عن الإِسلام ، لطّخ يديه الظالمتين بالدماء البريئة للشهداء ، إنّه بسحقه الإِخوان المسلمين بقسوةٍ وجَّه إلىٰ القوى الإِسلامية في البلدان التي ينطِقُ أهلها بالضاد ، ضربةً تعذّر معها وجودها. وهو يملك أربعة ألسنٍ في فم واحد: حينما يخاطب الشعب المصري ، يقول لهم: إننا أبناء فرعون (وقد نصبَ في الساحات العامة بمدينة القاهرة مجسمات ضخمة لرمسيس الثاني الفرعون الملعون الذي عُرف بالاضطهاد والظلم)[1] ، وإذا خاطب الشعوب العربية بصفة عامة يقول لهم: إننا أبناء قوم عرب أعزة. وإذا خاطب العالم الإفريقي كلِّه يحاول أن يكون ممثلهم الشخصي والناطق الرسمي باسمهم. وقد بدأ منذ أيام قليلة يتحدّثُ عن الإِسلام عن طريق إذاعة صوت القاهرة ، لأنه يناسب الظروف الاستراتيجية. إنّ رجلاً مجازفاً مثله ومجرّداً عن القيم الأخلاقية لن يخدمَ أبداً أهداف الإِسلام.

---

(١) نُصب تمثال رمسيس في إحدى ساحات القاهرة قبل الثورة المصرية (ن).

إنّ المجاهد المتجرّد عن الأغراض الشخصية؛ المخلص للإسلام؛ المتحلِّي بالاعتدال والتواضع ، الذي لا يحاول التوفيقَ بين الإسلام والنظريات المعاصرة؛ والذي يجد في نفسه الاستعداد للتضحية بكل أغراضه وأمنياته ، بل الذي يجد لديه الاستعداد للتضحية بحياته في سبيل الإسلام: هو المرء الذي يستطيعُ أن يخدمَ مقاصد الإسلام وأهدافه العظيمة.

أنا فرحٌ جداً بأنكِ أصبحتِ مسلمةً متمسكةً بتعاليم الإسلام ، وقد بدأتِ بأداء الصلوات الخمس وصوم رمضان. أهنئك علىٰ هذا ، وأدعو الله تعالىٰ أن يجعلك علىٰ درب الهدىٰ ثابتةً متدرجةً إلىٰ الأمام.

المخلص
أبو الأعلىٰ

(٣)

فضيلة الشيخ أبو الأعلى المودودي نيويورك ٨/ ٣/ ١٩٦١ م

تلقيت كتابكم الأخير المؤرخ في ٢٥/ ٢/ ١٩٦١ م وفرحت جداً بجوابكم الطويل العميق في الأفكار لجميع الأمور التي طالما كانت تسبب ثقلاً كبيراً علىٰ الدماغ.

وتجدون مشفوعاً بهذا الكتاب نسخة لمقالة نشرت في مجلة «انظر» الإنكليزية عن أحدث موديلات الأزياء النسائية التي أكرهُها إلىٰ حد لا يمكن أن أتكيف معها، بل أفضِّلُ الموت علىٰ أن أرىٰ نفسي لابسة إياها.

إن مصممي الأزياء الأمريكيين والأوروبيين يحاولون قدر المستطاع أن يعملوا كلَّ ما يمكن لجعل المرأة الغربية العصرية امرأة الشوارع والأزقة. إنَّ الزواني اللاتي قبلنَ الزنى حرفةً لم يبلغن في الوقاحة الدرجة القصوىٰ التي وصلت إليها هؤلاء النسوة المحترمات، كما يدَّعين. وصدق **أوسكار وايلد** حينما قال: إنَّ الأزياء شيءٌ قبيح، إذ إنها تتغير بعد كلِّ ستة أشهر.

إن أهم فوائد الملابس أن يحتشم بها الإنسان، ولكنكم كما ترون الصور المنشورة مع المقالة المشار إليها، فإن الأزياء الغربية العصرية للنساء إنما صممت علىٰ وجه الحصر للمرأة التجارية.

الأمر الأول الذي فعلته بعد دخولي في الإسلام والبدء في أداء الصلوات أنني أطلتُ جميع ملابسي. وقد استغرب أقاربي جداً عندما

رأَوْني ألبس ملابس طويلة يصل طولها إلىٰ الكعبين ، بينما ملابس جميع النسوة إلىٰ ما فوق الركبة.

إنّ الجرائد الأمريكية تقومُ هذه الأيام بدعاية واسعة النطاق عن التحرر المتزايد لدى النسوة في بلاد المسلمين نتيجة للثقافة الغربية والبيئة العامة. إنني وإن كنتُ أعتقد أنّ المرأة لها أن تتزود بالثقافة والتعليم قدر ما تستطيع أن تستوعب؛ ولكني أتساءل عن الآثار التي تترتب علىٰ إخراج المرأة من بيتها (وبالأخص المرأة التي لها أطفال صغار) لتنافس الرجال في المصانع والدوائر التجارية بدلاً من دُور الحضانة ورياض الأطفال. وهذا الذي وقع بالضبط في الاتحاد السوفيتي وفي الصين الشيوعية اللتينِ استغلَّ حكامُهما شعار «تحرير المرأة» للقضاء علىٰ العلاقات العائلية بالتدريج. وهو الموقف الذي اختاره الزعماء في بلادي أيضاً ، وإن كانت الوطأة أخف.

وقد هزّني وآلمني جداً ما ذكرتموه في رسالتكم الأخيرة عن محمد أسد. أنا لم أشك قط حتى من خلال كتاباته ورسائله الجديدة إليّ أنه لم يعد مسلماً مخلصاً متمسكاً بشعائر الإسلام. ولن أنسىٰ الكلمة الرائعة في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) التي كتب فيها عن ضرورة اتباع المسلمين السنة النبوية ، والتمسك بها بشدة مثل تعاليم القرآن ، إذا كانوا يريدون أن يبقىٰ الإسلام مزدهراً شاقاً طريقَه إلىٰ الأمام. إنَّ الأدلة التي سردها للاستدلال علىٰ أصالة الحديث كانت قوية مقنعة ، شعورُه نحو الإسلام كان واضحاً ، إلا ما ذكرتموه عن مشاكله الإقتصادية. لذا لا أجدني إلا مستغربة عن التغيير الذي طرأ علىٰ أفكاره ، وأدعو الله أن لا يحدثَ معي أبداً ما حدث معه.

هل تتكرمون ببعض التفاصيل عن البرنامج الذي أعددتموه للجامعة

الإسلامية الجديدة التي يعزم الملك سعود علىٰ تأسيسها؟ كنتُ أظنُّ في بَدْءِ الأمر أنها ستكون علىٰ شاكلة جامعة الأزهر ، ولكن قرأتُ قبل أيام مقالة يقول فيها كاتبها إن الجامعة المقترحة ستكون لا دينية في جوهرها ، غربية في خطوطها العامة ، مع دراسات إسلامية طفيفة تكون جزءاً عارضاً للمنهج . وقد ذكر فيها أن الملك سعود يريد أن يجدد البناء الكامل لمدينتي مكة والمدينة . إنني وإن كنت أعلمُ أنَّ كثيراً من الأبنية القديمة في المدينتين المقدستين بحاجة ماسة إلىٰ الإصلاح ، ولكن الذي أرجوه أن تعمَّر الأبنية الجديدة علىٰ طراز العمارة الإسلامية ، إذ إنّ الجو العام لهذه الأمكنة سوف يفقد روحانيته ، إذا اختيرت الأشكال المسرفة في العصرية للأبنية فيها . أنا شخصياً أمقتُ العمارة العصرية لكونها تنافي جميع معايير الجمال والتناسق والذوق والشعور . ولذلك كلما زرت المركز الرئيسي للأمم المتحدة (الذي هو نموذج بارز للعمارة العصرية) فوجئت بشعور من العزلة والحرمان وبرودة العمائر الشامخة التي تتراءىٰ لي مثل صناديق فارغة في الطول مع شبابيك من الزجاج .

أعتقد أنَّ الفن العصري للعمارة الذي يزيد كل يوم ملامح المدن في بلادنا قُبحاً وبشاعة ، إنْ هو إلا انعكاسٌ واقعي لرفض جميع القِيَم الروحية من قِبَل الذين يخططون البنايات .

لذا أرىٰ أن بقاء المدينتين ـ **مكة والمدينة** ـ قديمتين بعيدتين عن التطوّر الصارخ في هندسة البناء أفضل من جعلهما علىٰ شاكلة مدننا الحديثة .

أنا لم أكن أعرف شيئاً عن المركز الإسلامي في مونتريال ، حتىٰ

كتبتم عنه في كتابكم الأخير ، مع أنه تم بناؤه في عام ١٩٥٧ م. أما المسجد في واشنطن فأنا علىٰ صلة قوية معه ، وقد سافرت في الصيف الماضي لمشاهدة المسجد وزيارة المدير الدكتور محمد ف. هويله الذي هو أحد خريجي جامعة الأزهر مثل الدكتور شريبة. وكان بناء مسجد واشنطن قد تمَّ وفق فن العمارة الإسلامية التقليدية ، فكان جميلاً كأي عمارة جميلة في العالم. ولكنَّ الأمر الوحيد الذي آلمني أن المسؤولين الحكوميين في مدينة واشنطن لا يسمحون بالأذان من فوق المئذنة ، ويتعللون بأنه يثير غضب السكان غير المسلمين في المنطقة ، ولأنّ فيه إزعاجاً للعامة. كما أنّ المسجد لا يفتحُ إلا لصلاة الجمعة. أما الصلوات الخمس فقد تبيّنَ لي بعد المراقبة أنَّ المسلمين لا يأتون إليه من أجلها.

هل سمعتم عن الحملة التي قام بها الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة ضدّ صوم رمضان ، فهو يدّعي أن الصوم يضرُّ بالصحة!! وأنه هو السبب الرئيسي لتخلف الاقتصاد التونسي ، لأن الإنتاج الصناعي ينخفض في شهر رمضان ، وأن الذين يصرون علىٰ الصوم إنّما هم رجعيون!!

إن الهدف الرئيسي للسمّ الذي يدسه الرئيس بورقيبة هو جامعة الزيتونة التي هي مركز هامّ للدراسات الإسلامية منذ قرون في شمال إفريقية.

وقرأتُ في الجرائد أنّه كلما اقترب شهر رمضان في الاتحاد السوفيتي ، يضاعِفُ الشيوعيون دعاياتهم ضد الإسلام. إنّ الدعاية الشيوعية لإضعاف معنويات المسلمين لا تخفق في التوكيد للشعب بأنَّ رمضان له تأثير مُضرٌّ علىٰ اقتصاد البلاد ، وذلك لأن العامل في المزرعة

أو المصنع الذي أنهك قُواه صومُ رمضان ، أو المسلم الذي يتوقف عن عمله لأداء الصلوات إنما يخرّب الإنتاج الوطني. والحبيب بورقيبة الذي يعتبر صديقاً عظيماً للديمقراطية الغربية يستغل الأساليب الشيوعية نفسَها ضد رمضان.

وتعرفون المستشرق الدكتور ولفرد كانتول سميث الذي يدير معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ميك جيل في مونتريال. إن كان كذلك فهل سبق لكم أن قرأتم كتابه (الإسلام في التاريخ الحديث)[١] الذي موضوعه أنَّ الإسلام الذي دعا إليه الرسول الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) وطبَّقه لم يعد صالحاً لهذا العصر. وإن كان يرادُ له أن يبقىٰ في المستقبل ، فلابد من تَقَبَّله الاشتراكية والأفكار العصرية (كأمور متممة له). وفيما يلي ما كتبه عنكم في المقالة الخاصة بباكستان:

«لقد عرض المودوي الإسلامَ كنظام قدّم حلولاً محدَّدة لجميع المشكلات البشرية في الزمن القديم ، ولم يعرِضْه كعقيدة بأن الله يرسل للبشر كل صباح ثروات يستطيع أن يحصل بها على حلول مشاكله. إنّ النزعات الجديدة ترىٰ أن النظام الذي يقدمه المودودي محدودٌ وغيرُ وافٍ للأهداف ، وصلبٌ وقاسٍ بحيث لا يستطيعُ اليوم أن يمثل تلك الأوامر الإلهية ، وأنه لابدّ من البحث عن صدق الإسلام في عالم القيم والقوة الطبيعية والروحية. علاوة علىٰ ذلك إذا أردنا أن نَحكُم كتاباته فإننا نجده يريد أن يطبّق نظامه علىٰ باكستان ـ إذا استطاع أن يوجد الأسباب الكافية لبلوغ جماعته إلىٰ الحكم ـ النظام الذي يكون قاسياً أيضاً. إنّه يبرهن علىٰ ما يقول ، ولكنه لا يراعي مصالح الفرد

(١) انظر تعريفاً بالكتاب في الملحق (ن).

والمجتمع البشري الذي يعيشُ تحت حكمه. إن نظريته ـ يتراءىٰ لي ـ أنه لا مكان فيها لمشاعر الآخرين، ولا حفاظ فيها علىٰ أمن الشعب المحكوم، ولا اعتبار للميول التي أراد الحكام دائماً عبر التاريخ البشري أن يشوهوا أحسنها..

إنّ حركة المودودي تحاول أن توفق بين التاريخ الإسلامي القديم وبين متطلّبات الحياة المعاصرة ليخرج منه بنظام متحجّر لا إبداع فيه».

أنا أعرف أنكم ستكونون في أشغال شاغلة في الوقت الذي يصل إليكم كتابي لاستعدادكم للسفر إلىٰ إفريقية. ولذا لا أتوقع الرد منكم إلا بعد عودتكم إلىٰ لاهور في أواخر شهر مايو.

المخلصة

مارغريت ماركوس

(٣)

الآنسة ماركوس **لاهور ١/ ٤/ ١٩٦١ م**

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وصلني كتابك المؤرخ في ٨ مارس من غير تأخير ، ولكنّي لم أتمكن من الإجابة علىٰ وجه السرعة لسوء صحتي ، أنا أعاني من أواسط رمضان من وجع شديد مستمر في كتفي الأيمن ، ولم يشفني منه أيُّ علاجٍ حتىٰ الآن ، وقد قرر الأطباء أخيراً العلاج بالأشعة العميقة.

لقد قرأتُ كتابكِ باهتمام بالغ ، الصور التي أرسلتها لملابس المرأة الأمريكية ليست جديدة عليّ ، فنحن نرىٰ كل يوم هنا في لاهور نساءً من أوربة وأمريكة في أزياء شبيهة بها. وقد رأيتُ نساءً عربيات في القاهرة وبيروت ودمشق يمشين في الطرقات في أزياء تشبهها كثيراً.

أنا لا أستطيع أن أتصوّر كيف أنَّ المرأة التي تتمتع بشعور الاحتشام ترضىٰ لنفسها أن تتزين بهذا الأسلوب حتىٰ في بيتها أمام أقاربها الأقربين. أمّا الخروج من البيت وهي في هذا الزي فإنّه أمرٌ مخزٍ لا يحسن السكوت عنه. لقد سررتُ كثيراً بأنك تكرهين هذا النوع من اللباس.

إذا استطعت أن تتعلمي العربية أو الأُردية لتقرئي التعليمات المفصلة التي وردت عن النبي ﷺ بخصوص المرأة ، فستجدين أنها توافق الطبائع النسوية تماماً.

الدور الذي تطالب المرأة الأوربية أن تقوم به في المجتمع ، إنه ليس بتحرر ، بل هو إفساد واستعباد لها ، ونتيجة للكذب والدعاية الباطلة ،

نجد النساء يحاولن التشبه بالرجال ، والطغيان علىٰ صفة الأنوثة ، إنهنّ يعتبرن من الخزي والعار أن يقمن بواجبهن الطبيعي في الحياة الذي وُكِّل إليهنّ من قِبَل الله ، ويبحثن عن العزة والافتخار في الأعمال التي تخص الرجال.

الواقع أن الحضارة الغربية برهنت علىٰ أنها كانت ظالمة للجنس اللطيف ، فهي في الوقت الذي تطالب المرأة أن تتحمل الأعباء التي وكلت إليها من الله ، تدعوها إلىٰ الخروج من بيتها لتقوم بالأعمال المتنوعة الموكلة إلىٰ الرجال. وبذلك وُضِعَتْ بالقوة بين شقَّيْ الرَّحىٰ.

وقد اغترت المرأة بالدعاية حتىٰ جعلت تفكر في الوسائل التي تجعلها أكثر جاذبية للرجال ، فكانت النتيجةُ أنْ خرجت من حشمتها بلباس قصير أو شبه عارٍ. إنَّ المرأة أصبحت أُلعوبةً في أيدي الرجال.

وقد أثبت الإسلامُ أنه المُحسن الحقيقي للمرأة ، حيث ربط كل امرأة برجل واحد ، وأنقذها من تبعية الرجال الآخرين. إنَّ الإسلام يعطي أهمية كبيرة للأعمال التي وكلها الله إلىٰ المرأة ، بينما الحضارة الغربية جعلتها مستعبدة لرجال لا يُحصَوْن ، وأشاعت فكرة سيئة ، إذ وصفت الأعمال التي تلائم طبيعة المرأة أنها مخزية ومُشينة.

والذي بلغك عن الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ليس صحيحاً. المنهجُ الذي قدمته ـ وقد وافقت عليه اللجنة المختارة من قِبَل الملك ـ يهتم بدراسة القرآن الكريم والحديث النبوي والفقه والعقيدة والتاريخ الإسلامي ، مع دراسة الفنون الأدبية والقضاء والتاريخ والاقتصاد والسياسة والدراسة المقارنة للأديان. كما أنه لابد من دراسة إحدىٰ اللغات الأوربية من الإنكليزية والفرنسية والألمانية. الدراسة المقترحة

في هذا المشروع لا يمكن أن توصف بالعلمانية أو اللآدينيَّة في مفهومهما الضيق المتداول بين الناس. نحن نعزم علىٰ أن تكون هذه الجامعةُ مختلفةً عن الكليات الحديثة أو المدارس قديمة الطابع ، وأن يكون لها طابع خاص لا مثيل له. إننا نتمنىٰ إيجاد علماء مسلمين متعمقين في العلوم الإسلامية مع التزود بالعلوم الحديثة ، ليتمكنوا من تطبيق المبادىء الإسلامية علىٰ مشكلات الحياة في العصر الحاضر.

المملكة العربية السعودية الآن ـ مثلها مثل البلاد الأخرىٰ للمسلمين ـ أصبحت مسرحاً للصراع بين حضارتين متضادَّتَيْن ، اكتشاف البترول جلب لها أموالاً هائلة لم تكن تحلمُ بها. فانهار السد المنيع الذي كان يحول دون سيل الحضارة الغربية ، مدينة الرياض الحديثة الكائنة في الصحراء العربية كادت أن تصبحَ ـ وهي تشق طريقها إلىٰ الرقيّ والازدهار ـ نسخة مطابقة للعواصم الغربية. وكذلك الحال بالنسبة لمدينتَيْ الظهران وجُدّة. بل مدينتا مكة والمدينة بدأتا تخطوان إلىٰ التجدد والطابع العصري.

في مثل هذه الظروف الراهنة إن لم نستطع أن نوجد علماء جيدين للبلاد العربية ليملأوا الفراغ الموجود في حقل الزعامة بأفراد أذكياء علميين. نخاف أنّ تكتسح ملاذ الإسلام هذه موجةُ الثقافة المادية التي جاءت بخراب وفوضىٰ في تركية ، والتي تشدد الآن قبضتها علىٰ مصر وتونس والمغرب وأندونيسية وباكستان.

لذا أعتقد أنّ واجبنا الأول أن ننقذ مركز الإسلام من مخالب هذا الخطر الداهم.

الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة يتبع الآن خطوات الزعيم التركي

مصطفىٰ كمال أتاتورك. إنّ هؤلاء الزعماء المسلمين العصريين لعبوا دور **الخَوَنة** في بلادهم ، إذ أرادوا القيام بحملة للاستقلال السياسي عن الاستعمار الغربي ، ونادوا المسلمين باسم الإسلام. فلما امتلكوا زمام الأمر ، جعلوا الدين كبش الفداء للتأخر الوطني ، وسحقوا بقسوة كل من نهض لإظهار أفكار الإسلام وحضارته ، **جميع هؤلاء الزعماء من إيجاد الاستعمار** ، لا يعرفون عن الدين شيئاً ، ولا يحملون في قلوبهم أي احترام له. إنهم درسوا ونشأوا في إنكلترة أو فرنسة أو البلدان الغربية الأخرىٰ. وكثير منهم زوجاتهم أوربيات (بورقيبة زوجته فرنسية)(١) إنّهم في حياتهم اليومية وعاداتهم الشخصية لا يختلفون عن الأوربيين في شيء. إنَّ المسلمين قبلوا زعامتهم للحصول علىٰ الاستقلال السياسي ، ولكن أولئك الزعماء المتفرنجين يحاولون الآن أن يزيلوا آخر أثر للحضارة الإسلامية عن بلدانهم ، ليجعلوا نفوذهم السياسي قوياً لا يزلزله شيء.

لقد قابلتُ الدكتور ولفرد كانتول سميث في عام ١٩٥٨ م حينما أهدىٰ إليَّ نسخةً من الكتاب الذي ذكرتِه في خطابكِ الأخير. هؤلاء الناس يحاولون عبثاً أن يخلقوا لنا إسلاماً جديداً ، ويظنّون مغترين أننا نتَخلّىٰ عن إسلامنا الصحيح المتمثل في القرآن والسنة ، ونتقبّل الشروحَ التي وضعوها للإسلام ومبادئه ، من دون أن ينتبهوا لحقيقةِ أنَّ جميع محاولاتهم سوف تذهبُ سُدًى ، لأنّ المسلم عليه أن يكون مسلماً بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فإنْ غيَّرَ فيه أو بدّل ـ لا قدّر الله ـ فقد أصبحَ

---

(١) اسمها (ماتليد لوران) وله منها ولد هو الحبيب بورقيبة الابن ، وكان قد تعرف عليها في باريس في ثلاثينيات القرن العشرين أثناء دراسته الحقوق في جامعة السوربون (ن).

يختـار طريقـاً آخر بين الاثنين (القرآن والسنة). ولا شك أن أمل البقاء ضئيل جداً بالنسبة للإسلام الذي فَقَدَ الحماس.

أنا مستغرب جداً من حماقة زعماء الدول الغربية ، فهم في الوقت الذي يريدون من المسلمين أن يحاربوا الشيوعية ، لأنها عقيدة إلحادية ، يعتبرون في الوقت نفسه أن الإسلام الصحيح خطر يهددهم. لذلك يحاولون أن يردوا المسلمين عن دينهم ، وأن يوجدوا بينهم كل أنواع البدعة والارتداد.

كم من الرثاء يستحقه هؤلاء الناس حيث لا يدركون مدىٰ خطورة النتائج الحتمية لخطئهم الفاضح. إنّهم دائماً يشجّعون العناصر التي تريد أن تبث القيم غير الإسلامية في البلدان الإسلامية ، ولا يسأمون أبداً من توجيه النقد إلىٰ الأشخاص الذين يجاهدون للحفاظ علىٰ الروح الحقيقية للإسلام ، بل يصمونهم بالتعصب والجمود ، وهم لا يكتفون بانتقاداتهم اللاذعة هذه ، بل يثيرون الزعماء العصريين ضد المسلمين الذين يعملون من أجل إيجاد صحوة إسلامية بين الشعوب الإسلامية ليضطهدوهم ، ويصبوا عليهم كؤوس العذاب والنكال. الله يعلم ماذا ستكون النتيجة لمثل هذه التصرفات غير المعقولة من قبل ناقدينا الغربيين!!

ليعلم الدكتور ولفرد كانتول سميث وزملاؤه المنتشرون بيننا أنه لا أمل أبداً في أن يتقبّلَ جمهور المسلمين هذا الشرح الجديد للإسلام ، وأن يؤمنوا بما يريدون بثَّه فيهم ، كأنه الإسلام الحقيقي.

الشكر لله علىٰ أنَّ المنبع الأصلي للإسلام ـ القرآن والسنة ـ ما زال خالصاً محفوظاً لم تمسه أيدي التحريف والتبديل. وإنه طالما بقي

مسلم واحد في الدنيا مع اتجاهه المباشر إلىٰ هذه المصادر الأساسية ، فلن تروجَ التفاسير الزائفة للإسلام والشروح الباطلة بين المسلمين.

ولعلّ رحلتي إلىٰ إفريقية تؤجّل إلىٰ شهر يوليو ، لأن صحتي المتأثرة لا تمكنني من السفر ، كما أنَّ الإخوة الموجودين في إفريقية يرَوْن أن سفري يكون أكثر فائدة بعد أن تهدأ الإثارات الانتخابية في كينية ، ويسودها الهدوء السياسي. مع السلام وأطيب التحيات.

المخلص

أبو الأعلىٰ

(٤)

فضيلة الشيخ أبو الأعلىٰ المودودي نيويورك ١٢/٤/١٩٦١ م

لقد تألمّت جداً لخبر عدم تمكنكم من السفر إلىٰ إفريقية لسوء صحتكم ، وأن مرضكم طال لقرابة شهرين. أنا آمل أن يجدَ الأطباء علاجاً حاسماً لإزالة الألم. ولا شك أنّ طبع مثل هذا الكتاب الطويل ، والإجابة المقنعة علىٰ جميع الأسئلة ـ وأنتم تعانون من الألم الشديد ـ تطلَّبَ منكم جهداً كبيراً وأتعبكم كثيراً.

يبدو أن المذياع والتلفاز والجرائد تتقاذف هذه الأيام القذائف لتلقي في قلوب المستمعين أن الدول المتخلفة بحاجة ماسّة لرفع مستوىٰ حياتها ، والنهوض باقتصاد البلاد ، ولتحقيق هذا الغرض يعتقد الناس أنه لا بدّ من مساعدة خارجية بمقادير كبيرة من الولايات المتحدة الأمريكية وروسية الشيوعية.

إنّ فكرةَ النمو الاقتصادي المزعوم فيما يسمّىٰ بالبلدان المتخلفة فكرةٌ مستحوذة علىٰ أذهان الناس. يقولون: إنّ النمو الاقتصادي في البلدان المتخلفة يعني ويتطلّب تهذيب الشعوب ، وإنشاء المصانع ، والسير بالبلاد علىٰ طريق الزراعة الآلية ، ولكنَّ الواقعَ أنّهم يستغلون شعار «النمو الاقتصادي» لنشر كلِّ ما ينتمي إلىٰ الغرب ، وللقضاء علىٰ الحضارة الوطنية في البلدان الآسيوية والإفريقية ، وهم يتشدّقون دائماً بالقضاء علىٰ الجهل ، ويؤكدون علىٰ نشر التعليم. ولكنّهم يعنون به التعليم الحديث اللاديني وَفْق المناهج الغربية ، مع التأكيد علىٰ التكنولوجية ، ويتغاضَوْن تماماً عن التعاليم الإسلامية ، التي تدعو إلىٰ

تحقيق العدالة الاجتماعية ، والقسمة العادلة للأموال مثل الزكاة ونظام الإرث والأوقاف وحرمة الربا في رؤوس الأموال.

الحركة الوحيدة التي حاولتْ في العصر الحديث أن تحقق العدالة الاجتماعية وفق الشريعة الإسلامية هي حركة الإخوان المسلمين الممنوعة التي أسسها الشيخ حسن البنا في سنة ١٩٢٨ م.

في أيام مراهقتي كنتُ معجبة جدّاً باليونسكو ، التي تعتبر شعاراً للأمم المتحدة ، وبأمثالها من المنظمات الأخرىٰ ، لأنني كنتُ عالمية الأفكار ، ومؤيدة للتبادل الثقافي ، والتفاهم الأفضل بين الشعوب المختلفة في العالم. ولكنّي أخيراً بدأتُ أغيّر رأيي حتىٰ عن اليونسكو. وذلك لأني قرأتُ جميع النشرات التابعة لها منذ نشأتها في عام ١٩٤٦ م حينما كنتُ في الثانية عشرة من عمري. فتبيّن لي أنها وإن كانت تبدو ذات هدف مشترك ، وغير متحيزة ، ولكنّها في الحقيقة تهدِفُ إلىٰ طمس المنهج الإسلامي للحياة مثل النشرات الغربية الأخرىٰ.

فالحقيقةُ التي لا مريةَ فيها أنّ وكالات الأمم المتحدة لا غايةَ لها أكثر من نشر الأفكار الغربية والنظرية المادية العصرية. المدير الأول لمنظمة اليونسكو هو السير جوليان هكسلي ، حفيد البيولوجي الإنكليزي الشهير سير توماس هكسلي ، الذي ألف كتباً كثيرة معروفة بأفكاره الإلحادية ونظرياتها المادية.

لقد نُشر الجزء الأخير من كتابي (أحمد خليل) الذي هو عبارة عن قصة حياة لمهاجر عربي فلسطيني في عدد مارس عام ١٩٦١ م لمجلة إسلامك ريفيو (Islamic Review) وفي العدد الخاص برمضان المبارك لمجلة مسلم دايجست (Muslim Digest) الصادرة في دربن.

ومنذ ذلك الوقت تلقيتُ عدداً كبيراً من الرسائل من قبل المسلمين الذين انتقدوا وصفي المادح للحياة العربية التقليدية في القرون الوسطىٰ ، مثل استعمالهم الزي الوطني ، والأكل بالأيدي من طبق عام ، والنوم علىٰ بساط أو حصير مفروش علىٰ الأرض ، إنّهم مصرون علىٰ أنيٰ أسأتُ إلىٰ القضية العربية إذ وصفت الحياة العربية في هذه الصورة المتخلفة. ما رأيكم فيه؟!

إنّ المثقفين العصريين الذين يحكمون البلاد في آسية وإفريقية ، نجدهم قلقين مضطربين ، بل مصابين بجنون النهوض ببلادهم. وهذا ليس لأنّهم يريدون النجاح للفقراء ، بل هم خجلون من سوء حالتهم ، وتنتابهم الرِعدةُ مما يعانون من العُقَد النفسية الشديدة كلّما توصف بلادهم بالتخلف.

وأعتقد أنّ جنون تصنيع البلاد لا ينجم لديهم عن التفكير في الفائدة الإيجابية التي تحصل عليها البلاد ، بل لأنَّ المصانع الكبيرة والسدود العظيمة والمشاريع الكهربائية تجلبُ لهم الاحترام والإِكبار في قلوب زعماء الدول الراقية.

الشعوب لا تختلف عن الأفراد الذين يجهدون أعصابهم ليكدسوا أكبر قدر ممكن من الأموال ليراءوا ويتباهوا بها أمام العالم. وقد جاء في القرآن الكريم ما يصوّر هذا السلوك تصويراً جيداً إذ قال تعالىٰ: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠] إن الآية الكريمة هذه تحقق صدقها في هذا العصر أكثر من عصر النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

والآن أستطيعُ أن أدرك لماذا كان الإِيمان باليوم الآخر من الأمور

الضرورية في الإسلام؟ ولماذا يؤكد عليه القرآن في كل آية تقريباً؟ فإنّ الإنسان إذا آمن باليوم الآخر، فالأشياء التي كانت لديه ذات أهمية، سرعان ما تفتقد أهميتها. إن الإيمان باليوم الآخر يعطي الإنسان وجهة نظر صحيحة عن الحياة الدنيا، ويمكِّنه من التمييز بين ما هو ذو أهمية في الواقع وما لا أهمية له. ومن ثَمَّ يقوِّي صلته بالأشياء التي تبقىٰ للأبد ولا يلتفت إلىٰ الأغراض المادية التي تفنىٰ سريعاً من غير أن تترك لها أثراً من ورائها[1].

الإيمانُ بأنَّ الله يحكم بين العباد في اليوم الآخر هو العامل المؤثر وراء القوانين الأخلاقية. ولا مفهوم للدين من دون الاعتقاد في البعث بعد الموت. وإذا كانت هذه العقيدةُ ضرورةً أخلاقيةً فلا يمكن أن تكون نتيجة «التفكير النفعي» كما يزعم أهل الشك، بل هي حقيقةٌ ذاتُ هدف معلوم. لقد ذكرت لكم سابقاً مدىٰ الانعزال الرهيب الذي أشعر به عن أولئك الأفراد الذين لا يشاركوننا في التفكير.

هنا في نيويورك جمعية صغيرة للمسلمين الذين أقابلهم كل أسبوع في المسجد، عندما أذهب إليه لآخذ دروس العربية. ويوم الجمعة أذهب إلىٰ جامعة كولومبية لمقابلة الطلبة المسلمين من البلاد المختلفة. ونجتمعُ فيها لصلاة الجمعة، ثم للغداء مع المناقشة وتبادل الآراء، فنجدهم يخالفونني في الأفكار، كما يخالفني فيها أبي وأمي. إنّهم يعتقدون بشدة أنه لا بد من التوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية

(١) هذا مصداق الحديث النبوي «أكثروا ذكر هاذم اللذات الموتِ، فإنه لم يذكره أَحَدٌ في ضيقٍ من العَيْشِ إلا وسّعَهُ عليه، ولا ذكره في سَعة إلا ضيّقها عليه» (ن).

الحديثة ، وذلك بتعديل الأفكار والأعمال الإسلامية وفق ما يتطلبه العصر الحاضر. بل وجدتُ بعضهم ينتقد العقائد الإسلامية الأساسية ، والبعض الآخر يشكك في أصالة الحديث النبوي. وأنا أحاول جهد المستطاع أن أكون مجاملةً لبقةً. ولكني لا أستطيعُ أن أقنعهم ، وهم لا يستطيعون أن يقنعوني ، فأغادرهم دائماً مع شعور اليأس.

الذي يُدرّس اللغة العربية في المسجد ، هو من مواليد القاهرة ، قال لي: إنه يعتز بكونه مصرياً مثل ما يعتز بكونه مسلماً. وقد أكد لي أنَّ فكرة القومية أمر طبيعي ، وتتولد في قلوب الناس في العالم كله ، من غير أن تكون مستوردةً من الخارج.

والآن أسألكم: ماذا يمكن العمل من أجل هذا؟ لقد كتبتُ من بداية نوفمبر ١٩٥٩ م عدداً من المقالات دافعت فيها عن هذه النظرية. وقد نُشرت كلها في مجلات إنكليزية إسلامية مختلفة. ولكنها لا تكفي.

إنني أشكركم جداً إذا تفضلتم بإفادتي عن الأعمال التي قمتم بها ـ بالإضافة إلى الكتابات ـ والتي تقومون بها الآن لتحقيق الغرض المطلوب.

وأدعو الله كثيراً أن يمنّ عليكم بالصحة. وتحياتي لكم ولعائلتكم الكريمة.

المخلصة

مارغريت ماركوس

(٤)

الآنسة ماركوس **لاهور ١٩/ ٥/ ١٩٦١ م**

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

تسلّمت رسالتك المؤرّخة في ١٢ إبريل. ومرة أخرىٰ أعتذر إليك عن التأخير في الإجابة، والسبب كما تعلمين من قبلُ، انهيار الصحة والأعمال المتزايدة. وقد عولجت ـ بعد مرض طويل ـ بأشعة عميقة، وأشكر الله علىٰ أنني قاربتُ الشفاء، وبقي الضعفُ العام.

قرأتُ بشوق قصاصة مجلة (إسلامك ريفيو) للقصة الصغيرة من كتابك، التي أرسلتِها إليّ مع كتابك، لقد استطعتِ أن ترسمي الصورة الدقيقة لأثر المادية الغربية علىٰ المسلمين العرب. أنا رأيتُ بعيني هذا الأثر علىٰ الحياة العربية في زيارتي الأخيرة للبلدان العربية، وقد ناقشتُ الموضوعَ مع المفكرين والمصلحين الذين يحبون الإسلام.

الانتقاداتُ التي تلقيتيها حول قصتك من قبل بعض المسلمين، لا توقعني في الاستغراب، حتىٰ المخلصين من المسلمين يخافون من أنَّ الصورة الرجعية للإسلام قد توجِدُ الكُرهَ لدىٰ الغربيين والمسلمين العصريين. إنَّ ردَّ الفعل الأول الذي يتولّدُ لديك من مثل هذه الآراء المناوئة لاشك أنهّ يكون ممزوجاً بالرعب والدهشة. ولكن الذي ينبغي لك هو أن تفهمي تلك الآراء جميعاً. إنكِ إذا واظبتِ ـ بتؤدة ـ علىٰ نشر حقيقة الإسلام، فلا شك أن جهودكِ ستكلل بالنجاح، وتجدينَ مَنْ يسلكون سبيلك.

أنصحكِ أن لا تحاولي إقناعَ كل فرد ، وبالأخصّ الذين لا يستمعون إلىٰ ما تقولينه ، أو الذين يضادُّونك في الأفكار تماماً ، ولو كانوا أبويك اللذين تحبينهما كثيراً ، يقول الله جلّ وعلا : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلىٰ: ٩].

أرىٰ أن تبحثي دائماً عن أفراد يترفّعون عن الأفكار المادية البحتة ، ويشجعون القيم الأخلاقية والروحية العالية. إن لم تجدي مثل هؤلاء الناس فإنَّ شعور الوحدة والانعزال سيستمر معك في هذا العالم المادي المُقفر ، والنزاع المستمر والحجاج مع الأعداء يقلقك دائماً ، والناس غير المُبالين يخلقون التشاؤم لديك.

من الطبيعي جدّاً أن تحاول الدول المتخلفة إزالة آثارِ التخلف بأسرع وقت ممكن ، واللحاق بالدول الغربية في سباق الرقي المادي. ولكنّ المشكلة أن المساعدات من الدول الغنية تكون مستهلاً لطوفان الحضارة الغربية التي ستكون خطراً جسيماً علىٰ ديننا وأخلاقنا ومدنيتنا وحضارتنا. وبالاختصار ، تهدِّدُ كلَّ ما هو عزيز لدينا ، والذي يجعل حياتنا ذات هدف.

علاوة علىٰ ذلك ، الزعامة في البلدان الإسلامية في أيدي أناس نفوسهم مهزومة ، وهم يتجرؤون علىٰ شرح الشريعة الإسلامية شرحاً جديداً رغم مبلغهم الضئيل من العلم. وهذا الوضع خطير جداً. إذ إنّ خطره لا يقتصر علىٰ الطرق الإسلامية للتفكير والسلوك ، بل الظن الغالب أن الدول الإسلامية ترتمي في أحضان الشيوعية. وذلك بأنه إذا شاهد المسلمون المقدسات الإسلامية والقيم السامية في حياتهم تداس تحت الأقدام ، وأن الأفكار المادية هي التي تبقىٰ ، وهي التي من أجلها

يمكنهم أن يعيشوا ، وفي سبيلها يجب أن يموتوا. فلا شك أن العالم الإسلامي يصبح أرضاً خصبة لمؤامرة الشيوعية ، وتسللها ، ونشر دعاياتها الكاذبة.

أعتقد أن السياسة الأمريكية الخارجية تواجِهُ انتكاسات فظيعة في البلاد الإسلامية ، ولعلّها تلقىٰ المصير نفسه في هذه البلاد ، كما واجهت المشكلة نفسها في الصين ، وتخاف أن تقع مساعداتها النقدية والسلعية في أيدي الأعداء.

إنَّ الحقد المتأصّل ضد الإسلام في قلوب الأمريكيين والأوربيين ، واحتقارهم للمسلمين ، أعماهم حتىٰ عن مصالحهم الخاصة. إن السؤال الذي سألتِهِ في نهاية كتابِك الأخير ، إنه لسؤال مهم في الواقع. إنه السؤال نفسه الذي أحاول منذ خمس وثلاثين سنة أن أجد له جواباً.

بدأت جهودي نحو فهم الإسلام ، ومن ثَمَّ العمل من أجل بقائه منذ أن كنتُ شاباً في الثالث والعشرين من العمر. ومنذ ذلك الوقت وقفتُ حياتي كلّها للغرض المذكور. أنا لم أعتقدْ قط في الخطة الدفاعية المحضة أو العمل في مؤخرة الجيش ، ولذلك قمتُ بمحاولة ذات ثلاثة جوانب:

أولاً: هاجمت بضراوة الأفكار الأساسية للثقافة الغربية.

وثانياً: شرحتُ مبادىء الإسلام شرحاً وافياً قدر ما استطعتُ. وبينت ماذا تعني الطريقة الإسلامية للحياة ، وكيف أنها أفضل من الطريقة الغربية في كل زاوية من زوايا الحياة.

وثالثاً: قدّمت الحلول الإسلامية العملية للمشكلات العويصة التي

كان يَعتقِدُ حتىٰ المخلصين من المسلمين أنه لا حل لها إلا باتباع الغرب في تقبل ما يقدّمه من الحلول.

وقد كان من نتائج هذا العمل أن أصبح ملايين المسلمين في شبه القارة الهندية من جميع طبقات الناس يشاركونني في ضرورة إقامة دولة إسلامية.

وقد تُرجم إلىٰ العربية خمسة وعشرون كتاباً من مؤلفاتي بالأردية، الأمر الذي جعل كثيراً جداً من المسلمين العرب يؤيدون أفكاري وآرائي. فأحمد الله علىٰ كل هذا وأشكره. ولكن من سوء الحظ أنّه لم ينقل إلىٰ الإنكليزية مما كتبته حتىٰ الآن إلا نزر يسير، فإذا استطعتِ أن تتعلّمي الأردية، فسوف تساعدك مؤلفاتي علىٰ ما تريدين أن تعمليه من أجل الإسلام في أمريكة.

منذ عام ١٩٤١ م تأسست منظمة في القارة الهندية باسم الجماعة الإسلامية. وهي تعمل منذ ذلك الوقت جاهدةً من أجل نشر الأفكار التي عرضتها في مؤلفاتي. وبعد انقسام الهند في عام ١٩٤٧ م انقسمت الجماعة المذكورة إلىٰ قسمين: الجماعة الإسلامية بالهند، والجماعة الإسلامية بباكستان، وقد منعت الجماعة الإسلامية بباكستان مع الأحزاب الأخرىٰ السياسية عندما أُعلن الحكم العرفي من قبل الرئيس أيوب خان في عام ١٩٥٨ م.

أما الجماعة الإسلامية بالهند فهي مستمرة في عملها حتىٰ الآن تحت رئاستها المستقلة.

وقد ذكرتُ لك هذه القصة حتىٰ يترسّخ في ذهنك أنَّ الحصول علىٰ نتائج إيجابية يتطلب من المرء أن يواصل جهاده لسنوات كثيرة بصبر

وأناة. أضيفي إلى هذا أن النجاح في أية غاية نبيلة كما أنه يتطلب من الإنسان أن يتجهز بالكفاية الفكرية ، كذلك يجب عليه أن يكون مثالاً صالحاً في الأخلاق والسلوك.

إنَّ العمل من أجل الإسلام طريقٌ وعرٌ كله. إنك في البداية حتىٰ الآن. إنني أدرك تماماً صعوبة العمل الإسلامي ، وفهمتُ بكلٍّ وضوح المسؤوليات الملقاة علىٰ عاتقكِ ، أنصحكِ بأن تستعيني بالله العظيم ، وتحاولي القيام بجميع الواجبات. إنه جل وعلا قد اختارك لنعمته ، فبقدر ما تكونين جادة ومخلصة في جهودك بقدر ما تستمدين القوة والعون من الله بطرق ووسائل لا تخطر علىٰ بالنا.

أعترف أني ـ مع سوء صحتي ـ مضطر للقيام بأعمال متعددة. أحتاجُ يومياً إلىٰ قراءات كثيرة وكتابات طويلة ، وكل يوم أستلم رسائل من أناس كثيرين ، كما يأتي إليَّ أناسٌ كثيرون للزيارة. فإن تأخرتُ في الإجابة علىٰ رسائلك فلا تتأثري ، واستمري في الإخبار عن أحوالك ونشاطاتك.

إنني مهتم جدّاً بجهدك وجهادك في سبيل الإسلام. أريد أن أنشر في مجلتي الشهرية (ترجمان القرآن) مقتطفاتٍ من مقالاتك ورسائلك بعد حذف التفاصيل الشخصية. آمل أنك لا تعارضين في هذا. وهل لي في النهاية أن أسأل عن اختياركِ اسماً إسلامياً؟

مع السلامة والتمنيات الطيبة.

المخلص

أبو الأعلىٰ

(٥)

حضرة الشيخ المودودي نيويورك ٢٩/ ٥/ ١٩٦١ م

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

لقد كنتُ بالغةَ السرور بتلقي كتابكم المؤرخ في العشرين من شهر مايو ، إذ علمتُ أنكم تتماثلون للشفاء ، آمل أن تعود إليكم صحتكم عاجلاً .

لكم الخيار التام في نشر أي جزء من رسائلي أو مقالاتي في مجلتكم الغراء (**ترجمان القرآن**) إنَّ الرسائل التي وردتني تعليقاً علىٰ القصة القصيرة ، لم يكن من بينها إلاّ كتابكم الوحيد الذي كان يحمل تشجيعاً لما أردتُ أن أعبّر عنه في القصة .

والقصة ـ كما ذكرتُ لكم سابقاً ـ عبارة عن الحلقة الأخيرة لرواية (أحمد خليل) وهي ترجمة حياة لمهاجر عربي فلسطيني ، بدأتُ في كتابتها منذ أغسطس ١٩٤٩ م حينما كنتُ في الخامسة عشر من عمري .

الفصل الأول : من الرواية : يبدأ الحديث فيه عن طفولة أحمد خليل في قرية صغيرة بجنوب فلسطين ، وعن بيته وبيئته وأعضاء أسرته ، وينتهي بذكر المأساة المفجعة التي حلّت به وبأسرته ، إذ أُخرجوا من ديارهم أيام الحرب الفلسطينية في ١٩٤٨ م ، وهدّمت القرية بأسرها ، بل قُضي علىٰ كامل نظام الحياة فيها باستخدام القوات العسكرية الصهيونية الهائلة .

أما الفصل الثاني ، فيبدأ النصفُ الثاني منه بأن أحمد خليل (الذي كان قد بلغ الثامنة عشر من عمره وتزوّج منذ سنتين) يقرر مغادرة

مخيمات اللاجئين من دون إذن من الحكومة ، فيجمع الحوائج المتبقية لعائلته ، ويسافر للحج ، وينوي البقاء بالمدينة المنورة إلىٰ أن يحين وقتُ العودة إلىٰ فلسطين .

أما البقية الباقية من الرواية ، فإنّها تدورُ حول ابن عمه (راشد) الذي كان رفيق سفره ، وصديق حلّه وترحاله ، وحول أخيه الصغير (خليفة) الذي كان مصاباً في عقله ، وابنه الوحيد (إسماعيل) الذي كان في حالة شك وعنف متزايدين علىٰ مر الزمن ، وحول (عبد الرزاق) الطالب الكفيف بالأزهر الذي كان قد كفله (أحمد خليل) فكان راحةً لقلبه وسكناً لروحه الجريحة .

الحلقة الأولىٰ من الرواية تؤكد ما عليه المادية الغربية من الأخطار الوحشية ، متخفيّة تحت شعار الإمبريالية الصهيونية وأهدافها ، كما أنَّ الحلقات الأخيرة تؤكد ما لصناعة الزيت في السعودية من الأضرار البالغة والآثار السيئة علىٰ الحياة اليومية .

وفي آخر القصة النهاية لهذه العائلة المسلمة العربية .

إنّ كتابي يعبّرُ عن النظريات والأفكار التي أودعتموها في كتبكم ، إلا أنها مصاغة في رواية . ولأسباب واضحة (من دون النظر إلىٰ براعة الأسلوب أو عدمه) فإنّ الرواية سوف لا تلقى الرواج هاهنا ، ولا أعتقدُ أنها تحظىٰ بالموافقة علىٰ الطبع من قبل الناشرين الأمريكيين .

إنني الآن علىٰ أتمّ استعداد لإخراج كتاب باسم (الإسلام محارَب من الخارج والداخل) ، وهو عبارة عن مقتطفات من الدعاية العدائية ضد الإسلام . وليس غرضي مجرّد العرض المفصل للهجمات التي يتعرّض لها الإسلام في جميع نواحيه من قبل المستشرقين الغربيين والمسلمين

المتفرنجين. أريدُ فوقَ كل هذا ، الكشفَ عن عقلية خصومنا ، فإنّه لا يفيدُنا مجرد توجيه الاتهام إليهم ، ولكن لتكون حربنا ضدهم مؤثرة ، فإنّه يتحتّم علينا أن نفهمهم ، وندرك كيفية تفكيرهم.

علم النفس من الموضوعات الساحرة الجذابة ، فأريدُ أن أستخدمه هنا لأعلم علىٰ وجه التحديد ما يحرّضهم علىٰ صنع ما يصنعون. المؤلفون الذين أريد النقل عنهم هم السادة: ولفرد كانتول سميث. مدير المعهد الإسلامي بجامعة ميك جيل في كندا ، وح ج ويلز المؤرخ الإنكليزي الشهير ، وآرنولد تونبي ، وليام دوغلاس القاضي حالياً بالمحكمة العليا في أمريكة ، وجوليان هكسلي عالم الأحياء ومدير اليونسكو سابقاً من ١٩٤٦ م إلىٰ ١٩٤٨ م ، وألبرت سوتيزر ، والسيدة إيليزروزولت ، وجون سي باديو الأستاذ سابقاً بالكلية الأمريكية بالقاهرة والسفير الأمريكي حالياً في مصر.

أما المسلمون المتفرنجون الذين لابد أن يشملهم نقدي ، فهم: ضياء آلب تورك ، والدكتور طه حسين ، وآصف أ؟؟ ، فيفي نائب رئيس جامعة كشمير. وسوف يكون كل مقتطف مسبوقاً بكلمات تعريف ، كما سيتبع كلاً من المقتطفات تعليق مفصل. أما بداية العمل فتكون مقدمة طويلة ، وتنتهي بخاتمة موجزة واضحة.

لقد قرأتُ هذه الأيام كتاباً ينور العقول ، للراحل محمد علي ، الرئيس السابق للحركة الأحمدية اللاهورية وقد عنونه (يأجوج ومأجوج المناهضان للمسيح) ذكر فيه أسباب اهتمام الرسول ﷺ بسيطرة الحضارة الغربية المادية في الأحاديث التي وردت عنه ﷺ.

وفي اعتقادي أنّ المساعدات التكنولوجية للنمو الاقتصادي في

البلدان المتخلفة لا تعني أكثر من أنها حيلة لنشر الحضارة المادية الغربية.

وكان الرسول ﷺ مدركاً هذا كلّه إدراكاً دعاه يقول عن الدجال: إنه يعطيهم الطعام، ولكنه يجعل منهم كفرة.

والمؤسف في الأمر أنّ المؤلف قضىٰ علىٰ كلّ ما كتبه بما قاله في النهاية من أن الميرزا غلام أحمد القادياني كان الإمامَ المهدي الموعود.

منذ عدة أشهر كنتُ أحاول الاتصال بالأستاذ سيد قطب، الذي أنتم تعرفون عنه أكثر وأحسن من أي شخص آخر، إنه مسجون بأمر من عبد الناصر، منذ أن حلَّ جماعةَ الإخوان المسلمين في عام ١٩٥٤ م. إنّه لم يتمكن من الكتابة إليّ بنفسه، ولكني اليوم استلمت كتاباً جميلاً من أخته أمينة قطب، التي ذكرت في كتابها أنّ رسائلي كانت تُرْسَلُ حين وصولها إلىٰ أخيها في زنزانته، وأنَّها كتبتْ بالنيابة عنه.

سيد قطب الذي هو عالم ومؤلف لعديد من الكتب مُعْجَبٌ بكم كثيراً، ونصحني بقراءة مؤلفاتكم. كم من المؤلم أن يكون الإسلام مضطهداً في البلدان المسلمة أكثر منه في غيرها من البلدان؟!.

تجدون بصحبة الكتاب نسخةً من النشرة التي تتولّىٰ إصدارها الكنيسة المحلية الموحِّدة التي يريد أبواي وأختي الكبيرة الالتحاق بها كأعضاء. أنا كنتُ حتىٰ الآن أظنّ أنّ الكنيسة الموحدة تضمُّ المسيحيين الذين يرفضون التثليث وتأليه المسيح، ويحترمونه رسولاً، ويؤكدون وحدانية الله سبحانه وتعالىٰ. ولكن علمتُ فيما بعدُ أنَّ الكنيسة التي يريد أبواي وأختي الانتماء إليها تعلنُ عن أفكار لا تختلف عن فكرة اللاأدرية البشرية الناشئة عن الحركة الثقافية الأخلاقية.

قبل خمسة أيام (بعد صلاة عيد الأضحىٰ) أعلنت إسلامي ، ونطقت بالشهادتين أمام اثنين من أصدقائي المسلمين. وبذلك أصبحت مسلمة بكل ما تعني الكلمة من المعنىٰ ، ثم حصلت علىٰ الشهادة الصادرة من منظمة الدعوة الإسلامية الأمريكية في بروكلين بتوقيع الشيخ داود أحمد فيصل. وقد أصبح اسمي الجديد (مريم جميلة) الذي به أوقع في المستقبل جميع رسائلي وكتاباتي. ولكنَّ أبي وأمي لا يرغبان في مخاطبتي باسمي العربي ، كما هو حال الآخرين من الأسرة ، فأنا لن أصرَّ عليه عند الحديث معهم ، ولكني سوف أستعمله لكم ولجميع إخواني وأخواتي في الإسلام ، إذ إنني فخورة به جداً ، وآمل أن تكون صحتكم في تحسن مستمر.

أختكم في الإسلام

مريم جميلة

(٥)

الآنسة مريم جميلة **لاهور ٢٠/٦/١٩٦١ م**

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وصلني كتابكِ المؤرّخ في التاسع والعشرين من شهر مايو. ولقد غمرتني فرحةٌ قلبية إذ أصبحتِ عضواً في أسرة الأخوة الإسلامية العظيمة بنطق الشهادتين ، وقد اخترتِ لك اسماً إسلامياً. كلّ ما حدث كان نتيجة طبيعيةً لأفكارك وإيمانك الراسخ. أدعو الله بكلِّ خشوعٍ أن يتقبل إخلاصَكِ ، وأن يهبكِ القوة لتعيشي وتعملي للإسلام ، والشجاعة الكافية لمواجهة التحديات المحيطة بك بعزم وثبات.

أشكركِ علىٰ اهتمامك بصحتي ، وأشكر الله وأحمدُه علىٰ أنَّ صحتي تحسّنت وعادت كما كانت في الماضي. أريدُ أن أبدأ سفري إلىٰ إفريقية في شهر يوليو إن شاء الله ، أشكرك أيضاً علىٰ السماح لي بنشر مقالاتك والمقتطفات من رسائلك ، أعتقدُ أنها تفتح عيون الشبان المسلمين في هذه البلاد ، وأنها تجلبُ انتباههم في الوقت الذي يحاولون أن يُذيبوا أنفسهم في بوتقة الحضارة الغربية برغم ولادتهم في بيئة مسلمة. فإني أرىٰ أنهم إذا سمعوا عن امرأة شابة ولدت في بيت يهودي بروتستانتي في أمريكة الحديثة ، وظلت تكافِحُ من أجل الوصول إلى الحقّ والصدقِ ، فلمّا وصلت إليه وتشرَّفت بالإسلام ، فإنّها تحاول الآن أن تطبّقه في حياتها. أملُ أن يكونَ هذا كله درساً مفيداً لهم.

أرجو أن ترسلي لي نسخةً من روايتك (أحمد خليل) سوفَ أحاول أن أجد الوقت لقراءتها ، ومن ثَمَّ دفعها إلىٰ شركة المطبوعات

الإسلامية المحدودة بلاهور ، فإنّه يسرني جدّاً أن يوافقوا علىٰ طبعها .

المقتطفات العدائية (لبعض المؤلفين) ضد الإسلام التي تريدين نشرها ، لا شك أنها تكون مفيدةً جداً ، ومنوِّرةً للأذهان.

هناك حقائق عديدة ينبغي أن لا يفوتك ذكرها :

الحقيقة الأولىٰ : أن الشيوعية في الشرق ، والديمقراطية في الغرب اتّحدتا في العداء ضد الإسلام .

والحقيقة الثانية : أنه إذا حدث ابتعادُ المسلمين أو انفصالهم عن الإسلام ، فإنّ صوتاً عالياً مدوياً يرتفع في الأوساط الغربية ، فيقع المسلمون العصريون حتىٰ الشجعان والمقدامون منهم في فخ المغالطات ، وفي نظر هؤلاء النقاد الغربيين فإن الانفصالَ عن الإسلام يعني «التنوُّر» و«التقدم» ، بينما نجد المسلمين العصريين في حماس متزايد في إصلاحاتهم نتيجة تفكيرهم المتواصل حتىٰ يكسبوا تصفيقاتِ المعجبين بهم . ولكنَّ الذي يتبعه هو سيل من الاستياء والامتعاض من جماهير المسلمين في بلدهم .

الحكام يناصبون العداء السافر ضد المحكومين ، ونتيجة لهذا الصراع الداخلي المستمر نجد الدول الإسلامية فاقدة الحيوية والنشاط . والنتيجة الأخرىٰ لمثل هذا التصرف غير المعقول هو أنّ الدول التي تسمي نفسها «الكتلة الحرة» تجعل خطوطها الدفاعية ضد الشيوعية واهية غير محصنة . فأخذت الشيوعيةُ تضطهد عموم المسلمين في البلاد التي اجتاحتها . ولكنّ الفوضىٰ التي تريد الدول غير الشيوعية أن تنشرها بين الأوساط المسلمة تهدف في بادىء الرأي إلىٰ سقوط الدول الإسلامية .

إن المسلمين المخلصين لا يرون فرقاً بين الكتلتين القويتين ، بل يرون أنفسهم أمام حقيقة ماثلة ، وهي أن هدفهما واحد .

إنَّ الاشمئزاز السائد وردَّ الفعل القوي بين أغلبية الشعوب المسلمة جعل الاتحادات السياسية بين حكام البلاد المسلمة زائفةً حيث فقدت معانيها السامية .

والآن ألتفتُ إلىٰ استفسارك عن الدجّال . إنَّ كلمة (الدَّجَل) بالعربية تعني الخداع والاحتيال . وعلىٰ هذا ، فإن كل فرد ، أو جماعة ، أو قوم ، تتخذُ في حياتها سبلَ الخداع ، والاحتيال تسمّىٰ دجالاً . ولكنّ الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ تدل على أنَّ الدجال شخصٌ معين[1] ، وأنه يتسبب ـ كما جاء في السنة ـ بمصاعب واضطهادات شديدة للمسلمين المخلصين .

وإنني عندما أنظر إلىٰ تلك الأحاديث الواردة في الدجال ، أجدني منساقاً إلىٰ الاعتقاد بأنه لم يخرج بعد ، ولكني أظن أنه حانت الساعة التي تتحقق فيها هذه النبوءة ، وأن ظهوره يكون في أرض فلسطين .

لقد سُررت جداً بما علمتُ من صلتك بسيد قطب وأقاربه . وإنني وإن لم أتمكن حتىٰ الآن من لقائه ، ولكنَّ كلَّ واحد منا يعرف الآخر جيدّاً ، لقد أرسل إلي مؤلفاته من السجن ، والتقيت بأخيه محمد قطب عندما زرت القاهرة في عام ١٩٦٠ م .

إنَّ الامتحان بالنار والسيف ، الذي يمر به الإخوان ، والذي هو واقع المسلمين المخلصين في كل مكان ، لا يوقعك في الحيرة

---

(١) رواه مسلم (٢٩٣٧).

والاستغراب. إنَّ المسلم عندما ينشأ ويترعرع في الجو الذي يسوده الكفر، ومن ثَمَّ يمسك بيده راية الكفر، فإنه يسلك سبيل الظلم والاضطهاد في المعاملة مع شركائه في الدين، ويمارس أعمالاً اضطهادية يتجنبها غير المسلمين في معاملتهم مع المسلمين، ولكنّه لا بدَّ أن يأتيَ الوقتُ الذي يحصد فيه المرء ما زرعه إنْ عاجلاً أو آجلاً.

أسأل الله لك تقدّماً سريعاً علىٰ درب الإسلام

المخلص

أبو الأعلىٰ

(٦)

نيويورك ١١/ ٧/ ١٩٦١ م

حضرة المكرم الشيخ أبو الأعلى المودودي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أشكركم على رسالتكم المؤرخة في العشرين من شهر يونيو ، وأنا مسرورة خاصة بما سمعت من أن صحتكم قد عادت إلى حالتها الطبيعية ، وهذا يعني أنكم سوف تستطيعون القيام برحلتكم إلى البلدان الإفريقية. هذه الرسالة أبعثها إليكم بالبريد السطحي ، إذ إنني لا أتوقع الإجابة منكم إلا بعد عودتكم إلى مدينة لاهور في شهر سبتمبر.

المعلومات التي جمعتُها خلال مطالعاتي ، تفيد بأن إفريقية بقعةٌ مشرقة على الخارطة بالنسبة لنجاح الأعمال الإسلامية في المنطقة. وبالأخص بلاد نيجيرية ، التي تعيش هذه الأيام تحت زعامة أحمدو بيلّو ، وأبو بكر تفاوا بليوا. إنَّ الإسلام ينتشر فيها الآن بسرعة عجيبة ، حيث نجد عباد الأصنام يدخلون في المسيحية ، ثم يتحولون إلى الإسلام.

المبشرون الكاثوليك والبروتستانت يحصلون على أموال هائلة ومساعدات عظيمة من الدول الغربية. وقد احتكروا التعليمَ والعلاجَ والأعمالَ الخيرية منذ قرابة قرن كامل ، ومع كل هذه الجهود المضنية لم يستطيعوا إلا جلب عدد قليل جدّاً حيث يمكن عدّهم بأصابع اليد ، بينما لا تمرُّ أسابيع قليلة أو أشهر عديدة إلا ونجد قرى تدخل في الإسلام عن بكرة أبيها.

قبل أيام قليلة ، نشرت مجلة (نيوزويك تايمز) مقالةً ذكر فيها المراسل مقابلات أجراها مع عدد من المبشرين التابعين لكاثوليك الروم المقيمين في مدينة من مدن نيجيرية ، قالوا فيها: إنّ معظم الأفارقة الذين نصّروهم في الماضي ، نراهم الآن يحضرون المساجد المحلية ، ويصومون رمضان.

أعتقد أنَّ أحدَ الأسباب المهمة لهذا التحول السريع إلى الإسلام هي التفرقة العنصرية الموجودة لدى المسيحيين ، وأن جميع كنائسهم معزولة جدّاً ، بينما يشاهد الأفارقة في المساجد أنه مرحَّبٌ بهم فيها ، ويشعرون كأنهم في بيوتهم وبين أهليهم.

إنّ الدعوة الإسلامية في أمريكة إذا حظيت بانتظام فعال ، فلا شك أنها ستجد أرضاً خصبةً بين عشرين مليون نسمة من الزنوج ، وبالأخص فقراؤهم والمتعطلون والمحتقرون والمنبوذون الذين يكوِّنون أقليات خطيرة في نيويورك وشيكاغو.

المقتطفات العدائية ضد الإسلام التي جمعتها ، جعلتُ مِنْ بينها افتتاحيةً لمجلة (إسلامك ريفيو) التي تثني على حملة الرئيس الحبيب بورقيبة ضدَّ رمضان ، أنا أرى أنها خيانة لا تغتفر ، وعمل مخزٍ.

معظم الذين شاركوا في كتابة المقتطفات التي جمعتُها ، لهم صلة بالجامعة الأمريكية في بيروت أو القاهرة. إنَّ الجامعتين المذكورتين يعملان لحساب التبشير البروتستانتي ، وإنّهما وإن لم ينجحا إلا في إدخال عدد قليل جدّاً من المسلمين في الديانة المسيحية ، ولكنَّ الواقع الذي لا يكذبُ أنّهما استطاعتا أن توجدا أفكاراً عدائية في أذهان الطلبة المسلمين الذين أخذوا يفضّلون الحياة الغربية على الحياة الإسلامية.

وفي اليوم الثاني التقيت طالباً سعودياً يعمل للحصول على درجة الماجستير في مجال التعليم من جامعة كولومبية ، وقد سبق أنْ حصلَ على شهادة البكالوريوس من الجامعة الأمريكية في بيروت. أخبرني هذا الأخ أنَّ جميع الطلبة المسلمين عليهم أن يحضروا الصلاة المسيحية التي تؤدَّىٰ في كنيسة الجامعة. والذين يرفضون الذهاب إليها عليهم أن يختاروا البديل ، وهو دراسة مادة الأخلاق المسيحية.

بعد أن تعلّمتُ الضرب على الآلة الكاتبة في معهد تجاري ، كنتُ أعتقد أنني لن أجد صعوبة في الحصول على وظيفة سكرتيرة. وقد ذهبتُ بحثاً عن العمل أولاً إلى مركز الإعلام العربي ، وكنتُ أظنُّ أنَّ حبِّي الشديد للإِسلام وللبلدان الناطقة بالضاد سوف يكونُ شفيعاً لي لديهم ، ولكنّهم ما إن علموا أنني كنت يهودية ، وقد اخترتُ الإِسلام ديناً ، وأنني لا أتعاطفُ مع الرئيس جمال عبد الناصر ، ولا أؤيد قوميته العربية ، ما إن علموا هذه كلها ، حتى قابلوني ببرودٍ وفتورٍ ، فلم أفكر في الذهاب إليهم مرة أخرى.

ومرة أخرى زرت (مركز الأصدقاء الأمريكان للشرق الأوسط في نيويورك) فوجدتُ خلف طاولة الاستقبال بنتين شابتين من أمريكة أخبرتاني أنهما تريان الأديان التقليدية أشياء مهجورة ، وأنَّ العرب لا يمكن أن يحظَوْا بالحياة الراقية وبالنمو الاقتصادي إلا إذا خلعوا رِبْقة الإِسلام عن أعناقهم كما تخلع الثياب البالية عن الأجسام.

لقد اكتشفت أنَّ المنظمات الموجودة في نيويورك التي تُعنى بقضايا الشرق الأدنى ، إمّا أنها تسيطر عليها الصهيونية والتبشير المسيحي ، أو أنها مؤسسات تجارية محضة.

وفي يوم آخر مررت بالمركز التجاري التونسي في نيويورك ، فجذب انتباهي معرض السجاجيد اليدوية والصواني النحاسية الموضوعة بداخل الشباك . فقررت الذهاب إلى الداخل لألقي نظرة على الأشياء الموجودة في ذلك المكان. أنا لم أُصدَم في حياتي بمثل ما صُدمتُ به في ذلك اليوم ، إذ لم أر في المكان إلا خزائن طويلة من الأرض إلى السقف ، كلها مملوءة بقوارير معبأة بأنواع الخمور . وقد سألت المرأة الجالسة خلف الطاولة الأمامية عما إذا كانت هذه الخمور من إنتاج تونس المتحررة ، فأجابت بأنَّ إنتاج هذه الخمور على نطاق أوسع للاستعمال المحلي وللتصدير إلى الخارج دليلٌ واضح على الرقي الاقتصادي الذي كان هدية الرئيس الحبيب بورقيبة لبلاده . وقالت : إنَّ الإِسلام يُعتبر من الآثار القديمة للعصور الوسطى ، وقد استُبْدِلَ بما هو أفضل منه ! !

وقد لاحظت أن لهجة المرأة فرنسية ثقيلة ، فسألتها عما إذا كانت فرنسية ، فأجابت بقوة أن نعم. وأضافت قائلة : إنّها متعاقدة مع الحكومة التونسية ، لأنّ الرئيس بورقيبة يرغب في تقوية أواصر الصداقة مع فرنسا .

وفي مساء هذا اليوم أريد الذهاب إلى جامعة نيويورك التي كنت في يوم من الأيام طالبة فيها ، وذلك للحديث مع طالب فيها كان يهودياً ودخل في حظيرة الإِسلام منذ أسبوعين ، فلما علمتْ أمه أنه أسلم ، أخذته حالاً إلى الكنيس ، وهناك أكرهه الحاخام على الارتداد إلى اليهودية ، ولم يجد الطالب خياراً أمامه ، إذ هددته أمه (أبوه متوفَىٰ) بإيقاف جميع المساعدات المالية عنه إذا استمرَّ على الإِسلام ، وهو

طالب في كلية الطب ، ولا يستطيع أن يحصل على النفقات للسنوات العديدة القادمة .

إنني أتوجه بالشكر العظيم لله سبحانه الذي لم يجعل أبويَّ ضيقي التفكير إلى هذا الحد ، ومتعصبين مثل تلك الأم .

أنا في انتظار شديد لإجابتكم في شهر سبتمبر ولجميع التفاصيل الشيقة عن رحلتكم إلى إفريقية .

أختكم في الإِسلام

مريم جميلة

(٦)

العزيزة مريم جميلة لاهور ٢٩/٩/١٩٦١ م

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

وصلني كتابك المؤرخ في ١١ يوليو قبل أيام عديدة، وبه علمنا كم من المدة الطويلة تأخذ المراسلات بالبريد السطحي من بلادك إلى بلادي.

وصلتني مخطوطة روايتك (أحمد خليل) قبل شهر واحد فقط، وهي الآن لدى شركة المطبوعات الإسلامية المحدودة. وسوف أحاوِلُ فور عودتها إليّ أن أجد الوقت لقراءتها، وإعطاءك رأيي فيها.

ولعلك تستغربينَ عندما تعرفين أنَّ الحكومة قرّرتْ فجأةً أن تحذفَ من جواز سفري أسماء البلدان الإفريقية والعربية. وهكذا أُجبرتُ على إلغاء السفر إلى إفريقية، ومنذ ذلك الوقت تردني رسائل كثيرة من تلك البلدان ومن داخل باكستان احتجاجاً على هذا الحظر الشديد على جولاتي إلى الخارج.

إنَّ الأُناس الوحيدين الذين فرحوا بهذا الخبر إنّما هم المبشرون المسيحيون والقاديانيون الذين يعتقدون في غلام أحمد القادياني أنّه رسول جديد، ويكفّرون كل رجل وامرأة لا يؤمن بكونه نبيّاً.

إنّ الإسلام ينتشر بسرعة عجيبة، رغم عدم وجود منظمة مختصة أو مساعدات مالية، ورغم المحاولات المركزة والنفقات الهائلة من قبل التبشير المسيحي. إنّ هذه الحقيقة تلقي ضوءاً كافياً على التباين الموجود بين المزايا الحقيقية للأديان.

المسيحية ضعيفةٌ إلى حدٍّ لا يدخل فيها الأفارقة إلا بفتور جدّاً ، رغم الكثرة الكاثرة من المدارس التبشيرية والمشافي والمنظمات التبشيرية. وإذا دخل فيها أحد ، فإنه يتحرر سريعاً من أوهامها ، ويتخلى عنها.

أما **الإِسلام** ، فمع كونه لا يُعْرَض عليهم بكل ما يتحلّى به من الأوصاف الجميلة ، ومع كون الأغلبية من المسلمين لا يمثّلون الإِسلام وأخلاقه ، ورغم وجود عدد ضئيل جداً من الدعاة الإِسلاميين ، فإنّ القَدْرَ الذي يعرفه عن الإِسلام أولئك الأفارقة إنما هو أثر المسلمين السذج الأميين ، عن طريق الاتصال الشخصي ، وهذا القدر كافٍ لجلب قلوب الأفارقة.

ولذلك أتوقُ إلى إعداد برنامج مدروس لنشر الإِسلام في تلك البلاد ، ولكن للأسف إنّ يديّ رُبطتا. وعلى كلٍّ ومهما يكن ، فإنني لا يمكن أن أنسى هذه المهمة ، وسوف أبذل قصارىٰ جهدي إن شاء الله لتحقيق هذه الغاية ، وإن كنتُ بعيداً في هذه البلاد.

وليس لك أن تستغربي من تأييد مجلة (إسلامك ريفيو) الصادرة في (ووكنك) للحبيب بورقيبة بعد أن علمتِ المدرسةَ الفكرية التي تنتمي إليها المجلة المذكورة. إنّهم أشخاص من بلادي ، ونعرفهم جيداً. إنّهم ينتمون إلى جماعة اللاهوريين من أتباع غلام أحمد القادياني ، الذي تجرأ بكل وقاحة بادعاء النبوة الكاذبة ، الهيئة المركزية لأتباعه تُعلن في صحفها باستمرار أنّ الميرزا كان نبياً ، وأنَّ الذي ينكر نبوته يكفر ، ورئيس هذه الهيئة هو الميرزا بشير الدين محمود بن الميرزا غلام أحمد المتنبىء.

الذين يشرفون على مجلة (إسلامك ريفيو) الصادرة عن مسجد وكنك بإنكلترة يحرصون دائماً على التصريح بأن الميرزا كان رسولاً ، وإنما يقولون: إنه نبيٌّ بلغة الاستعارة ، وينعتونه بالمسيح الموعود والمجدد والمهدي.

إن الفئتين الاثنتين كانتا تحظيان برعاية الدولة البريطانية مدة استيلائها على القارة الهندية الباكستانية غير المقسّمة ، وقد تمتع أتباعهما بتأييد خفي ، وحماية إيجابية ، وتشجيع من قبل الإمبريالية البريطانية. وكوفئوا في داخل البلاد بمناصب قيادية ، وفي خارجها كانوا خُداماً مطيعين وأوفياء للإمبراطورية البريطانية.

وكانت الدولة البريطانية تتغاضى عن دعايتهم الإسلامية ، لأنّها كانت غير ضارة ، بل كانت نشاطاتهم قناعاً مؤثراً وستاراً كثيفاً للخدمات الصامتة الكثيرة التي كانوا يقومون بها لصالح الإمبريالية البريطانية.

مولانا محمد علي الذي ترجم معاني القرآن الكريم إلى الإنكليزية ، كان زعيم الطائفة الأحمدية اللاهورية ، وهو الذي أسس (الاتحاد التبشيري والأدبي في ووكنك) بإنكلترة ، وهو يصدر مجلة (إسلامك ريفيو).

هؤلاء لا يدّخرون جُهداً في التظاهر بأنهم متنورون ومتطورون ، وأنهم تقدميون ومتحررون ، وفق المستويات الغربية. ولذلك يهتفون بحماس لكلِّ خطوة نحو تجديد الإسلام في باكستان أو في أي بلد إسلامي آخر.

وقد تمَّ حديثاً إدخال تعديلات على قانون الأحوال الشخصية في

باكستان حتى يصبحَ مقبولاً لدى النُقاد الغربيين ، الذين يصفّق لهم المشرفون على مجلة (إسلامك ريفيو).

إن ما ذكرته عن الجامعات المسيحية في بيروت والقاهرة صحيحٌ تماماً. ولعلّه يهمك أن تعرفي أن المدارس والكليات المسيحية في باكستان تقوم بالمهمة نفسها منذ قرن ونصف قرن.

الطبقة العليا والأغنياء والموظّفون الحكوميون الذين يتمتعون بمناصب كبرى يعهدون بأولادهم عندما يبلغون الخامسة أو السادسة من العمر إلى هذه المعاهد. هؤلاء الأولاد يتعلّمون المحادثة بالإنكليزية قبل الأُردية ، وأكثرهم لا يقدرون أن يتكلموا أو يكتبوا بلغاتهم الوطنية. إنّهم منفَّرون تماماً عن عقيدتهم ، ومن المثل الأخلاقية. إنهم يحتفلون بعيد الميلاد المسيحي ، ويجهلون الأعياد الإسلامية ، إنهم يجهلون حتى الأمور البدهية عن الإسلام ، وعندما يكبرون يصبحون زعماء لنا وحكاماً وبناة مستقبلنا.

إن نظام التعليم الأهلي في بلادنا الذي ورثناه عن بريطانية ليس أقل خطورةً ودماراً ، فالمدارس الحكومية وإن كانت لا تحوّل المسلمين إلى مسيحيين ، ولكن النتائج الماثلة للجو الدراسي الذي هو مادي علماني لا تظهر إلا في صورة الجهل واللامبالاة وعدم الشعور بالمسؤولية. ولكن رغم كل هذا ، الأغلبية من شبابنا المثقفين يظلون متعلقين بدينهم.

ولأنك دخلتِ في هذا الدين حديثاً ، فعليك أن تعرفي الأسباب الحقيقية لماذا يحبُّ بعض المنتسبين إلى الإسلام أن يكونوا عصريين

خارجين عن الإسلام ، ولماذ ألسنتهم وأقلامهم تخدم مبادىء الكفر وأهدافه؟!

أنا قلق جدّاً لما تواجهينه من المتاعب ، وأدرك تماماً المحنَ التي يتحملها الرجل أو المرأة التي تدخل في الإسلام في بلد الكفر. بل المرأة تواجِهُ متاعب مضاعفة آلاف الأضعاف عن تلك التي يواجهها الرجل. وقد علمتُ من تجاربك القاسية ، كم يتمتع هؤلاء الغربيون بالتسامح وسعة التفكير؟! وقد واجهت أيضاً نوعية الأشخاص الذين يمثلون البلدان الإسلامية في الخارج.

أنا أعلم أنك ستواجهين في المستقبل مصاعبَ شديدة أخرى ، ولكني أعتقد أنّ هذه التجارب سوف تجعلك تقفين راسخة في هذه الدنيا ، وسوف يكون لك أجر عظيم من الله في الآخرة.

وأرى أنك لو قبلتِ دعوتي للمجيء إلى لاهور ، لكنتِ تخلّصت من كثير من هذه المتاعب ، وكان بإمكاني أن أساعدك بكلِّ السبل الممكنة ، بل الذي أريدُ أن أقوله الآن: إنّك إذا كنت تعتقدين أني أستطيع أن أساعدك في أمريكة فكوني صريحة ولا تترددي ، وسوف تجدينني أعمل لك كل ما أستطيع أن أعمله.

أدعو الله أن يمدك برحمته الواسعة ، وأن يهبك الصبر والثبات.

مع تحياتي لك.

أخوك في الإسلام

أبو الأعلى

(٧)

صاحب الفضيلة الشيخ المودوي نيويورك ٨ / ١١ / ١٩٦١م

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

أشكركم على رسالتكم المؤرخة في ٢٤ أكتوبر.

لقد سرني كثيراً أنكم لا توافقون على أسلوب الاعتذار والجدل، مثلما أنا لا أوافق. عندما بدأتُ في قراءة المطبوعات الإسلامية المتيسرة بالإنكليزية في عام ١٩٦١ م، طلب مني أصدقائي المسلمون المتعاونون معي، وشجعوني على قراءة كتاب (روح الإسلام) للسير سيد أمير علي، ففعلتُ ذلك، وعندما انتهيت من قراءته، أيقنتُ أنّه من أسوأ الكتب التي قرأتُها عن الإسلام في حياتي. ولقد استغربَ أصدقائي المسلمون من هذه النتيجة السلبية، ولم يستطيعوا أن يفهموا سبب عدم إعجابي بالكتاب.

خذ على سبيل المثال، مسألة تعدد الزوجات، فإنّ المسلمين، وحتى أمثال الدكتور هويلة الذي يديرالمركز الإسلامي في واشنطن، قال لي: إن الإسلام يسمح بتعدد الزوجات في ظروف استثنائية نادرة. بعض العصريين يُبعدون النجعة، ويفسرون الآية القرآنية التي تقول ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ١٢٩] إذا وُجدت أكثر من زوجة مهما حاولتم، بأنها منعٌ كُليٌّ لتعدد الزوجات.

وأذكر لكم مثالاً للفكرة الاعتذارية من تعليقات محمد علي اللاهوري على ترجمته الإنكليزية لمعاني القرآن الكريم. «الآية الثالثة من سورة النساء تجيز تعدد الزوجات في ظروف خاصة فقط. ويمكن

إيضاحه بأنّ الإذن لأكثر من زوجة واحدة ، جاءت تحت ظروف خاصة مرّ بها المجتمع المسلم في ذلك العصر. ولمزيد من الإيضاح ، يمكن أن يقال: إنّ تعدد الزوجات في الإسلام (نظرياً وعمليّاً) كان أمراً استثنائياً ، وليس نظاماً وقانوناً».

وأقوى دليل ضدَّ هذه السَفْسَطَة والمغالطة ، أنّه لم يذهب أحدٌ من المفسرين المعروفين للقرآن الكريم في التاريخ الإسلامي إلى هذا التفسير للآية المذكورة. حتى وقع العالم الإسلامي تحت وطأة الاستعمار الأوروبي ، لا أجدُ في القرآن الكريم ولا في الحديث النبوي ، أنّ التعددَ معصية ، أو أنه خاضع لظروف استثنائية. وفيما يلي النص القرآني: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٩] وبعبارة أخرى: لما كان الناسُ ليسوا سواءً ، ولا يشبه اثنان بعضهما بعضاً تماماً ، فلا يستطيع أحد أن يعامل عدداً من الزوجات بمشاعر وعواطف متساوية. ولكنّ الآية لا تمنعه من تعدد الزوجات بحجة أنه يحبَّ إحدى الزوجات أكثر من الأخريات. بل القرآن الكريم يأمره بالعدل والمودة لجميعهنّ ، وينصحه بأن يعاملهن جميعاً بالحسنى قدر الإمكان.

تعليقات مارمادوك بكتال على ترجمته الإنكليزية لمعاني القرآن الكريم تشرح الآية المتعلقة بهذا الموضوع بصدق أكثر ، يقول: «لا تُعْرَفُ القدسية في الإسلام بالتبتُّل. التبتل في العالم المسيحي هو الفكر الديني الصارم ، وأنَّ الزواجَ الأحادي رخصةٌ للبشرية. أمّا في الإسلام ، فإنّ الزواج الأحادي هو المثل الأعلى ، وتعدّد الزوجات رخصة لبني الإنسان. والرسول ﷺ قدّم بزواجه من خديجة مثالاً عظيماً

للزواج الأحادي ، بينما قدم مثالاً عظيماً لتعدد الزوجات أيضاً للذين يستطيعون أن يعيشوا حياة صالحة من الذين يتمتعون بالخلق والأوصاف التي تؤهلهم للتعدد».

الإسلام لم يأتِ بقانون التعدد ، بل كانت العادةُ موجودةً ، فحددها بأربع زوجات شرعية لرجل واحد ، ومنح لكل امرأة شخصية قانونية وحقوقاً شرعية ، فيجب على الرجل أن يراعي مشاعرها ، وأن يتحمّل مسؤوليته الشرعية تجاه كل امرأة.

إنّ تعدد الزوجات وعدمه في أي بلد أوحقبة من التاريخ ينبغي أن يربط بالظروف الاجتماعية والاقتصادية لذلك البلد أو تلك الفترة من التاريخ».

أود أن تطلعوا على العدد الخاص بشهرَيْ إبريل ومايو عام ١٩٦١ م من مجلة (صوت الإسلام) التي تصدر تحت رعاية جمعية الفلاح في كراتشي. فيه مقال بعنوان (العقوبات في الإسلام) لمحمد شبلي. لقد أعجبني هذا المقال لما يحتوي عليه من عرض واضح وصريح للأسباب المنطقية للعقوبات التي فرضها الإسلام ، مثل الرجم عقوبة الزنا ، وقطع اليد للسارق ، والجلد أمام عامة الناس للزاني غير المحصن ، وشارب الخمر ، تسعة وتسعون في المئة من الكُتاب المسلمين العصريين يحاولون أن يلقوا في أذهان الناس أن التشريع الجنائي للقرآن غيرُ صالحٍ لهذا العصر. وبعض هؤلاء الكُتّاب بعثوا رسائل لمدير المجلة صدرت في عدد أغسطس أبدَوْا فيها استياءهم وسخطهم على محمد شبلي ، لأنه لم يعترف بأن الأنظمة التشريعية العلمانية الموجودة في الغرب أفضل من الشريعة الإسلامية.

لقد أوضح الرئيس بورقيبة: «أنّ الإسلام حتى الآن كان يؤخذ فهمه حسب شرح العلماء، الشرح المتحجر الذي لم يتغير في القرون الماضية كلها. ولكنّه أصبحَ الآن غيرَ صالح لهذا العصر...».

وبعبارة أخرى، العصريون يريدون أن يقولوا لنا: إنَّ الأئمة والمجتهدين في القرون الاثني عشر الماضية أخطأوا في فهم المعنى الصحيح للقرآن الكريم، وإن هؤلاء العصريين هم الذين أدركوا المعنى الصحيح، هذه هي بعض الأسباب التي جعلتني أعتبر الأسلوب الاعتذاري أكبر الخيانات الفكرية والجُبُن الخلقي والبذاءة النفسية والنفاق.

عندما يقول لي هؤلاء الطلبة التقدميون: إنّ بلادهم لا يمكن أن تتحمل الأسلوب الديني حتى تتقدّم اقتصادياً، وتصل إلى مستوى أرفع في شؤون الحياة، لا يسعني إلا أن أتذكّر كلماتِ المسيح عليه السلام كما وردت في العهد الجديد عندما قال لأتباعه: «اطلبوا أولاً ملكوت السماء، وعند ذلك تُصبحُ لكم جميع الأشياء المادية...».

ولكنّ التقدميين يعكسون الأمر، فهم يؤكدون لنا أنهم إذا ملكوا الرفاهية المادية، فسوف يكون لديهم وقت أوسع للتركيز على الشؤون الروحية. ولكنّ التجارب تشير إلى أن هذا لم يحدث قط، لأن الشخص الذي يتعود على أسلوب الرفاهية المادية، فإن المادة تطغى عليه وتتغلب، حتى يظلَّ الجانب الروحي من الحياة منسيّاً كلياً.

والتعليل غير المعقول الذي يتعلق به هؤلاء الناس اتضح لي تماماً عندما قال لي معلمي للغة العربية بالمسجد الكائن في نيويورك: إنّ كمال أتاتورك منع الأتراك من أداء الحج لأن الحالة الاقتصادية للبلاد

أصبحت سيئةً ، والناس كانوا يعانون من الجوع. ولذلك لم تستطع الحكومةُ أن تسمح بإخراج أيِّ مبلغ من البلاد ، فجاء المنع نتيجة لمبررات واضحة. (حاول أن يقنعني المدرس) ، ووفقاً لروح الإسلام، لأنَّ الحجَّ فرضٌ على الذين يستطيعون إليه سبيلاً. ولكن الشيء الذي لم يذكره المدرس أن قرار أتاتورك ينصُّ على منع الحج إلى مكة فقط! أما الأسفار الأخرى للخارج ، وبالأخص إلى أوروبة الغربية وأمريكة فقد كانت مسموحة ، بل كان الناس يشجَّعون عليها بالوسائل الرسمية.

التعليم الإسلامي التقليدي من أحب الموضوعات التي تناقَشُ في الاجتماعات التي تعقد لجمعية الطلبة المسلمين في جامعة كولومبية، مثل التعليم الموجود في جامعة الأزهر ودار العلوم ديوبند والمدارس الإسلامية الأخرى. يقولون: «إنَّ الدارسين فيها يركزون على الحفظ عن ظهر قلب ، ويتصلّبون ضدّ كل أنواع التحرر الفكري وكل فكر أصيل مبدع».

إنَّ هؤلاء الطلبة لا يدركون تماماً أنَّ النقدَ الذي يوجّهونه إلى المدارس التقليدية يصدقُ عليهم أنفسِهم ألفَ مرة. أنا لا أجدُ في هؤلاء الطلبة الدارسين على نهج الغرب أي علامة للتحرر الفكري أو الفكر الأصيل المبدع. هم لا يفكّرون بعقولهم ، بل يعيدون على الطريقة الميكانيكية ما لُقِّنوه مثل الببغاوات. ولذلك رغم الحشود المتزايدة من الطلبة المسلمين في الجامعات الأمريكية ، عبثاً يحاول الإنسان أن يجد بينهم باحثاً حقيقياً.

معنى الإسلام هو الاستسلام والخضوع لإرادة الله ، ولا يمكن التقرب إلى الله من دون أن يجعل الإنسان نفسَه خاضعاً لشرع الله وأوامره في حياته اليومية. مثل هذا الإنسان لا يشك أبداً أنَّ العقل البشري غير كاف ، بعكس أحد الطلبة في جامعة كولومبية ، فقد قال لي: إنّ أكل

الخنزير مباح للمسلمين الآن ، لأن الذين يربّون الخنازير هذه الأيام يعلمون جيداً طرق تربيتها صحيّاً ، وعلى هذا زال خطر الأمراض!

المسلم الصحيح لا يرفضُ أيَّ حكم وردَ في القرآن ، كما أنه لا يمكنُ أن يبقى وثيقَ الصلة بالحياة العصرية . إنَّ هدفه الأسمى في هذه الحياة أن يعيشَ كما يريد منه الله سبحانه ، ولا يحزنه شيءٌ أكثر من أن يُغْضِبَ ربه . هو لا يعتبر التقيد بالشريعة الإسلامية ثقلاً عليه ، بل يحس بالمتعة ، وأرى أن اليهودية التقليدية والإسلام يلتقيان في هذه النقطة العامة . اليهودي العابد يتلو يومياً في المعبد الأحكام الآتية من شريعة موسى عليه السلام .

«أنت تحب مولاك إلهك بكل قلبك ، بكل روحك ، وبكل قوتك . وهذه الكلمات التي أنا آمرك بها (يا موسى) تكون على قلبك . أنت تعلمهنّ بكل اجتهاد الأولاد ، وتقرأهنّ عندما تكون جالساً في بيتك ، عندما تكون في سفر ، عندما تجلس ، وعندما تقوم . أنت تربطهنّ كعلامة على يدك ، وهي تبقى عصابة للجبين بين عينيك . أنت تنقشهُنّ على واجهة بيتك وعلى الأبواب» (سفر التثنية ، ٦ / ٤ ـ ٩) .

بينما تجد العصريين بدل أن يخضعوا لله سبحانه ، يتوقعون من الله أن يخضع لهم . تجدون بصحبة الرسالة ، كلمة التحرير الصادرة في يوليو ١٩٦١ م بمجلة (النظرة الإسلامية) وقد تضمنت الثناء على القرار الجديد لتشريعات الأحوال الشخصية الباكستانية . أرجو إبداء آرائكم فيها .

أختكم في الإسلام

مريم جميلة

(٧)

المكرمة مريم جميلة لاهور ١٦ / ١٢ / ١٩٦١م

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد:

أشكرك على رسالتك المؤرخة في نوفمبر ، كما أشكرك على الكلمة المرفقة بها عن القرار الخاص بالتشريعات المتعلقة بالأحوال الشخصية في مجلة «النظرة الإسلامية».

وقد استلمت في ظرف مستقل مسودة مقالك (معنى التصوير وأهميته).

قرأتُها بكل عناية ، وأوافقك على كل كلمة وردت فيها. لقد منع الرسول ﷺ التصويرَ على الإطلاق ، وكذلك بناء التماثيل للحيوان أو الإنسان. التاريخُ يشهد أنّ التصوير كان أول خطوة نحو الشرك. الشرك لا يعني في كلِّ حال أداء العبادة ذات الطقوس الخاصة أمام شيءٍ ما. إنَّ تعليق صور الزعماء والشخصيات البارزة وتوزيعها في كل مكان ، نتيجته الحتمية الاستعبادُ الفكري والتقديس التعبدي لتلك الشخصيات ، والأثر المترسخ لعظمتها في العقول والأرواح ، ولا شك أن هذا نوع من عبادة الأوثان.

عندما استولى السوفييت على بولندة ، أُرسلت ألوفٌ من صور ستالين إلى جميع المدن والقرى في البلاد ، وكان الجنود النازيون يعلقون صور هتلر على صدورهم ، وعندما كانوا يصابون بجروح خطيرة ، وكانوا في آخر رمق من حياتهم ، يقبّلون تلك الصور ، ويضعونها على أعينهم. الصور على النقود المعدنية والطوابع البريدية

للزعماء الوطنيين علامة هيمنتهم الدنيوية. وعندما تُعْرَضُ صورهم على شاشات السينما، فالمفروض من الحضور أن يقفوا على الفور. فإن لم تكن هذه كلها من أعمال الشرك، فلا أدري ما هو الشرك إذاً؟!

النازيون والفاشيون والشيوعيون وأتباع كمال أتاتورك والناصريون كل هؤلاء استخدموا الصور، بل أساءوا استخدامها، وحصلوا على نتائجها المشؤومة، بحيث لا أظن أن أحداً من ذوي العقول السليمة يبقى عنده أدنى شك في إدراك السبب الذي من أجله حرّم الإسلام الصور والتماثيل.

كيف يمكن للشخص الذي يدرك الفرق بين التوحيد والشرك أن يتقبّل التصوير، وقد ظهرت نتائجه الخطيرة بكل وضوح في هذا العصر!!

ثم لماذا أصدر خروشوف أوامره بإزالة صور ستالين وتماثيله من جميع الأماكن العامة بعد أن أعلن شجبه له واتهامه إياه؟ ألا يعني هذا أن خروشوف كان يقظاً، وكان يعرف مدى عمق التقديس لهذا الإله الكاذب في أذهان الروس عن طريق هذه الصور.

والصورة استخدمت منذ عهد بعيد كأكبر وسيلة لنشر الانحطاط والدعارة في العالم: الخمر، والموسيقى، والرقص، والكتب الخليعة.

والصور والتماثيل كانت دائماً، وفي هذا العصر أكثر من أي وقت آخر، من أقوى المحرِّضات على الزنا والفسق.

إذا كان العصريون في البلاد الإسلامية يُصِرّون على الانغماسَ في مثل هذه الأعمال، رغم المنع الصريح على لسان الرسول ﷺ لإرضاء

رغبات العصر ، وليقال عنهم إنهم عصريون ، فليعلموا أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا هذا من دون أن يخالفوا مبادىء الإِسلام وأصوله.

أنا لا أدري كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يقنعوا أنفسهم وغيرهم ، أنّهم مسلمون مخلصون كما كانوا من قبل من دون هذا التغيير الجذري.

أنا أتفق معك تماماً فيما كتبتِهِ عن الأساليب الاعتذارية. هناك سببان خفيان لمثل هذا النوع من التعليلات:

إمّا أنَّه ناتجٌ عن الفهم الخاطىء والجهل بالإسلام.

أو أنه نتيجة طبيعية للعقلية المهزومة التي تقبل قيم الثقافة المستعمِرة على الطريقة العمياء كأنّها معايير عليا.

ونتيجة لهذا كله ، أصبحت الحضارة الغربية هي الحَكَمَ بين مزايا وأخطاء الإِسلام وليس العكس.

ورائد الأسلوب الاعتذاري في شبه القارة الهندية الباكستانية هو السير سيد أحمد خان وزميله شراغ علي. وفيما بعد سلك الطريقة نفسها السير سيد أمير علي (أمير علي وشراغ علي كلاهما من الشيعة) وأخيراً أصبحت مدرسة (عليكرة) بكاملها تتولى تقديم الاعتذارات إلى الغرب باسم الإِسلام.

محمد علي اللاهوري (أحد أتباع ميرزا غلام أحمد ، ومترجم معاني القرآن الكريم إلى الإِنكليزية ، والذي يلتبس اسمه على بعض المؤلفين الغربيين مع سميه محمد علي جوهر الصحفي المعروف وزعيم الحرية) التزم جوهرياً بأفكار مدرسة (عليكرة).

وفي مصر ، اختار الشيخ محمد عبده سبيلَ التسوية والحل

الوسط ، وفتح هذا البابَ على مصراعيه للمتغربين في العالم العربي ، الذين جاءوا من بعده ، وعندما سلكوا هذا المسلك ، أصبح من غير الممكن أن يضعوا حداً لمغالطاتهم المتطرفة. فكلمة «الجهاد» ترجمت «بالحرب الدفاعية». التعاليم الإسلامية حول سجناء الجهاد (العبيد) أُلبست معانٍ غريبة ومضحكة. تعدد الزوجات اعترفوا به ـ مكرهين ـ حلاً طارئاً ، وبعده بقليل قالوا: إنّ الأفضل أن يكون ممنوعاً.

المعجزات التي ذكرها القرآن إما أنّهم أنكروها تماماً ، أو أنّهم حاولوا قدر المستطاع تأويلها بأنها ظواهر طبيعية ، وقالوا عن الملائكة: إنها طاقات الفطرة ، وعن الوحي إنّه نتيجة ذاتية للنشاط الذهني غير العادي ، يمكن تشبيهه بهلوسة المجنون وهذيانه.

إنّ الانهزام الفكري للمسلمين ، بعد هزيمتهم في ميدان السياسة ، لم يكن أقل خطراً. وهذا الشلل الفكري لم يدعهم يفهموا الهديَ الإلهيَّ الذي أنزله الله على خاتم أنبيائه.

الكلام الذي كتبتِهِ حول تعدد الزوجات صحيحٌ تماماً. ولكن أضيف عليه أنّ الآية الثالثة من سورة النساء لم تنزل لتشرع التعدد ، لأنّه لم يمنع قط بالشرع الإلهي ، بل كان مسموحاً به في جميع شرائع الرسل. أكثر الرسل كان لديهم أكثر من زوجة واحدة ، وقبل أن تنزل هذه الآية الكريمة على الرسول ﷺ ، كانت عنده ثلاث زوجات (سودة وعائشة وأم سَلَمة رضي الله عنهنّ) وأكثرُ الصحابة كانت عندهم أكثر من زوجة واحدة.

لذا لم تكن هناك حاجة لتشريع التعدد المشروع من قبل ، والمعمول به في العرف العام.

الآية المشار إليها نزلت بعد غزوة أُحد التي جعلت كثيراً من نساء المدينة المنورة أيامى وأطفالهن يتامى ، فلمواجهةِ هذه المشكلة أُمِرَ المسلمون بأن يحلوها عن طريق التشريع الموجود من قبل ، وذلك بأن يقبلوا أن يتزوجوا اثنتين أو ثلاثاً. وفي بعض الأحيان أربع زوجات من بين أولئك الأيامى. وكان من نتيجة هذا الحل الإسلامي أن انضمت الأيامى واليتامى إلى العائلات المختلفة بدل أن يُتركوا ويُهْمَلوا.

وإذا كان هذا الهدي الإلهي يقرر أي نوع من التشريع ، فهو ليس الإذن في التعدد ، بل هو تحديد عدد الزوجات بالأربع ، مع شرط زائد. وهو أن الزوج إن لم يكن يعدل بين زوجاته ، فإما أن يعاملهُنّ بالسواء ، أو يكتفي بزوجة واحدة. هذان الأمران المذكوران أعلاه لم يُعرفا بين العرب المشركين.

كما أن الإنجيل الموجود حالياً لا يوجد فيه ذكر لهما.

الذين يحاولون أن يقدّموا شرحاً جديداً للإسلام ، أنا لا أدري من الذي يريدون أن يخدعوه: الله أم أنفسهم؟ ولكن أؤكد لك أن هذه الخدعة السيئة لا يمكن أن تستمرّ طويلاً ، هم من أجل غلبتهم السياسية يحاولون أن يلقوا هذه الأفكار في أذهان عامة المسلمين ، والصحافة الغربية تطبّل لهم وتشجعهم. ولكن هناك موجةٌ قوية من الاستياء بين عامة الناس في البلدان الإسلامية ، بحيث لا يمكن أن تدركيها ، وأنت في أمريكة.

عندما تزورين إحدى الدول الإسلامية ، تجدين أنَّ عامة المسلمين والغالبية من المثقفين الجدد يتبرّمون من هذا الشرح الغريب للإسلام ، لأنه مخالِفٌ لظاهر الإسلام وروحه. الشباب الذين رأيتهم أنت بجامعة

كولومبية ، لا يمثلون الرأي العام للمسلمين. إنّهم يمثلون شرذمة قليلة من الناس ، اعتُبرت عائقاً في طريق الإسلام ، بدل أن تكون مصدر قوة له. هؤلاء الناس بعد عودتهم إلى بلادهم يعيشون مثل الأجانب. عاداتهم وأذواقهم وسلوكهم وأفكارهم تختلف تماماً عن المسلمين الآخرين. هم لا يختلطون مع الآخرين ، والآخرون لا يختلطون معهم. إنّهم جنس غريب وُجد في البلاد الإسلامية نتيجة لحكم الاستعمار الأوروبي. وهم يعلمون جيداً أنّهم لا يستطيعون أن يقنعوا شعوبهم بقبول العلمانية بالطرق الديموقراطية ، فهم يحاولون أن يفرضوا عليهم نظرياتهم الأجنبية عن طريق الاستبداد والقهر. والأصوات المشجعة تأتيهم من البلدان الغربية تأتيهم بأنّ الشرق لم يستعد حتى الآن لقبول الديموقراطية. ولكنّ هؤلاء الدكتاتوريين لا يلقون أدنى تشجيع للمثل الديموقراطية. إنهم ضحايا لأسوأ أنواع العبودية. الغرب يطبل لهم بكل قوة ، لثقتهم العمياء في المادية الغربية ، ولأنهم فقدوا اعتقادهم في صدق الإسلام.

أما عن الكلمة التي أرفقتيها مع رسالتك الأخيرة ، والتي صدرت في مجلة (النظرة الإسلامية) حول القرار المتعلق بالأحوال الشخصية ، فلعله يعجبك أن تعرفي أنه حالما صدر الأمر بتنفيذ القرار المذكور في ٧ مارس ، أنا والعلماء الآخرون من الجماعات الإسلامية الأخرى المعترف بها ، أصدرنا بياناً مشتركاً تضمّن النقد المفصل لكل فقرة وردت في هذا القرار ، وأثبتنا أنه مخالف للقرآن والسنة.

وقد صدرت التعليمات من الحكومة إلى الصحف بعدم نشر البيان المذكور. ورغم المنع ، أراد بعض الناس أن ينشروه بأي وسيلة ، فاستُجْوِبوا وأوذوا بشتى الوسائل. وبعضهم سُجن بناءً على قانون الأمن

العام. وفي غضون هذا يُكال المديح على هذه الإصلاحات ، وتُتَّخذ لها دعايات واسعة في الداخل والخارج. وقد طلبتِ مني كذلك أن أُبدي رأيي حول الكلمة المشار إليها. فأريدُ أن أقول فقط: إنّ التخوف من النقد البادي على وجوه الذين يؤيدون القرار المذكور هو النقد الكافي في حد ذاته.

وفي الختام ، يجب علي أن أعتذر إليك مرة أخرى عن التأخير غير العادي الذي حصل مني في الإِجابة. وإن لم يكن بدون أسباب. والسلام.

أخوك في الإِسلام

أبو الأعلى

(٨)

صاحب الفضيلة الشيخ المودودي

نيويورك ١٩/ ٨/ ١٣٨١ هـ
٢٥/ ١/ ١٩٦٢

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أشكركم كثيراً على رسالتكم المؤرخة في ١٦ ديسمبر التي تضمنت إفادات هامة، وتحمّلتم المتاعب للإجابة على جميع أسئلتي بأسلوب مقنع للغاية.

قبل عِدَّة أسابيع قَدِمَ ظفر الله خان، ليلقي محاضرة خاصة في مسجدنا بنيويورك. كنتُ أنا قد خططت للاستماع إليه، ولكن في الدقائق الأخيرة لم أجد نفسي راغبةً في الذهاب إليه، لا يخفى عليكم أنَّ ظفر الله خان أحد أشهر قادة الحركة الأحمدية. أنا أعتقد أنَّ الفرقة اللاهورية من بين الفرقتين للقاديانية أشدُّ خطراً من الجماعة الرئيسة الموجودة في «ربوه».

القاديانيون صرحاء، ويجاهرون بقبولهم الميرزا غلام أحمد رسولاً، ويكفّرون المسلمين الآخرين الذين ينكرون دعواهم. وعلى هذا، فهم خارجون عن ملة الإسلام بكل وضوح، ولكن اللاهورين يحاولون أن يقدموا أنفسهم كمسلمين مخلصين متمسكين بالدين الصحيح، بينما هم ينشرون أفكارهم المخالفة للإسلام بالطرق الخفية.

أنا أعتقد أن ظفر الله خان ينتمي إلى الفرقة اللاهورية. وهو يحاوِلُ أن يقدّم نفسه مسلماً تقليدياً صحيحاً، ولكنّه أظهر وجهه الحقيقي

عندما رفض بصفته ضابطاً حكومياً من الدرجة العليا أن يشترك في صلاة الجنازة على محمد علي جناح (الملقب بالقائد الأعظم) لأنَّ الإمام لم يكن قاديانياً.

وجدت في مكتبة صغيرة بنيويورك متخصصة في الكتب الشرقية، وكذلك الكتب الإسلامية المطبوعة في باكستان، كتاباً صغيراً رائعاً عن الحركة القاديانية، نشره الشيخ محمد أشرف بلاهور. عنوانه: «صاحب القداسة: استعراض جريء وصريح لكذب ادعاء الميرزا غلام أحمد، أنه نبي» لشخص غير معلوم، مع تقدمة مفيدة جداً بقلم ظفر علي خان. هذا الكتاب يقدّم دراسة مفيدة جدّاً عن الميرزا. أنا لم أقرأ كتاباً في الإنكليزية حتى الآن يحتوي على نقول كثيرة من كتابات الميرزا بهذه الصورة. ولقد استغربت بعدما قرأت عن حياته، كيف أمكن للباحثين الأذكياء أمثال محمد علي اللاهوري أن يقبل دعاواه الغريبة، إلا أن يقال: إنّهم اختاروا سبيل اتباعه لبعض الأهداف الشخصية أو الأغراض المادية.

لقد صُدمت بأن الميرزا غلام أحمد كان رجلاً يفقد المشاعر الأخلاقية تماماً، وهو شخص متوسط الذكاء جدّاً. لا يوجد في ذهني أدنى شك أنّ الميرزا غلام أحمد كان مصاباً بالجنون. إنَّ أفكاره، ـ وبتعبير أصح، هلوسته ـ كانت تؤكد له أن الله في السماء يمجده ويمنحه أعلى الأوسمة. وأنه ملك الآريين، و(جى سكنه بهادر) يعني الأسد الفاتح، والإله (كرشنا). (مريم) من أسمائه، وهو ـ أو هي ـ متصف بهذه الصفة الاسمية يظل عظيماً مع عيسى لمدة ليست أكثر من عشرة أشهر، وولادة عيسى ليست إلا ولادة الميرزا نفسه. (انظر الصفحة رقم ١٩١ ـ ١٩٢).

ألا يدل هذا على أنه كان مجنوناً. أنا لا أدري كيف لم يدرك أقاربه

هذا ، ولم يذهبوا به إلى مشفى الأمراض العقلية؟! ولو كان الميرزا غلام أحمد حُجِر عليه في مشفى المجانين ، لما وجد الفرصة لنشر أباطيله ، ولم تكن أنت (تقصد الشيخ المودودي رحمة الله عليه) سُجنتَ أثناء اضطرابات البنجاب في عام ١٩٥٣ ، ولم يكن صدر الحكم بإعدامك.

لو كان الميرزا غلام أحمد حياً اليوم لكان بإمكان الطب أن يشخّص بكل سرعة حالة تخيله للعظمة واضطهاد الناس إياه بمرض انفصام الشخصية (نوع من جنون العظمة). كل سطر من كتاباته يدل على أنه كان مريضاً. وكما ذكر الكاتب المجهول: إن غلام أحمد النبي ، كان مصاباً بجنون الاضطهاد في أسوأ حالاته. إن دعاواه لا تخطو إلى الإمام إلا مصحوبة بالفكر الاضطهادي. وهو كلما يزداد احساساً بالاضطهاد ، يرتفع في دعاواه محلقاً إلى الأعلى فالأعلى. لأنَّ المجنون كلما يشتد مواظبة على أوهامه وتخيلاته ، تنحدر حالته من سيء إلى أسوأ.

لو كان المجتمع الإسلامي تركه وحيداً معزولاً ، ورفض دعواه (كما ينبغي الرفض والترك) لكونه مجنوناً ومريضاً ، لما اتخذ هذا الحجمَ من الذيوع والانتشار (انظر ص ١٨٥ ـ ١٨٦). وقد انتهى به الأمر إلى أنه قد خيل له في رؤيا ، أنه أصبح في حقيقة الأمر ، الإله القادر المطلق ، ووصف أولئك الذين أنكروا صدق رسالته ، أنهم أولاد زنا».

ولم أسمع أن أيّاً من الكتب الضخمة ذات المجلدات الكثيرة التي ألفها الميرزا غلام أحمد ترجم إلى الإنكليزية ، غير الكتيب الصغير الذي عنوانه: (تعاليم الإسلام) ، لابد أنهم كانوا يعلمون جيدّاً أن الناس يسخرون من هذه السخافات والكلام المبهم الذي يدّعون أنه وحي من الله ، ولكني أرى أن كتبه وبالأخص كتابه (حقيقة الوحي) يجب أن

يعاد طبعها بالأردية ، ويترجم إلى الإنكليزية واللغات الأوروبية الأخرى ، ليس لعامة الناس ، بل لعلماء الطب. إنَّ كتابه (حقيقة الوحي) سوف يحظى بانتباهٍ عظيمٍ من قبل طلبة علم النفس غير العادي.

كما ينبغي أن يهتم به علماء النفس كمستند ذي قيمة عن مرض انفصام الشخصية ، لأنه يزودهم بالمعلومات الأولية عن كيفية اشتغال الدماغ المصاب بمرض جنون العظمة. وعلى هذا ، يمكن القول: إنّ دراسة كتب الميرزا غلام أحمد ستساعد البحوث العلمية في مجال الأمراض العقلية.

لقد أوضحتَ في الكتب التي أرسلتَها إليَّ قبل مدة من الزمن ، كيف أنَّ القوميين في آسية وإفريقية يحافظون على النظام نفسه الذي جاء به سادتهم الاستعماريون. الفرق الوحيد أنّ الأيدي اختلفت ، ولقد ظهرت هذه الحقيقة بكل وضوح في الاضطرابات الطائفية ضد المسلمين التي وقعت في مدينة (عليكره) والمدن الأخرى بالهند ، والتي قُتِلَ فيها كثيرٌ من المسلمين الأبرياء. نهرو (رئيس وزراء الهند الأول بعد استقلال البلاد الهندية) الملحد صاحب الاعتقاد الشديد في الاشتراكية ، يتبع العقيدة المادية نفسها التي يعتقدها سادته السابقون. ولا يتردد في استخدام أسلوب القمع نفسه الذي كان يستخدمه الإنكليز ضد شعبه ، إنْ لم يكن هو المجرم الذي يحرض (الطائفيين) للقيام بالمذابح ضد المسلمين ، فإنّه لم يعمل شيئاً لإيقافهم عند حدهم أو معاقبتهم. **إن المبادىء الرئيسة للقومية ذات الطابع الغربي تكره الأقليات. القومية تقرر أن جميع المواطنين يجب أن يكونوا من جنس واحد ، وأن يتكلموا لغة واحدةً ، وأن يتبعوا قوانين وأنظمة موحدة. إنّها لا تتحمّل الاختلاف ، بل ترى أن من الواجب فرض الانسجام**

والمطابقة على أي حال. هذا هو المبدأ المنتشر في العالم كله. رأيناه في روسية، في معاملتها مع غير الروس.

رأينا الذي وقع باليهود تحت سيطرة النازيين، وكذلك اضطهاد العرب في إسرائيل، والآن تعاد المأساة نفسها في الهند.

أنا لا أستغربُ أن نهرو تعلم من النازيين والصهاينة، ليسلب أملاك المسلمين الهنود، ويخرجهم من ديارهم، ويقتل منهم أعداداً كثيرة. كم تعارض هذه الأعمال روح التسامح الموجود في الدولة الإسلامية؟! والتي تسمح للأقليات الدينية الذمية أن تنمي حياتها الثقافية الخاصة، وأن تعيش حسب شريعتها الخاصة بدون مضايقة.

إنّ توضيحكم للأسباب التي دعت الإسلام إلى تحريم الصور كان مفيداً ومنطقياً. أنا أعتقد أن هناك علاقة وثيقة بين الفن العظيم والاعتقاد الديني، وأن المساجد العظيمة مثل مسجد ابن طولون في القاهرة، ومسجد قرطبة، ومساجد إستانبول، والمساجد الأخرى الكثيرة المماثلة لها والمنتشرة في العالم الإسلامي، والمزخرفة بكتابات رائعة من الآيات القرآنية، والسجاجيد والمنسوجات والأواني الفخارية والزجاجية، إنْ هي إلا تعبيرات محسوسة عن القيم الروحية للإسلام. أليس الرسول ﷺ صرح بأنّ الله جميل يحبُّ الجمال؟!

عندما كانت الحضارة الإسلامية في أوجها، لم يكن الفن شيئاً محفوظاً في المتاحف. بل كان جزءاً لا بُدّ منه في حياة أبسط المسلمين.

ليس للفن مكان في الحياة اليومية للرجل الغربي، أنا ما رأيتُ أقبح من اللباس الغربي وأسلوب البناء المسرف في العصرية. إنَّ مدارس فن

الرسم الحديثة[1] المنتشرة هذه الأيام تشبه إلى حد بعيد الرسوم التي يرسمها المصابون بمرض انفصام الشخصية في مشافي الأمراض العقلية. هذه الرسوم تقول: إنّه لا معنى ولا غرض للحياة، ولا إله للكائنات. جميعُ الأشياء عبارةٌ عن فوضى، ولا شيء غير ذلك.

أنا لا أشك أن تدهور الفن الجديد يتّصل مباشرة بما يقال له: «فلسفة التغيير». إذا كان كل شيء لابد أن يصل تدريجياً إلى حالة الذوبان والانصهار، فالنتيجة المنطقية أنه لا ثباتَ لأيِّ شيء، كل شيء له نهاية محدودة، ولا شيءَ في هذه الدنيا يتمتّع بصفة الديمومة. جميع الفنون الجميلة يجب أن تكون مؤسسة على الإيمان المطلق بالحقائق الجمالية والأخلاقية.

أنا أرى أنّ الفساد في الفن الجديد مثله مثل المجالات الثقافية الأخرى متفرّعٌ من إنكار الأفكار الواقعة وراء نطاق الخبرة البشرية[2]. لا يمكن لأي شخص الحصول على المثل الأخلاقية من دون أن يملك تصوراً صحيحاً للإيمان المطلق. كيف يمكن لشخص ما أن يصل إلى الرفعة والخلق الفاضل إذا كان يتوقع أنَّ الشيء العزيز اليوم سوف يصبح مهجوراً غداً؟!

* * *

لقد حيّرني كثيراً ما قرأته عن شاه ولي الله الدهلوي، فبينما أقرأ أن كثيراً من علماء المسلمين في شبه القارة الهندية الباكستانية يعتبرونه الرجل الثاني في المكانة بعد الغزالي، أجد أيضاً أنّ كتابه الرائع

---

(١) كالتجريدية، والتشكيلية، والتكعيبية، والدادية، ونحوها (ن).

(٢) الغيب (ن).

(حجة الله البالغة) هيأ الأفكار للحركة التحديثية في الإسلام ، إذ اعترف بتفوق المذهب العقلي ، وترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية (وهو نفسه ترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية) وأنكر جميعَ العناصر العربية في الإسلام ، إذ كانت مناسبة فقط للزمان والمكان الخاصين وللمجتمع البدائي في عصر محمد ﷺ.

ويقال أيضاً: إنّ شاه ولي الله أنكر أصالة المذاهب الأربعة ، وأراد أن يأتي بنظام تشريعي جديد وفقاً لحالة المسلمين في الهند ، كما أنّه صرّح بأننا غير ملزمين إلا بالأجزاء الدينية الروحية من القرآن والسنة. أما الأجزاء الأخرى التي تتعلق بالأمور الدنيوية ، فإنها كانت تناسب القرن السابع الميلادي فقط.

فالذي لم أستطع أن أفهمه ، أن شاه ولي الله عاش قبل الاستعمار البريطاني ، ولكن حسب ما قرأته عنه ، أجد أن فلسفته هي التي أسست وبررت موقف المسلمين الذين اختاروا الأساليب الاعتذارية من بعده. فهل كان هو صاحب الفكرة أم غير ذلك؟ وما الذي أثر عليه؟ يقول بشير أحمددار في كتابه (الفكر الديني عند السير سيد أحمد خان) ـ طبعه حديثاً معهد الثقافة الإسلامية بلاهور ـ: إنّ السير سيد أحمد خان نقل أقوال شاه ولي الله لتأييد أفكاره. إنَّ الأساليب الاعتذارية عند السير سيد أحمد خان شوّهت تعاليم الإسلام بدون أن يشعر بها الإنسان ، وكان لها التأثير السيىء على سيد أمير علي ، وعلى مولانا أبي الكلام آزاد ، وحتى العلاّمة إقبال لم يسلم أيضاً من آثارها. كما يظهر من كتابه: (تجديد الفكر الديني في الإسلام).

* * *

أنا أعرف أنّ إقبال كان من أعظم الشعراء المسلمين في القرن

العشرين ، إنّ بعض أعماله المترجمة إلى الإنكليزية توحي وتلهم ، ولكن ما هي مكانته الصحيحة؟ بعض الكتاب يصرّون على أنه كان عصرياً من الدرجة الأولى ، وهم تأييداً لهذا القول يستطيعون أن يأتوا بنقول كثيرة من كتابه: (تجديد الفكر الديني في الإسلام) فهو يحاول فيه أن يفسر المبادىء الإسلامية وفقاً لمعايير الفلاسفة الأوربيين العصريين ، وقد أثنى بحماس على تجربة كمال أتاتورك في تركية. وإن كان قد انتقد في أشعاره بالفارسية والأردية الثقافة الغربية ومؤسسيها بكل شدة ، كما أنّه انتقد بشدة المسلمين الذين تخلَّوْا عما ورثوه من أسلافهم وقلدوا الغربيين.

لا أحد من الكتاب المشككين أو الساخرين العصريين استطاع أن يكتب عن الموضوعات الإسلامية مثل ما كتب إقبال بمشاعر خالصة ونبيلة. ولكن الذي لم أستطع أن أفهمه: لماذا يناقض العلاّمة اقبال نفسه في كثير من الموضوعات؟ أنا لا أعتقد أنه كان مرائياً ، إنّ صوته يوحي بالإخلاص ، فماذا تكون الإجابة؟!

هل تستطيعون أن تحدثوني بعض الشيء عن مولانا أبي الكلام آزاد (١٨٨٨ ـ ١٩٥٨ م) لأني لم أجد عنه إلا كتاباً واحداً في الإنكليزية للبروفيسور همايون كبير ، وجدته في المكتبة العامة بنيويورك. وهذا غير كاف. كل ما أعرفه عنه أنه كان من زعماء الاستقلال ، متعاوناً مع المهاتما غاندي ، ورئيس حزب المؤتمر لمدة عشرين سنة تقريباً. وبعد حصول الهند على الاستقلال أصبح وزيراً للمعارف إلى أن توفى (رحمة الله عليه).

وقرأت عنه أيضاً أنه كان عالماً كبيراً وأديباً عظيماً في اللغة الأردية ،

وأنه ألف تفسيراً أخلاقياً للقرآن الكريم. ولكن من سوء الحظ كتاباته غيرُ متوفرة حتى الآن بالإنكليزية.

أشكركم كثيراً إذا تكرمتم بإلقاء الضوء على الموضوعات التي أثرتها في هذه الرسالة.

أختكم في الإِسلام

مريم جميلة

(٨)

عزيزتي مريم جميلة لاهور ١٠ / ٢ / ١٩٦٢م

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

● الآراء التي ذكرتيها عن الميرزا غلام أحمد صحيحة تماماً ، وإذا افترضنا لمجرد النقاش أن نبيّاً كان من الممكن مجيئه بعد محمد ﷺ (وإن كان هذا الافتراض منافياً للقرآن والسنة) فإننا عندما نقفُ لنفكّر كيف تُوِّجَ مثل هذا الإنسانِ السافِلِ خُلقاً وعقلاً كرسول ، ندرك بسهولة مدى الانحطاط الذي وصل إليه تصور الإنسان للرسالة السماوية في هذا العصر.

لم تترجَم أكثرُ كتب هذا الكذّاب إلى الإنكليزية ، بل أصولها الأردية أيضاً لم يتجرّأ أتباعُه على إعادة طباعتها ، إنّ توزيع كتبه يتمّ بحذر ، حيث تُمْنَعُ عن عامة الناس ، لأن القاديانيين عرفوا سخافتها وكراهية الناس لها. لقد رسمتِ صورةً حقيقية للأحمديين اللاهوريين والقاديانيين في (ربوه). ولكنّ ظنّك أنَّ السير ظفر الله خان من جماعة اللاهوريين خاطىء ، إنه قادياني بالتأكيد ، ويؤمنُ بأنّ الميرزا غلام أحمد نبي.

● إنّ تحليلك لمعاملة الحكومة الهندية للمسلمين صحيحٌ ودقيق جدّاً ، الزعماء السياسيون العصريون ، بصفة عامة ، في آسية وإفريقية يحبّون الحرية ، بمعنى أنهم لايحبون أن يروا السيطرة السياسية في أيدي الأجانب ، ولكنّهم في الأفكار والأخلاق عبيدٌ مطيعون لسادتهم السابقين ، ويتبعون خطواتهم بكل دقة. لا أحد منهم يملك عقلاً جريئاً

وحراً. نهرو يملك في داخله روحاً إنكليزية تماماً ، وإن كان في ظاهره هندياً.

● أما بالنسبة لشاه ولي الله ، فإنّه كان عالماً كبيراً ومخلصاً للإسلام في أول أمره وآخر أمره. أنا لا أستطيعُ أن أصادق على كل كلمة له ، ولكنَّ الأمر الذي لا شكَّ فيه أنه كان محدِّثاً وفقيهاً من الدرجة الأولى. إليه يرجعُ الفضل بعد الله في البلاد الهندية الباكستانية في نشر علم الحديث. وكل جماعة من علمائنا مَدينةٌ له في سبيل نشر تعاليم الرسول ﷺ.

إنه ـ لجلالة قدره ومكانته العلمية ـ يحاول كل مصلح أن يستغلّ اسمه ، ويحرف كلامه لخدمة أهدافه ، جميعُ مؤلفات شاه ولي الله إما أنها بالعربية أو بالفارسية. وكل شخص مُلمّ بأفكاره يعلم جيداً مدى تضليل أولئك الباحثين عما يؤيد أفكارهم. إنهم يبنون آراءهم الخيالية والغريبة على كلماته ، ويحاولون أن يستخرجوا الأفكار التي لا توجد في كتاباته.

لم يؤيد شاه ولي الله قط تفوق المذهب العقلي ، ولا أراد إبعاد العناصر العربية عن الإسلام. إنّه كان معجباً جداً بالمذاهب الفقهية الأربعة ، ولم يَتُقْ إلى وضع نظام تشريعي جديد للقضاء على المذاهب الموجودة ، أبدى رغبته في وضع نظام تشريعي جديد مأخوذ من الفقهين الحنفي والشافعي خاصة. ولكنّه لم يتعَدَّ قط هذا الحدّ من التفكير.

● أنا لا أنكر أنَّ العلامة إقبال انتقد الغرب بكل جدارة ، وقدم خدمة عظيمة للإسلام بواسطة أشعاره على وجه الخصوص. ولكن

لسوء الحظ ، كما ذكرتِ أنتِ سابقاً ، كتاباته لا تخلو من التناقض :

إنّ إقبال مرَّ بمراحل مختلفة من التحول الفكري خلال حياته ، وفي المرحلة الأخيرة فقط من حياته استطاع أن يكوّن في ذهنه فكرةً واضحةً ونقيةً عن الإسلام .

لقد اختلط في المراحل الأولى من حياته كثير من الأفكار والمؤثرات الدخيلة مع النظريات الإسلامية .

والأمر الثاني : أنَّه في الجزء الأكبر من حياته ، بدلاً من أن يكون مسلماً متمسّكاً بأفكار الإسلام العالمية ظل مصاحباً لنوع من القومية المسلمة ، التي لم يستطع أن يتخلّص منها . ولأجل هذا كان لديه نوع من التحيز في انتقاد الزعماء المسلمين والمفكرين العصريين . وفي بعض الأحيان جَرْياً وراء الضرورة الشعرية ، أصبح متطرفاً في العنصرية ، وفي تأييد أعمالهم غير الإسلامية .

والأمر الثالث : ينبغي أن يكون في حسبانكِ أنّ حقائق وعوامل سياسية وتاريخية كثيرة كانت تؤازر المشاعر العميقة تجاه تركية الموجودة لدى المسلمين في البلاد الهندية الباكستانية .

إنَّ المسلمين بعد أن أصبحوا مغلوبين بالاستعمار البريطاني ، كانوا مرتبطين عاطفياً مع هذه البقية الباقية من مجدهم الغابر ، لذا كانوا يدافعون عنها بجميع الوسائل الممكنة . وجزاءً لما فعله كمال أتاتورك لإنقاذ هذه الدولة الإسلامية المترنحة (الخلافة العثمانية) ، أصبح العلماء والمفكرون مستعدين للتغاضي عن أعماله غير الإسلامية والمخالفة لدين الله . مع هذه الخلفية الفكرية والعاطفية ، استمرّ إقبال لغاية ١٩٣٠ م ، في تقديم الاعتذار والتوضيح لإصلاحات كمال

أتاتورك ، وحاول أن يجد لها مكاناً في النظام الإسلامي. ولكن يبدو أن شاعرنا أيضاً فقد في النهاية صبره ، وأخذ ينتقد جهاراً بدع كمال.

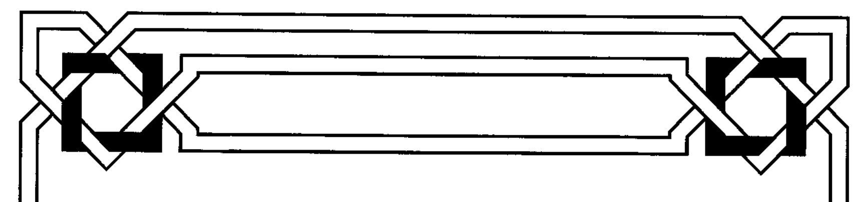
● ظل مولانا أبو الكلام آزاد إلى عام ١٩٢١ م مؤيّداً متحمساً للنهضة الإسلامية وحركة الخلافة الإسلامية. ولكنّه تحول بعد ذلك كلياً في الفكر والعمل ، إلى حدٍّ بدأ الناس يفركون أعينهم ليتأكدوا هل هو «آزاد» المعروف لديهم ، أو أنَّ شخصاً جديداً تقمّص فيه ، نتيجة لبعض إجراءات التحول في الشخصية. لقد أصبح الآن أبو الكلام آزاد قومياً هندياً مئة في المئة ، وداعياً صاخباً إلى قومية موحدة من المسلمين وغيرهم. وقد استوعب أيضاً فكرة وحدة الأديان ، التي قدمها إليه بعض الفلاسفة الهنادك ونظرية داروين الغربية. ويمكن أن تشاهد آثار هذه النظريات واضحاً في تفسيره للقرآن الكريم.

إنَّ الإسلام يوجِدُ في داخلنا صقلاً داخلياً وذوقاً جمالياً يُمكننا من اجتناب القبح ، ومن فعل كل شيء على صورة حسنة. بينما الإلحاد والمادية يُفسدان الأذواق البشرية ، ويجعلان الناس يمدحون القبح ويمجدونه ، ومن أجل هذا نجد الانحلال والتفسخ قد انتشر في جميع فروع الفن والأدب في هذه الفترة من الحضارة المادية.

والآن أختم رسالتي مع التحية وأخلص التمنيات.

أخوك في الإسلام

أبو الأعلى



الفصل الثاني
التعريف بمؤلفاتها

المبحث الأول: مسرد بمؤلفاتها باللغة الإنكليزية.

المبحث الثاني: مسرد بمؤلفاتها المترجمة عن الإنكليزية.

المبحث الثالث: تعريف بمختارات من مؤلفاتها:

١ ـ الإسلام والتجديد.

٢ ـ الإسلام والاستشراق.

٣ ـ الإسلام في مواجهة أهل الكتاب: الماضي والحاضر.

٤ ـ الحضارة الغربية تُدين نفسها.

٥ ـ رحلتي من الكفر إلى الإيمان.

٦ ـ الإسلام في النظرية والتطبيق.

٧ ـ أحمد خليل (قصة لاجىء فلسطيني عربي).

٨ ـ الإسلام في مواجهة الغرب.

٩ ـ شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث.



الفصل الثاني

التعريف بمؤلفاتها

اتضح من الفصل الأول لهذا الكتاب أنّ السيدة مريم جميلة كاتبة قديرة ، سديدة المنهج ، غزيرة المعلومات ، قوية الفكر ، فهي تؤمن بأنّ الإسلام لا بديل له ، وبالتمسك بهذا الدين الحنيف يحظى الإنسان بالسعادة والنجاح في الدنيا والآخرة.

ولكي يستعيدَ المسلمون عزهم المفقود ، وحكمتهم الضالة ، ونفوذهم السياسي المفقود ، يجب عليهم أن يراجعوا أنفسهم ، ويعودوا إلى ما كان عليه أسلافهم الأولون ، وينصهروا في بوتقة تعاليم الإسلام.

يجد القارىء في كتاباتها أسبابَ الأمراض المزمنة التي أنهكت جسم الأمة ، وبث اليأسَ والقنوط في أذهان الشبان عن قدرة الإسلام على قيادة البشرية ، فهي توضّح معالم الطريق ، وتثبت بأسلوب قوي مباشر تفوّق الحضارة الإسلامية على الحضارات المادية الأخرى ، وبخاصة الحضارة الغربية الخلابة ، بشتى طرقها وأشكالها.

نستعرض في هذا الفصل استعراضاً أميناً لبعض مؤلفاتها التي تعتبر نموذجاً قيماً للثقافة الإسلامية المعاصرة.

المبحث الأول

مسرد بمؤلفاتها باللغة الإنكليزية

1. ISLAM VERSUS THE WEST.
2. ISLAM AND MODERNISM.
3. ISLAM IN THEORY AND PRACRICE.
4. ISLAM VERSUS AHL AL KITAB PAST AND PRESENT.
5. AHMAD KHALIL.
6. ISLAM AND ORIENTALISM.
7. WESTSRN CIVILIZATION CONDEMNED BY ITSELF.
8. CORRESPONDENCE BETWEEN MAULANA MAUDOODI AND MARYUM JAMEELAH.
9. ISLAM AND WESTERN SOCIETY.
10. A MANIFESTO OF THE ISLAMIC MOVEMENT.
11. IS WESTERN CIVILIZATION UNIVERSAL?
12. WHO IS MAUDOODI?
13. WHY I EMBRACED ISLAM.
14. ISLAM AND THE MUSLIM WOMAN TODAY.
15. ISLAM AND SOCIAL HABITS.
16. ISLAMIC CULTURE IN THEORY AND PRACTICE.
17. THREE GREAT ISLAMIC MOVEMENT IN THE ARAB WORLD OF THE RECENT PAST.

18. SHAIKH HASHN AL BANNA AND IKHWAN AL MUSLIMUN.
19. A GREAT ISLAMIC MOVEMENT IN TURKEY.
20. TWO MUJAHIDIN OF THE RECENT PAST AND THEIR STRUGGLE FOR FREEDON AGAINST FOREIGN RULE.
21. THE GENERATION GAP ITS CAUSES AND CONSEQUENCES.
22. WESTERNIZATION VERSUS MUSLIMS.
23. WESTERNIZATION AND HUMAN WELFARE.
24. MODERN TECHNOLOGY AND THE DEHUMANIZATION OF MAN.
25. ISLAM AND MODERN MAN.

* * *

المبحث الثاني
مسرد بمؤلفاتها المترجمة عن الإنكليزية

١ ـ الإسلام والتجديد.

٢ ـ الإسلام والاستشراق.

٣ ـ الإسلام في مواجهة أهل الكتاب: الماضي والحاضر.

٤ ـ الحضارة الغربية تُدين نفسها.

٥ ـ رحلتي من الكفر إلى الإيمان.

٦ ـ الإسلام في النظرية والتطبيق.

٧ ـ أحمد خليل (قصة لاجىء فلسطيني عربي).

٨ ـ الإسلام في مواجهة الغرب.

٩ ـ شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث.

١٠ ـ الإسلام والمجتمع الغربي.

١١ ـ دستور الحركة.

١٢ ـ هل الحضارة الغربية عالمية؟

١٣ ـ من هو المودودي؟

١٤ ـ الإسلام والمرأة المسلمة المعاصرة.

١٥ ـ الإسلام والتقاليد والعادات الاجتماعية.

١٦ ـ ثلاث حركات إسلامية كبيرة في العالم العربي المعاصر.

١٧ ـ الشيخ حسن البنا والإخوان المسلمون.

١٨ ـ المواجهة بين الحضارة الغربية والمسلمين.

١٩ ـ الغرب والمصالح الإنسانية.

٢٠ ـ التقنيات الحديثة والفساد الخلقي.

* * *

المبحث الثالث

التعريف بمختارات من مؤلفاتها[1]

وهذه المؤلفات هي:

١ ـ الإسلام والتجديد.

٢ـ الإسلام والاستشراق.

٣ـ الإسلام في مواجهة أهل الكتاب الماضي والحاضر.

٤ ـ الحضارة الغربية تُدين نفسها.

٥ ـ رحلتي من الكفر إلى الإيمان.

٦ ـ الإسلام في النظرية والتطبيق.

٧ـ أحمد خليل (قصة لاجئ فلسطيني)

٨ ـ الإسلام في مواجهة الغرب.

٩ ـ شهداء الحركة الإسلامية الحديثة.

---

(١) وهي التي تيسّر الاطلاع عليها.

١ - الإسلام والتجديد

هذا الكتاب ـ كما يتضح من عنوانه ـ يحوي العديد من المقالات التي كتبتها المؤلفة في أوقات متفاوتة ردًّا على حركة التجديد والحداثة المزعومة ، التي كانت قد بدأت تبث بذورها الفاسدة في الجيل الناشىء ، وبخاصة بين الطلاب المنخرطين في الجامعات العصرية .

وبدورها أثبتت المؤلفة من خلال هذا الكتاب وبدلائل قاطعة وشواهد مؤكدة أنّ الحضارة الغربية المعاصرة ، وقيمها المادية الفاسدة ، وأفكارها واتجاهاتها الزائفة ، تختلف كلَّ الاختلاف عن الحضارة الإسلامية السامية ، وقيمها الثابتة إلى درجة أنه لا يمكِنُ التوافق والتعايش بين هاتين الحضارتين . شتّان بين هذا وذاك .

وأكدت المؤلفة بأنّه لا تنجحُ أيةُ محاولة مهما كان مصدرُها ودوافعُها في إيجاد التوافق بين هاتين الثقافتين المتضاربتين ، وتؤدّي مثل هذه المحاولات إلى تدمير الحياة الإسلامية التي عاشها المسلمون منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا .

وأيضاً فالمؤلفة مقتنعةٌ تماماً بأنّ الإسلام وحدَه يقدم الردَّ المقنع على الأسئلة المتعلقة بحياة البشر دون تمييز بين الزمان والمكان ، لأنه دين شامل كامل حيوي صالح لكل زمان ومكان ، ويتمتع بالمواهب والقدرات المطلوبة لقيادة مسيرة الإنسانية بنجاح لتصل إلى ساحل النجاة ، فهو بمثابة سفينة نوح ، فمن ركبها نجا وفاز ، ومن جحد وأنكر خاب وخسر .

فهذا الدين الرباني يقفُ ضد القُوى الباطلة ، ويكافح الأفكار الزائفة والفلسفات الملحدة بشتى مسمّياتها وعناوينها من الاشتراكية والمادية والرأسمالية والإمبريالية ، والديمقراطية المزعومة.

هذا ، وقد أكدت المؤلفة أنَّ المسلمين لا يوجد لديهم خيار إلا أن يرفضوا كافة طرق الحياة الغربية بشتّى أنواعها وأشكالها كالوسطية ، والتجديد ، والحداثة ، والعصرية ، والاشتراكية ، والرأسمالية ، فلا عزّ لهم ولا سعادة، ولا فلاح لهم ولا قيادة، إلا أن يتمسكوا بالدين الحنيف كما جاء به محمد بن عبد الله الأمين ﷺ ، ويتبعوا منهجه ، ويقتدوا به في جميع شؤون حياتهم الدينية والدنيوية على السواء ، حيث بين لنا القرآن: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

كما بيّنت المؤلفة أن المسلمين بحاجة ماسة إلى تطوير مستوى تعليمهم الديني ليستعيدوا الثقة المفقودة بتفوّق تعاليم الإسلام وهدايته في كلّ مضمار من مضامير الحياة ، فهو دينٌ الحق ولا دينَ سواه ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] فلا يمكن مقارنته بالفلسفات والأفكار التي هي من صنع البشر ، فالإسلام نور ، والأفكار والفلسفات الملحدة الأخرى هي ظلمات ، فهل تستوي الظلمات والنور؟ وهل يستوي الأعمى والبصير؟ وعليه لا بد للمسلمين أن لا يخافوا في سبيل دينهم لومة لائم ، وأن يضحّوا بكل غالٍ ونفيس للدفاع عن هذا الدين المنزل من الله سبحانه وتعالى لهداية البشرية وفلاح المجتمع الإنساني.

انتهجت المؤلفةُ منهجاً قوياً مباشراً لنقد الأفكار والفلسفات المعادية للإسلام بكل حرية وصراحة وعدالة ، مهما كانت مصدرها ،

فلم ينجُ من انتقادها حتى مشاهير العلماء المسلمين في شبه القارة الهندية الذين أيدوا النظرية القومية ، والاشتراكية ، ودعَوْا إلى تعزيز التعايش بين المسلمين وغير المسلمين مثل مولانا أبي الكلام آزاد ، وسير أحمد خان ، والمحدث الجليل حسين أحمد مدني ، وغيرهم.

وفي نهاية الكتاب دعت إلى التخلّي عن المنهج الاعتذاري والتبريري في تقديم رسالة الإسلام الخالدة ، وتعاليمه الحنيفية بين أوساط الغرب(١).

علّقت صحيفة (ذي باكستان أوبزيرفر) على إصدار أول طبعة للكتاب فقالت: إنّ «الفضل يعود إلى امرأة أمريكية جديدة العهد بالإسلام ، التي انتقدت انتقاداً شديداً مصادر الفلسفات المادية الغربية ، وفكرة التجديد والحداثة المزعومة ، كما تعرّضت للمنهج الاعتذاري الذي يتبناه المسلمون الاعتذاريون والمجددون في الكتابة عن الإسلام.

وناشدت المؤلفة الفاضلةُ هؤلاء الاعتذاريين المزعومين أن ينتهوا عن تفسير الإسلام وفق المنظور الغربي ، مطالبة إياهم أن يتخذوا موقفاً عادلاً وحازماً للدفاع عن الإسلام المظلوم ، وأن يضعوه في المكان اللائق به ، كما أكدت على ضرورة تقويم التاريخ الإسلامي في ضوء ذلك».

أما مجلة (ذي كرايتيريان) الصادرة من كراتشي (باكستان) ، فكتبت قائلةً: «إنّ هذا الكتاب مفيدٌ جداً حيث يثيرُ الأفكار ، ويتناول عدداً من العناوين ، يتطلب كل منها تأليفَ كتابٍ مستقل.

---

(١) انظر مقدمة كتاب «الإسلام والتجديد» لمريم جميلة.

أمّا مؤلفةُ هذا الكتاب ، فهي تجمعُ بين العلم والعمل كأي مسلم حقيقي ، حيث إنّ صورتها المحجبة على غلاف الكتاب تدلُّ على مدى تمسكها بتعاليم الإسلام ، وافتخارها بانتمائها إلى هذا الدين. وقد أثبتت هذه المرأةُ العظيمةُ أنَّ الحجاب الإسلامي لا يمنع التطور الثقافي والفكري للمرأة المسلمة ، بل هو آية من آيات تعظيمها وكرامتها».

وخلاصةُ القول: إنّ هذا الكتاب يدل على سعة إطلاعها على مصادر الإسلام الأصيلة ، وحِسِّها النقدي المميز ، وتتبّعها العميقُ للاتجاهات والأفكار المعاصرة. فهي تؤمن كلَّ الإيمان بأنَّ الإسلامَ جاء ليعلو لا ليُعلى عليه.

ويجدر بنا أن ننقل هنا ترجمة لإحدى مقالاتها التي وضّحت فيها مَنْ هم أعداء الإسلام الحقيقيين؟ وما هي طبيعتهم؟ تحت عنوان: **من هم أعداء الإسلام؟**

«يمكن تقسيم أعداء الإسلام بصورة عامة إلى ثلاث فئات كبرى:

الأولى: فئة المبشرين المسيحيين.

والثانية: فئة العلماء والمؤلفين الأوربيين والأمريكيين ذوي النظرة اللادينية (العلمانية)[1].

والثالثة: فئة المجددين (المستغربين) ، الذين هم في الأصل مسلمون ، ونشأوا في بلاد إسلامية ، إلا أنهم بالرغم من هذا متشبّعون تماماً بالمثل الغربية.

وإننا ندركُ تماماً لماذا يسعى المسيحي المتحمّس الذي يعتقد بأنَّ

---

(١) المستشرقون (ن).

الحقيقة لا توجد إلا في حدود عقيدته ، ليجعلها سائدة في أنحاء العالم ، فكل مَنْ قَبِل فكرة كون المسيح هو وحده منقذ البشرية ، وأنَّ الإنجيل هو وحده وحيٌ إلهيٌ أصيل ، لا يمكنه إلا أن ينكر ما جاء به القرآن ، ويكذب برسالة النبي الكريم. وإنَّ الإسلامَ يهاجَمُ ويُذَّمُ بعنف أكثر بكثير مما يتعرض له أي دين آخر لمجرد أنه كان ـ دائماً ـ ولا يزال أشدَّ خصمٍ للمسيحية صموداً وقوة.

الهجمات المسيحية:

كان الأدبُ الغربيُّ برمته قبل منتصف القرن التاسع عشر يهاجمُ الإسلامَ باسم المسيحية ، إلا أنَّ عمل المبشرين المسيحيين أصبح يزداد تماثلاً مع أهداف الاستعمار البريطاني والفرنسي ، فانتقل التركيزُ تدريجياً من الناحية الدينية إلى اللادينية (العلمانية). وظلت الناحية الدينية زمناً طويلاً ممزوجة تماماً مع الناحية اللادينية وغير متميزة عنها. وكان الأسلوبُ المفضّل لدى المبشرين في عملهم هو أن يزعموا أنَّ المسيحية كانت صاحبةَ الفضل في كلِّ ما تم تحقيقه وإضفاؤه على طريقة الحياة الغربية الحديثة.

لذا فالمسيحيةُ والمدنيةُ الغربية لا يمكن الفصل بينهما أو عزل إحداهما عن الأخرى ، وأصبحت القيم الدينية للمسيحية خاضعة أكثر فأكثر لهذا القصد.

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية نُبِذَ هذا الادعاءُ المسيحي نبذاً يكاد يكون تاماً لتحلَّ محله مادية صرفة لا شائبة فيها. وصار الإسلام لا يُذَمُّ لأنه يرفض الثالوث وألوهية المسيح أو فكرة الخطيئة الأصلية ، ولم يبق الأمرُ هل مسألة صفات الله حق؟ وأي كتاب هو أكثر كتب الوحي

صدقاً؟ أو صدق نبوة محمد ﷺ. بل إنّ فكرة النبوة والوحي والآخرة وكل شكل من أشكال الإيمان بالله الذي يتجلى أثره واضحاً في كل شؤون الإنسان. . كل ذلك رُفض من الأساس ، ولم يبق النزاع نزاعاً بين المسيحية والإسلام ، وإنما بين قوى المادية متحدة من جهة والقيم الروحية الأصلية من جهة أخرى ، لذا فقد أصبح الكاثوليكي التقي واليهودي الصحيح العقيدة ، وكذلك المسلم كلهم عرضةً للازدراء والسخرية.

ولكن ها هو الإسلام يبقى الهدف الأول الأمامي للدعاية المعادية للدين. لماذا؟ لأن الإسلام وحده صمد ورفض أن يخضع ، **فالقبول الحرفي** لكل كلمة من كلمات القرآن الكريم على أنها الكلمة المباشرة من الله والوحي الأخير الكامل الذي لا يمكن أبداً أن يُلغَى ولا أن يحلّ محله سواه ، مع الالتزام بطاعة سنة رسولنا الكريم ﷺ في أدق تفاصيلها على أنها تفسيره الوثيق الوحيد. . كل ذلك **يعطي الإسلام درعاً** لا يُخْرَقُ ضد المبادىء الأجنبية المعادية ، وهذا ما لا يملكه أي دين آخر.

ضغط الماديين:

تدّعي الماديةُ الحديثةُ أنّ القيم الخلقية والجمالية محدودة بالزمان والمكان والظروف التي هي عرضة دائماً للتغير من خلال التقدم الإنساني المتصاعد. وبناء على هذا التفكير توصَمُ القيم الدينية السامية ، التي تعود إلى القرون الوسطى ، بأنها جامدة ورجعية ، ويُثنى على المادية (العلمية) بأنّها أوجُ التنوّر والتقدم. وحتى عند الإقرار بأنّ العلم قد فشل في إثبات خطأ الدين في نظر الماديين ، فإن تطبيقه في الحياة اليومية قد جعله على الأقل غيرَ ضروري ولا محلَّ له. لذا فإنّ

الحجة الكبرى التي يحتج بها العلماء الغربيون ضد المسلمين هي «أن الإسلام مضى زمانه ، وهو غير ملائم لهذا العصر».

إنّ الغربيين حين يصفون مجتمعات المسلمين لا يكفّون عن التأكيد قبل كل شيء على رجعيتها وجمودها وخضوعها خضوعَ العبيد لتقاليد ظالمة مضى زمنٌ طويل على الوقت الذي كانت فيه ذات فائدة. وهم في أحسن أحوالهم يصفون ما جاء به الإسلام بأنّه ملائمٌ للأعراب البدائيين الذين عاشوا في الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي.

وبالرغم من أنَّ المؤرخين الأوربيين يميلون الآن تدريجياً إلى أن يعترفوا بسموّ المدنية الإسلامية منذ ألف سنة ، ويعترفوا بفضلها على المعرفة الأوروبية في القرون الوسطى ، فإنَّ الرأي المجمعَ عليه هو أنَّ العظمة الإسلامية قد زالت ، وأنَّ ما فيها من قوة خلّاقة قد استنفد منذ القرن الثالث عشر الميلادي. وهم يتهمون طريقة الحياة (القديمة) التي يصوّرها القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ بأنها هي سببُ ضعف البلاد الإسلامية وفقرها وجهلها ومرضها وتخلفها الاجتماعي.

فالسبيل الوحيد للتقدم هو اتخاذ سبيل المادية الغربية دون منافسة! وهذا هو السبب في ما تُقَابلُ به أعمال كمال أتاتورك وأشباهه من ثناء مفعم بالحماس في كل بلاد الغرب ، بينما يُذم الشيخ حسن البنا وأتباعه بلا هوادة ولا رحمة.

وخلال الفترة الطويلة التي حكمت فيها أوروبة بلاد المسلمين صارت المؤسسات التعليمية الوطنية كلها تحت سيطرة المستعمرين ، الذين بذلوا جُلّ عنايتهم في أن يكون الجيل الجديد مقتنعاً تماماً بأنَّ المدنية الغربية سامية سمواً لا يمكن الرقي إليه ، وأن يتعلم كيفية تحقير

كل القيم التي يمثّلها الإسلام. وبهذه الطريقة نجح المستعمرون في أن يجعلوا داخل كل قطر فريقاً من أبنائه المسلمين تابعاً يدور في أفلاكهم. وحين أعطى المستعمرون الأوروبيون الحرية السياسية للمستعمرات التي كانوا يحتلونها سلموا الحكومة بصورة تلقائية إلى هذا الفريق المستغرِب نفسه الذي يحكم اليوم جميع بلاد المسلمين.

وما إنْ تسلّم هؤلاء زمام الحكم حتّى شَرعوا يحطمون كل مظهر يتجلّى فيه الإسلام. وكانت أساليبُهم غالباً عنيفة وقاسية لدرجة أكبر بكثير مما كان يتجرأ أسيادهم الأوربيون الذين سبقوهم على أن يحلموا به مجرّد حلم. ولكن لما كانوا يُحْترَمُون كأبطال وطنيين، فإنّهم بصورة عامة لم يلاقوا من المقاومة المنظمة إلا الشيء القليل إن هم لاقوا أدنى مقاومة منظمة أصلاً.

ولم تكن أعمالُهم المعاديةُ للإسلام تفشل قط في الحصول على المساندة الكاملة معنوياً ومادياً ممن بيده زمام الأمر في كل بلاد الغرب، وكلما حققوا نصراً ما قابلوهم بالتربيت على ظهورهم تشجيعاً لهم!.

وقبل مدة قصيرة كان المستشرق الكبير دكتور ج. ن. د. أندرسن الأستاذ في جامعة لندن يزور لاهور (باكستان) فألقى كلمة في جماعة كبيرة من المستمعين المسلمين امتدح فيها البلاد العربية لما قامت به من محاولات تتسم بالشجاعة لأجل التوفيق بين الشريعة الإسلامية وما تتطلبه مدنية القرن العشرين! وخلص من كلامه إلى أنه مسرور جداً لأنَّ العرب في الشرق الأوسط قد رأوا آخر الأمر النورَ الذي هداهم إلى أنه ما لم يتم إصلاح الشريعةِ الإسلامية بقوة وفق الأسس الغربية الحديثة، فإنهم لن يستطيعوا أن يتقدموا.

وأغدقَ بصورة خاصة ثناءه على الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة لنجاحه في إلغاء شرعية تعدد النساء في تونس ، مدّعياً بأنه ما دام العدل الذي يطلب القرآن الكريم إقامته بين النساء المتعددات مستحيلاً على البشر بالفطرة ، لذا فإن تعدد النساء حرامٌ ، ولعمري هكذا تكون البراعة في الفقه وإلا فلا!» .

* * *

٢ ـ الإسلام والاستشراق

يشتمل الكتابُ[١] على عدد من تعليقات المؤلفة على كتابات المستشرقين ، والتنبيه إلى أخطائهم الفادحة المزعومة ضد الإسلام ونبي الإسلام ﷺ ، ويقدم للطلبة المسلمين مفهوماً شاملاً للأسلحة الأيدولوجية التي يستخدمها المستشرقون لتدمير صرح الثقافة الإسلامية ، وتشويه تعاليم الإسلام ، وإثارة الشكوك والشبهات بين الجيل الناشىء عن مصادر الإسلام.

كما بيّنتْ فيه المؤلفةُ بأنّ الهدف الأساس للمستشرقين يتماشى مع سياسة الغرب ، ألا وهي تقسيم العالم الإسلامي ، وإثارة الفتن فيما بين بلاد المسلمين ، وأشارت إلى أنَّ المستشرقين لم يحاولوا تغيير ديننا ، بل تركونا على الإسلام لنبقى مسلمين بالاسم فحسب ، ليس فكرياً وروحياً وعملياً كما هو المطلوب ، وكشفتْ المؤلفة النقابَ عن عناد هؤلاء الحاقدين على الإسلام الذين يسهرون ليل نهار على إدانة الإسلام وتشويه سمعته.

ولعل هذا الكتاب هو الأول من نوعه في هذا الباب ، حيث لم يقم المسلمون بإخراج كتب لمكافحة السموم التي يبثّها المستشرقون باسم الدراسات الإسلامية ، بل طالبوا حكوماتهم بفرض الحظر على طباعة وتوزيع كتب المستشرقين ، وتوضّحُ المؤلفة موقفها بكل صراحة بأنَّ

---

(١) صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٧١م عن الناشر (محمد يوسف وأولاده ، لاهور ، باكستان).

الحظر على مثل هذه الكتب لا تزيدُ إلا الإقبال عليها ، فكل ممنوع مرغوب.

إنّ هذا الكتاب القيم يُعتبر دليلاً إرشادياً لا بدَّ منه للطلاب الذين يرغبون في الاستفادة من مؤلفات المستشرقين ، وبعد قراءة هذا الكتاب سوف يتحلّى الطلاب المسلمون بأفضل الأسلحة التي تساعدهم على مكافحة السموم الخفية ، والنجاة من تأثيرها ، فهو مرجع أساس ومهم لأية مكتبة إسلامية تتوفّر فيها كتب هؤلاء المستشرقين[١].

وأشارت المؤلفة إلى الحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها حيث تقول: «بعد الحرب العالمية الثانية غيّر المستشرقون والمبشّرون اتجاهم من محاولة تغيير دين المسلمين على المستوى الفردي إلى تغيير وجهات نظرهم ، وإيجاد معنى مختلف للإسلام ومفاهيمه ، وإطلاق الحركة المنظمة لصياغة جديدة للإسلام ومفهومه».

ومن بين المستشرقين الذين تتبعت المؤلفة أخطاءهم وعداوتهم للإسلام ، المستغرب (اللبناني المتأمرك) الشهير د. فيليب حِتّي الذي حاول أن يثير الشكوك والشبهات حول مصادر السيرة النبوية، والمستشرق اليهودي دافيد غوتين (David Gotein) الذي يعتبر من كبار المستشرقين في إسرائيل[٢]، ومستشرق آخر اسمه مورتز سلينشنيدير (Moritz Sleinshneider) ، وهو الذي ادّعى في كتابه «التعريف بالأدب العربي» أن الإسلام استمدّ أفكاره وعقائده وعباداته من اليهودية ، وأنّ الديانة اليهودية أفضل من الإسلام[٣].

---

(١) انظر مقدمة الكتاب «الإسلام والاستشراق».

(٢) الإسلام والاستشراق ، ص: ١.

(٣) نفس المصدر السابق ، ص: ٤٠ ـ ٤١.

كما استرعت السيدة **مريم جميلة** من خلال مقالها «التاريخ الإسلامي من منظور الاستشراق» الانتباه إلى الخيانة العلمية التي ارتكبها هؤلاء المستشرقون ، وتعرّضت لموضوعات متنوعة ذات علاقة بالعلوم الإسلامية ، وقدمت دراسة مستفيضة عن أعمال المستشرق ولفرد كانتول سميث (Wilfred Cantwell Smith) ، وهو الذي عارض وانتقد بشدة النهضة الإسلامية التي من أجلها أُسِّست الجماعات الإسلامية في شبه القارة الهندية ، وجماعة الإخوان المسلمين في العالم العربي ، وجماعة النهضة الإسلامية في تركية وغيرها[1] . ويتّهم ولفرد الإخوان بأنّهم جهلاء ، لا علاقة لهم بالعقل والمنطق[2] .

وفي نهاية الكتاب أشارت المؤلفة إلى طبيعة المؤامرة والدسائس والخيانات العلمية التي ارتكبها هؤلاء المستشرقون باسم العروبة، والتجديد ، والحداثة ، ومواكبة العصر وغيرها من النعرات الخلابة الأخرى.

وجملة القول: إن هذا الكتاب عبارة عن تجارب المؤلفة الطويلة ، وملاحظاتها ودراساتها الدقيقة للموضوع الذي دائماً كان موضع الجدل والمناقشة بين المفكرين ، فهذا كتاب لا يضاهيه كتابٌ آخر في موضوعه ، بحيث يتضمّن تقويماً عادلاً للأفكار المعادية للإسلام التي يدعو إليها المستشرقون تحت مسميات مختلفة ، ومن منابر متفاوتة ، ولمقاصد شتى ، وعلى المسلمين الحذر من مكايدهم ودسائسهم.

* * *

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص: ٦٣.

(٢) انظر: كتابه «الإسلام في العصر الحديث».

٣ ـ الإسلام في مواجهة أهل الكتاب في الماضي والحاضر

لا يوجد دينٌ واجه العداء والتضليل والهجوم وسوءَ الفهم في الغرب ومن بعض المنتسبين إليه ببطاقة الهوية الشخصية ، مثلما يحدث الآن للإسلام ، ورغم ذلك؛ فإن الإقبال عليه في الغرب يتصاعد كل يوم من جميع الأعمار والفئات ، خاصة العلماء والمثقفين منهم.

وما يميز هذا الإقبال الشديد هو زيادة دخول النساء الغربيات في الإسلام ، وذلك بعد أن وجدن فيه كما تشير الباحثة البريطانية المسلمة «هـ. بول» دينَ الحق ، ديناً واقعياً زوّدهم بما كانوا يفتقدونه ، وعرفهم على أهدافهم الصحيحة في الحياة ، وكشف لهم مغزى الحياة ، ووهبهم راحة البال ، ورسم للمرأة الطريق السليم ، وأشعرها بأنّها جزءٌ من أسرة كبيرة ، ومكّنها من نيل حقوقها ، وشقَّ طريقها في الحياة بكرامة وأمان. وما يسعد حقاً في هذا الموضوع هو أنَّ غالبية هؤلاء النساء المهتديات لم تتوقّف رحلتهنّ عند الدخول في الإسلام فقط ، بل امتدت إلى تكريس حياتهنَّ بأكملها لخدمة رسالة الإسلام والدفاع عنه أمام خصومه ، ومن هؤلاء النساء الكاتبة الأميركية المسلمة مريم جميلة ، وكتابها «الإسلام في مواجهة أهل الكتاب في الماضي والحاضر» ، له ثلاث مزايا:

الأولى: أنّه يعتبر وثيقة فريدة في تاريخ كتابات الغربيين المعتنقين للإسلام.

الثانية: يحمل رسالة مهمة وجهتها الكاتبةُ من خلال هذا الكتاب

إلى من يريدُ مكافحة خطر الصهيونية والنشاط التبشيري في البلدان المسلمة.

الثالثة: تضمُّنُه الدراسة التحليلية المهمة التي قارنت فيها الكاتبةُ بين الديانات: اليهودية والمسيحية والإسلام، والتي انتهت بنتيجة تقول: إن الديانة الإسلامية هي الوحيدة التي تحمل بكل صدق وأمانة كلمة الله، وإنّ القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يمثّل كلمة الله دون تحريف. وهي النتيجة نفسها التي توصَّل إليها «اينوك باول» صاحب كتاب «تطور الإنجيل»، بعد دراسته الطويلة للديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام، تبيّن له أن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي يقف نقياً منزهاً كاملاً كما أوحت به الذات الإلهية، دون أي تغيير أو تحريف.

هذه الحقيقة المهمة هي التي جعلت الإسلام لا يطرح نفسه بديلاً من البدائل للمجتمعات الغربية ما بعد الصناعية ـ كما يقول المفكر الألماني المسلم د. مراد هوفمان ـ بل إنه بالفعل هو **البديلُ الوحيد**، وهي التي في تصوري تفسّر الصدام الحضاري بين الغرب والإسلام، والخوف الذي يشعر به الغرب من الإسلام، والذي تحوَّل إلى غزو عسكري، وحملات تضليل، وهجوم مسعور ضد الإسلام والمسلمين، جُنّدَ له مئات من المعاهد، ومراكز الأبحاث المتخصصة، ووسائل الإعلام، وأصحاب الفكر، لوضع الخطط التي تهدف إلى تحطيمه، والتي وصلت إلى درجة تجنيد بعض العملاء والمثقفين المنتمين لثقافة الغرب والأقلام العلمانية وأصحاب الفكر الملوث والمحسوب منها على الأمة الإسلامية بالبطاقة الشخصية، لتهاجم الإسلام من الداخل بأفكارها المنحرفة والمسمومة. وهذا أمرٌ يبدو واضحاً في صورة الأقلام

المسمومة التي ينهش ويطعن أصحابها في كل مناسبة بالإسلام وتاريخه وعلمائه والأمة العربية في بعض الصحف العربية.

هذا المخطط التآمري هو الذي حذّرت منه مريم جميلة في كتابها الذي صدر عام ١٩٦٨م والذي قالت فيه: «إنّ اليهودَ هم من أدخلَ غالبيةَ الحركات المنحرفة في الإسلام بتظاهرهم باعتناق الإسلام. وإنَّ اليهودَ والصهاينة والصليبيين سوف يتعاونون معاً ضدَّ الإسلام بعد أن أدركوا بقوة أنّ الإسلام هو الدين الحق، وهذا ما يحدث الآن، وأنهم سوف يعملون على تنفير المرأة من الإسلام لأهمية وخطورة دورها في المجتمع المسلم، وذلك بتعويدها على العادات الغربية لهزّ الإيمان في نفسها، وزعزعته أو وأده في أطفال المستقبل، وسيكونُ ذلك تحت خدعة (**تحرير المرأة**) فهل ننتبّه إلى خطورة هذه المؤامرة؟».

وفي الفصل الثالث من الكتاب تؤكِّد المؤلفة على عصمة الإسلام تحت عنوان «كيف يمكن التأكد مِنْ أنَّ الإسلام هو الحقيقة الوحيدة المعصومة من التحريف؟» مما يدل دلالة واضحة على سلامة منهجها، وقوة إيمانها بتفوّق الإسلام على الأديان الأخرى، وسمو تعاليمه، وعدم مقارنته بالأديان الأخرى: «إن الإسلام يعني الاستسلام لإرادة الله من خلال الطاعة التامة لتشريعاته الواردة في القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ.

إن مسمى اليهودية مأخوذٌ من اسم قبيلة يهودا (Judah)، واسم الديانة المسيحية مأخوذٌ من اسم السيد المسيح عليه السلام. وهكذا فإنّ أسماء هذه الديانات توضّحُ الشخصانية المقيدة والمحددة لهذه الديانات. وإنّ اسمَ الديانة الإسلامية يثبِتُ عالميتها. يا له من تضادّ في وجهات النظر تلك التي نوقشت مؤخرًا في مؤتمر الحوار بين الأديان

المنعقد في واشنطن (دي. سي) حيث ذكر الدكتور إسحاق فرانك نائب الرئيس التنفيذي لمجلس الحوار اليهودي في واشنطن أنّ اليهودية تعتبِرُ نفسَها ديانة صالحة فقط لليهود ، ولا تحاول فرض الرؤى الخاصة بها على غير اليهود. وصرّح قائلاً: «إنّ صلاحية الديانة اليهودية لغير اليهود هي مجرّد معتقدات نظرية ، وليست خاضعة لتقويمنا أو حكمنا».

وبالنسبة لي فإنّ هذا يُعَدّ دليلاً دامغاً على أنَّ اليهوديةَ ديانةٌ زائفةٌ ، لأنّ الله تعالى لا يمكن أن يقيّد ديانته لشعب بمفرده. إنّ الحقيقة بطبيعتها يجب أن تكون عالمية.

إن الديانة الإسلامية ديانة متفرّدة مقارنة بالديانات الأخرى في كونها تمتلك بشكل أحادي النصَّ المقدّس الصحيح. إن القرآن الكريم يخبرنا أن اليهود والنصارى قاموا بإفسادِ نصوصهم المقدسة ، وذلك بخلط الوحي الأصلي مع التحريف البشري والتأويلات ، حتى إنّه لم يعد ممكناً التفريق بين الوحي الأصلي والتحريف البشري والتأويلات. وتحت التأثير المدمر لـ«لنقد العالمي» فإنَّ القليل جدًّا إِنْ وُجد من حاخامات اليهودية وقديسي النصارى يعتقدون في الوقت الحاضر أن كتبهم المقدسة تتضمّن الوحي الإلهي المعصوم من التحريف.

فاليهود والنصارى أنفسهم يعترفون بأنهم لا يملكون نصوصهم الأصلية ، ولكن مجرّد تراجم فقط ، والتي خضعت لتعديلات عديدة بمرور القرون وما زالت تتغير.

إلا أن القرآن الكريم موجود تماماً كما أُوحي به للنبيِّ الكريم. لقد تم الحفاظ على النص الأصلي وصيانته ، في مقابل أنّ اللغات الخاصة بالوحي السابق في الديانات اليهودية والمسيحية قد تم طمسها تماماً.

ففي الوقت الحاضر لا يمكن لأحدٍ التحدُّث بتلك اللغات ، فقط يمكن لعدد قليل من العلماء الادعاء بالقدرة على فك رموزها ، وحتى إذا ما كانت هذه الكتب المقدسة قد تم حفظها في شكلها الأصلي غير الزائف ، فلا يمكن لأحد فهمها أو تفسير أوامرها ، والقليل يمكنه ترجمتها فعلياً إلى أفعال ، وفي المقابل فإنّ لغة القرآن الكريم هي لغةٌ حية ، يمكن للملايين عبر أنحاء العالم التحدّث بها وفهمها ، وحتى الأشخاص الذي ليس لديهم الوقت الكافي لدراسة اللغة العربية ، يمكنهم التعرف على الكثيرين ممن لديهم معرفة على قدر كافٍ يُمكّنهم من شرح معاني القرآن الكريم.

وإن كلاً من الكتب المقدسة الموجودة موجهة في خطابها إلى مجموعة خاصة ، وتحتوي على أوامر ، والتي تبدو أنها مقيدة بوقت معين ومكان محدد ، بينما القرآن الكريم موجه إلى الجنس البشري كافة متضمناً كوداً خالداً يتضمّن الحياة بشكل إجمالي.

إنّ تعاليم اليهودية مقيدة بجنسية اليهود والتأكيد على عنصريتهم ، بينما قبول العلمانية هو مبدأ ينكره ادّعاء المسيحية بالعالمية»[١].

* * *

(١) تم ترجمة الصفحة الأولى والفقرة الأولى من الصفحة الثانية للفصل من الثالث من كتاب «الإسلام في مواجهة أهل الكتاب: الماضي والحاضر».

٤ ـ الحضارة الغربية تُدين نفسها

ظهرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٩٧٠م والمؤلِّفةُ كانت حديثة العهد بالإسلام آنذاك. يتألّفُ الكتابُ من مجلدين، ويمتد على مدى ١٢٠٠ صفحة، تتحدّث عن نقائص الحضارة الغربية المعاصرة، وافتقارها إلى إسعاف البشرية المضطهدة، وإنقاذها من المهالك والمهازل التي تئنّ من وطأتها منذ أمد بعيد.

ومن أبرز خصائص هذا الكتاب أنَّ المؤلفة استندت فيه إلى المصادر الغربية نفسِها لإبراز أسباب فشل الحضارة الغربية لقيادة الإنسانية، معتمدةً على الحقائق التاريخية، والأرقام الإحصائية الدقيقة، والوقائع الأساسية التي لا يمكن دحضها وإنكارها.

ولا نكونُ مبالغين إذا قلنا: إنّه لا يتوقع تأليف وإخراج مثل هذا الكتاب القيِّم الذي لا مثيل له من ناحية حُسن الترتيب، وتنظيم المعلومات، وإيراد الحقائق، وأسلوب النقد المباشر، ومهاجمة زيف الثقافة الغربية، إلا من مؤلفة ومفكرة كبيرة كمريم جميلة، فهي الكاتبةُ المسلمةُ ذات الرؤية الواضحة، والمعلومات الغزيرة، وسعة الاطلاع على المصادر الإسلامية والغربية على السواء.

خططت المؤلفة لهذا الكتاب الرائع فأحسنت تخطيطه، وجمعت المواد فأحسنت تدوينها، ثم أخرجته في شكله النهائي، لتعرض الصورة الحقيقية للحضارة الغربية ومكوّناتها، ومدى تأثيرها السلبي

على الجيل المسلم الصاعد ، وطرق تجنب مفاسدها ، وزلاتها ، وضلالاتها.

كما تناولت المؤلّفة الفاضلةُ جوانبَ الحضارات القديمة المختلفة وقوامها ، والحضارة الغربية المعاصرة ونقائصها ، ثم قدّمت دراسة تحليلية شاملة لتلك الثقافات وتضاربها مع الاتجاهات الإسلامية التي لا بديل لها ، وأثبتت بالأدلة والبراهين القاطعتين تفوّقَ الثقافة الإسلامية في كلّ مجالٍ من مجالات الحياة ، وقدرتها على إسعاف البشرية ، وتخليصها من معاناتها. ما أروعَ تلك المواد والمعلومات الضخمة التي جمعَتْها بين صفحات هذا الكتاب! ولا شك أنّ مثل هذا العمل الجليل يتطلّبُ الجهود المتواصلة ، والصبر والمثابرة المثالية ، والإخلاص ، والتفاني ، ويستغرق سنين طويلةً من أجل إنجازه.

وفي رأيي الشخصي ، حققت المؤلفةُ المُجدَّة أهداف حياتها ، ووضعتها أمامها من خلال تقديم هذا الكتاب ، كأنها قامت على قمة العالم. ولا بدّ من أنها درست وطالعت التاريخ الإنساني من أقصاه إلى أقصاه ، وخاصة التقلّبات والثورات الفكرية بكلّ ذكاء ودقة ، ومن وجهة نظرها السليمة والمحايدة. فلاحظت عيناها اليقظتان بكل دقة وتفحّص كل نقاط التحول ، والأحداث ، والانقلابات ، والعواصف ، والطوفانات ، التي سيطرت على طبيعة البشرية ، وبنظرتها الحادّة شاهدت الأوضاعَ والملابسات العالمية المنتشرة حولها ، فوصفت التيارات الحالية ، والتيارات التي قبلها في العصور المختلفة ، التي تجاوزها العقل البشري ، وأثّرت في قلب الإنسان أيّما تأثير ، وحددت المزاج الإنساني في القرون الوسطى والعصور الحديثة.

وفي الواقع فإنّ الكتاب موسوعي في نطاقه ، عالمي من حيث

الأبعاد والمفاهيم، سديدٌ في المنهج، إنساني في النقاش، عادل ومنصف في عرض المواد، موجز ودقيق في الوصف، وقبل كل شيء هو منطقي في نتائجه وتوصياته.

ابتدأ الكتاب من أقدم تاريخ للحضارة البشرية (اليونانية والرومانية)، ويرافق القارىء بمهمة خاصة لتقصي الحقائق من شُرُفات كواكب التخيلات الإنسانية، والاختلافات الجوهرية في مجال العقائد الفكرية والسياسية ومبادئها النظرية والتطبيقية، والمواقف السلوكية، والقيم الأخلاقية، والمفاهيم الفلسفية، وتحليل السياسات الاقتصادية والمالية. والكاتبة في رحلتها الطويلة، تتيح للقارىء فرصة الحبّ أو الازدراء، والإعجاب أو السخرية من أساتذته المتقدمين أو المتأخرين، من الحكام المستبدين، والطغاة الجائرين، ابتداءً من أفلاطون ونظرياته البديهية، وسقراط وتصريحاته غير الحكيمة، ونظريات وفلسفات الحكماء والمفكرين مثل مكيافيلي، وفولتير، وداروين، وهتلر، وجون ديوي، وفرويد، وويليام فوجت، وخوروشوف، وميل فورد، وأي سبيرو... وغيرهم.

أما **المجلد الثاني**، فهو يتحدّث عن العلل والمشكلات التي يُواجهها العالم الحديث، كما يمكن رؤيتها في العالم الجديد (أمريكة الشمالية) ويتعامل مع كلا الجانبين من العلوم الحديثة، والتكنولوجية، والفن، وما يشكّل تهديداً للإنسانية، حيث وصلت إلى الدرجة التي تمكّنها من تشويه العقل وفساد القلب، وتلويث الحياة نفسها، التي تمر بسرعة إلى عقلية المرتزق، والأهواء الجامحة من العنف المتحضر الذاتي، والأسر المفككة، ومحاكم الطلاق، وورطة الرجل العادي في إحدى مدن العالم المتحضرة، وجنوح الأحداث، وإدمان

المخدِّرات ، والأمراض العقلية ، والجريمة المنظمة ، وسجن البيت ، وحياة المرأة. وأخيراً خلصت إلى أنّ الإسلام هو الحل الوحيد لجميع العلل والمُعضلات ، حيث إنّ منبع هذه العلل شرٌّ واحد ، هو معصية الله ، والانحراف عن الشريعة الإلهية ، ومن هنا فعلاج هذه الأمراض واحد ، ألا وهو الاستسلام لطاعة الله وشريعته الحنيفية.

إن نطاق الكتاب وإطاره منضبط ومؤثر ، ومضامينه ومحتوياته مقتضبة وصادقة ، حيث إنها تأتي من فم الحصان نفسه. وهذا الكتاب ممتاز للعامة الذين يجب عليهم أن يقلّبوا وجوه الرأي ، ويقوموا بتوجيه الناس. كما أنّه مفيد جداً للشباب ، وسوف يساعدهم كثيراً على تشكيل عقولهم وأفكارهم ، ويحثّهم على أن يعتزوا بتراثهم وثقافتهم.

في نهاية الكتاب قائمة مفيدة جدًّا بكتب تتناول الحركات الإسلامية ، وأنصارها ومؤيديها ، مفيدةٌ لمزيد من الدراسة للذين لديهم قدر أكبر من الاهتمام بما قدم هذان المجلدان من المعلومات والمواد الغزيرة.

تستحق المؤلفة الشكر والتقدير من الجميع لتقديمها هذه المواد المفيدة التي لا يمكن جمعها إلا بجهود شاقة تستغرق مدة طويلة من الحياة في مجال البحث والدراسة ، ولا شك أن **مريم جميلة** جعلت مكتبة نيويورك العامة بيتَها الثاني لتُقدّم إلى بلدها الجديد وشعبه هذه الهدية الثمينة والتذكارية باسم دينها الجديد ، ومن أجل خدمة الإسلام ، وتؤمن بأنَّ الإسلامَ وحدَه يقدّمُ تفسيراً مقنعاً وواضحاً لمعنى الحياة والموت بشكل عاطفي وعقلي ، فهو الدين الوحيد الذي يحمل هدفاً واضحاً للحياة ، ويقدم القيمة الحقيقية للإنسان.

* * *

٥ ـ رحلتي من الكفر إلى الإيمان

نسمع بين الحين والآخر عن غربيين بارزين يعتنقون الإسلام ، ولعلّ أشهرهم في الفترة الأخيرة الفيلسوف الفرنسي «رجاء غارودي» ، كان إيمانُه بالإسلام ضربة خطيرة وقاصمة لأعمق قلاع الغرب وأقواها ، وهي قلعة الفكر الفلسفي ، بل وجاء إيمانه أيضاً ضربة قاتلة للماركسية ، التي لا يكابِرُ أحدٌ في أنه كان أكبر أساتذتها في فرنسة إن لم يكن أوحدهم. ولعل هذا هو السبب الذي أسكت المشعوذين في مصر المسلمة عن التعليق على إسلام غارودي ، بل لم يتجرّؤوا حتى على الهجوم عليه كعادتهم. ومما يؤسف له أنّ دعاة الإسلام سكتوا عن الترحيب بهذا الحدث وتناولِه (باستثناء كتاب صدر مؤخراً حول فلسفته).

كان غارودي أحد القلائل الذين كتبوا عن تجربتهم مع الإسلام. وقد جعل مدخله إلى هذا الحديث نظرته إلى الإسلام نفسه كدين ، وإشارته إلى نواحي القوة والعطاء في هذا الدين. وسبق غارودي في هذا المجال سيدة يهودية أمريكية اعتنقت الإسلام في عام ١٩٦١م وسافرت إلى باكستان لتقيم مع زوجها المسلم هناك، وهذه السيدة هي: مريم جميلة.

ومن الواضح أنَّ السيدة **مريم جميلة** ليست على نفس مستوى شهرة الفيلسوف الفرنسي أو غيره من الشخصيات التي اعتنقت الإسلام مؤخراً. وهي تختار عن عمد إخفاء شخصيتها ، فلا تتحدّث عن

تجربتها الروحية المؤدية بها إلى الإسلام إلا في إطار دور القرآن الحاسم في إيمانها ، حيث يتغلغل إلى نفسها أولاً ككلام متلوّ مجرد استمعت إليه بدون فهم من أسطوانة لشيخ مصري ، ثم قرأته من خلال ترجمات عديدة للمعاني ، واستنارت في فهمه بالسنة الشريفة. كما تذكر أنّ إيمانها بالإسلام تعزز عندما وجدت فيه الحلّ لمشكلات الفكر الكبرى في الغرب كمشكلة البحث عن معنى الحياة إزاء النهاية المحتومة بالموت.

ولو كان كتابُ مريم جميلة اقتصر على سرد تجربتها الروحية المؤدية للإسلام لما تميز كثيراً عن كتابات مشابهة. ولكن تفرّده وأهميته يرجعان إلى أنه ليس مجرد عرض لحادثة شخصية ، بل لموضوع حيوي يهمُّ المسلمين على امتداد عالمهم الفسيح ألا وهو **موضوع علاقتهم مع أهل الكتاب**.

وقد صدر الكتاب في فترة عانى فيها المسلمون العرب من هزيمة ساحقة على يد قسم من أهل الكتاب. ولا نقول المسلمين العرب ، بل نحدد التعبير للدقة فنقول: هزيمة الحكام الطواغيت في بعض الدول العربية.

كما أنَّ الكتاب صدر أيضاً في وقت تشتد فيه الهجمة الصليبية الكبرى على الإسلام ممثلةً بطليعتها حركة التبشير التي وصلت بها الجرأة إلى العمل والنجاح (بكل أسف) في بعض البلدان الإسلامية القُحّة كباكستان حيث تقيم الكاتبة ، والتي أُسست كدولة إسلامية خالصة.

وإزاء هذه الأحداث الجسيمة تكتب مريم جميلة شهادتها للتاريخ ،

تضمِّنُها معلوماتها عن عقائد وتاريخ أهل الكتاب ومواجهتهم ضد الإسلام.

إنّ ما يدل على حسن إسلامها اهتمامها بأمر المسلمين ، ولو على حساب الاستطراد في تفاصيل تجربتها الشخصية. وتبرهن على وحدة الأمة الإسلامية عندما تهتم ـ وهي أمريكية الأصل المقيمة في باكستان ـ بالقضية الفلسطينية على بعد آلاف الكيلو مترات من فلسطين ، وذلك في وقت كان العرب المسلمون لا يتحمّسون بهذا القدر لقضية وصفوها بالقضية المركزية لما يسمى بالقومية العربية التي طرحها بعضهم في مواجهة الإسلام.

وتقسم مريم جميلة كتابها إلى قسمين رئيسين: **أولهما**: عن اليهود ، **والثاني**: عن النصارى. وهي تبدأ حديثها في كل قسم منهما عن عقائد هذين الدينين ، مركزة على انحرافهما عن الأصل السماوي ، مستدلة على هذا الانحراف بأقوال مَنْ ينتمون إليهما ، وليس بأقوال المسلمين إلا فيما ندر.

وتُبْرِزُ في هذا الصدد كتابة الكتب المقدسة على أيدي أحبار أو قساوسة بعد وفاة الأنبياء المنسوبة إليهم هذه الكتب ، يقرّون بأنها من وضع البشر.

وعند حديثها عن اليهود ، تركز على كراهيتهم للإسلام منذ أن أُوحي به ، وتآمرهم على دولة الرسول ﷺ ، وتذكر لنا أنّ اليهود البارزين الذين أقاموا في ظل دولة الإسلام في الأندلس أو مصر كانوا يبطنون الغدر لهذه الدول ، كما تقتبس فقرة من كتاب إسرائيلي يشيد

في عام ١٩٥٥م بضرب جماعة الإخوان المسلمين على يد قادة الثورة المشؤومة.

وفي العقيدة اليهودية نلمحُ النزعة العنصرية، والحطَّ من مكانة الكثير من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن، وتشويه صورتهم. ومما يلفت النظرَ تركيزُ هذه العقيدة على الحياة الدنيا وإغفالها للآخرة.

أما عباداتهم فينظر فيها إلى ذلك التمحور الغريبِ حول القدس والعودة إلى أرض الميعاد.

وتكتمل الصورةُ عندما نجد مفهومهم الديني عن الحرب مضاعفاً بوحشية دموية بشعة، تتجلّى في ممارستهم الإجرامية في لبنان وفي غزة في فلسطين، وتؤكد أنَّ ما يحدث ليس مناقضاً لجوهر الدين اليهودي كما يذهب البعض، بل هو تحقيقٌ وتجسيدٌ لجوهر هذا الدين.

وأشد فصول بحث مريم جميلة عن اليهودية إثارة هو تناولها لتاريخ اليهودية الحديث، ونشأة الحركة الصهيونية. ويختلف مدخلُها عن الأسلوب العلماني الذي يميز الدراسات المعالجة لهذه الموضوعات. فهي تخلُصُ إلى ترابط اليهودية مع الصهيونية ومع الاستعمار الغربي ضد الإسلام.

وتنتقل الكاتبة لعلاج امتدادات المأزق الصهيوني كما يتجلّى في دولتهم التي أقاموها على أرض فلسطين السليبة، كما تقترح الحلول المناسبة لمواجهة ما كان يسمى قبل سنوات بإزالة آثار العدوان.

وأما القسم الذي تدرس فيها مريم جميلة **المسيحية** فهو مهم، لأنه يأتي بمعلومات ووجهات نظر جديدة على القارىء، فهناك التتبع المفصّل للأصول الوثنية التي دخلت في المسيحية المحرَّفة، وهي

أصول من الأساطير والفلسفات اليونانية والرومانية.

وأهمُّ فصول بحثِ **مريم جميلة** في المسيحية هو آخرُها: المخصص لدراسة ظاهرة التبشير، كمحاولة لفرض التغريب على العالم الإسلامي، ومساعدة الاستعمار في نشاطاته، وحل المشكلة المسيحية في الغرب على حسابات شعوب أخرى.

وتحلل الكاتبة أبعادَ الظاهرة ونقاطَ ضعفها وقوتها، وأساليب عملها بتركيزٍ رائعٍ يستحق القراءة، مثله في ذلك مثل خاتمة الكتاب التي تلخّص بعض مبادىء الإسلام في أسلوب واعٍ.

وجملة القول: إن كتاب «**رحلتي من الكفر إلى الإيمان**» الصادر عن دار المختار الإسلامي جديرٌ بالقراءة لأسباب عدة: فهو يقدّم إلى القارىء الكثير من المعلومات حول عقائد وأفكار أهل الكتاب، مما لا يُنشَر عادةً في الإعلام أو يناقش. ولعلّ الدرس الأكبر الذي يظهر من هذا الكتاب هو إبراز خيانة العديد من المسلمين ـ وبالذات ممن يُطلَق عليها المثقفون ـ لدينهم، ففي الوقت الذي تقوم فيه السيدة الأمريكية المهتدية بتناول قضايا العالم الإسلامي في مواجهة أعدائه، وتسعى إلى كشف ما يدبره قومها أنفسهم ضد المسلمين، نجدُ الكثير ممن يحملون أسماءً إسلامية يكتبون وينشرون للطعن في الإسلام، ولترويج العقائد اللادينية المعادية له، ونتعلم أنّ الإسلام ليس انتماءً للإسلام فقط، فليست مصادفةً أنَّ أغلبية الشيوعيين يحملون أسماء إسلامية، بينما كانت مريم جميلة تُدعى مرغريت قبل إسلامها[1].

* * *

(١) د. محمد يحيى، مجلة «المختار الإسلامي»، العدد ٣٦، السنة السادسة (يوليو/ أغسطس ١٩٨٥م)، ص. ص. ٨٦ ـ ٩٢.

٦ ـ الإسلام في النظرية والتطبيق

تتجلّى أهمية الكتاب[١] من محتوياته ، حيث يتعرّض لموضوعات تتعلّق بمكونات المجتمع الإسلامي مثل: العقلية المسلمة ، والإسلام والصحة العقلية ، والإسلام والنظافة ، والآداب الإسلامية وقواعد السلوك، والإسلام والثقافة الغربية، والإسلام والفنون، والمرأة المسلمة ودورها في المجتمع ، وأساسيات المجتمع الإسلامي إلخ. . .

في الواقع إنّ المقالات التي تؤلِّف هذا الكتاب كتبتها المؤلفةُ للمثقفين من غير المسلمين ، الذين يهمهم اكتشاف ما يعنيه الإسلام حقيقةً للمؤمن الصادق ، وكذلك لأولئك الناس من ذوي الأصل المسلم الذين لم تسنحْ لهم الفرصةُ لاعتناق عقيدة سليمة بسبب تربيتهم الحديثة.

تقول المؤلفة: «إنّ هذا الكتاب ليس دراسةً شاملةً لمبدأ الإسلام ، لأن علماء مسلمين آخرين قد قاموا بهذا العمل أحسن بكثير مما آمُلُ به. فهو مجرد محاولة لأركز على مظاهر إسلامية مختارة ، وتطبيقاتها العملية ، والتي هي ـ في رأيي المتواضع ـ لم تُبحَثْ بما فيه الكفاية باللغة الإنكليزية»[٢].

---

(١) صدرت الطبعة الأولى من الكتاب من مكتبة الفلاح بدولة الكويت عام ١٩٧٨م.

(٢) مقدمة المؤلفة «الإسلام في النظرية والتطبيق» ، ص: ٩٠.

أما القسم الثاني من هذا الكتاب فهو يركز على تلك المظاهر في الإسلام التي تتقبلها العقلية الحديثة بدرجة كبيرة ، بطريقة لا ممالأة فيها .

أما القسم الثالث فيُظهِرُ كيف أنَّ الإسلام بالفعل طُبّقَ في العصور الأخيرة ، ويؤكد للمتشككين الذين يدّعون أن طريقة الحياة التي أوجدها هذا الدين ، لا تعدو أن تكونَ «قوة» استنفدت قدرتها الخلاقة منذ ألف سنة . وعلى عكس ذلك ، فإنّ الإلحاح في جميع أنحاء العالم على بعثٍ إسلامي يكتسبُ قوة يوماً بعد يوم .

قام بتعريب هذا الكتاب السيد س . حمد ، وهو نفسُه يسلط الضوء على أهميته ومزاياه فيقول :

«هذا كتاب أقدّمه للجيل الناشىء المسلم ، الداعي إلى الله في هذا العصر ، الذي كثرت فيه الشهوات ، وغلبت فيه النزوات ، واختلط الحق بالباطل ، وخيّم ظلامُ الجاهلية المادية ، حتى غدا هذا الجيلُ يجد صعوبةً في تحسس طريقه في هذه الدياجير المظلمة ﴿ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ ﴾ [النور : ٤٠]» .

ويضيف قائلاً : «وأهم ما يميّز الكتاب أنّ كاتبته السيدة مريم جميلة أمريكية الأصل ، يهودية النشأة ، هداها الله إلى الطريق المستقيم ، طريق الإسلام ، خبرتْ ديانتها ، وخبرت الديانة النصرانية الحالية ، وخبرتْ الثقافة الغربية والحضارة المادية ، فعندما اعتنقت الإسلام لبى في نفسها نداء الضمير ، نداءُ الفطرة ، وعندما سبرت غورَ الإسلام أخذت تكتبُ منافِحةً عنه عن تجربةٍ وفهمٍ ودرايةٍ وقناعةٍ ، تبيّنُ زيفَ الباطل في معتقداتها السابقة ، وتكشِفُ طِلاء الضلال وفتنته عن بهارج

المدنية الغربية وحضارتها ، وتقارِنُ ذلك بالإسلام وتعاليمه وآدابه وطرق عيشه في الحياة ، وتيسيره لها بحجج لا تقبل الدفع ، وبراهين ساطعة لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد»[1] .

أما الخاتمة ، فهي تقدّم تحليلاً لمظاهر نهضة إسلامية عالمية ، وإجراءاتٍ معيّنة تقود بشكل أفضل لتحويل هذه الرسالة إلى حقيقة واقعة .

* * *

(١) مقدمة المترجم «الإسلام في النظرية والتطبيق» ، ص: ٥ ـ ٦ .

٧ ـ أحمد خليل (قصة لاجىء فلسطيني عربي)

إنّ هذا الكتاب عبارةٌ عن ترجمة حياة لمهاجر عربي فلسطيني ، بدأت المؤلفةُ في تأليف كتابها هذا منذ أغسطس ١٩٤٩م حينما كانت في الخامسة عشْرة من عمرها .

الفصل الأول من الرواية ، يبدأ الحديث فيه عن طفولة أحمد في قرية صغيرة بجنوب فلسطين ، وعن بيته وبيئته وأعضاء أسرته ، وينتهي بذكر المأساة المفجعة التي حلت به وبأسرته ، إذ أُخْرجوا من ديارهم أيام الحرب الفلسطينية في ١٩٤٨م ، وهُدّمت القريةُ بأسرها ، بل قُضي على كامل نظام الحياة فيها باستخدام القوات العسكرية الصهيونية الهائلة .

أما **الفصل الثاني** ، فيبدأ النصف الثاني منه بأن أحمد خليل (الذي كان قد بلغ الثامنة عشْرة من عمره ، وتزوّج منذ سنتين) يقرّر مغادرة مخيم اللاجئين من دون إذن من الحكومة ، فيجمع الحوائجَ المتبقيةَ لعائلته ، ويسافر للحج ، وينوي الإقامة بالمدينة المنورة إلى أن يحين وقتُ العودة إلى فلسطين .

أما البقية الباقية من الرواية ، فإنها تدور حول ابن عمه (راشد) الذي كان رفيق سفره ، وصديق حله وترحاله ، وحول أخيه الصغير (خليفة) الذي كان مصاباً في عقله ، وابنه الوحيد (إسماعيل) الذي كان في حالة شك وعنف متزايدين على مرّ الزمن ، وحول عبد الرزاق الطالب الكفيف بالأزهر الذي كان أحمد خليل قد كفله ، فكان راحة لقلبه ، وسكناً لروحه الجريحة .

الحلقة الأولى من الرواية تؤكّدُ ما عليه المادية الغربية من الأخطار الوحشية ، متخفية تحت شعار الامبريالية الصهيونية وأهدافها ، كما أنَّ الحلقات الأخيرة تؤكد ما لصناعة الزيت في السعودية من الأضرار البالغة والآثار السيئة على الحياة اليومية. وفي آخر القصة ، النهاية لهذه العائلة المسلمة العربية[1].

* * *

---

(١) انظر: كتاب «الهجرة إلى النفط» للدكتور نادر الفرجاني ـ ط مركز الوحدة العربية للدراسات في بيروت (ن).

٨ ـ الإسلام في مواجهة الغرب

تقدم المؤلفة في هذا الكتاب تحليلاً رائعاً لحماقة وعبث المساس بالمبادىء والقيم الروحية للإسلام في محاولة يائسة لإثبات مدى توافقها مع التطلعات المادية ، وإنكار كل ما يتعارض مع روح الغرب الحديث. كما أنها عارضت بشدة المتفرنجين في المجتمع الإسلامي بأدلة ساطعة ، وبينات أكيدة ، حيث إنّها ترى أن المجتمع الإسلامي يمكن أن يزدهر ويسهم في حضارته التكنوقراطية دون التضحية بمبادئه الداخلية الخاصة بوجوده وبقائه.

هذا ، ويكشف هذا الكتاب القناع عن مقتطفات من الدعاية العدائية ضد الإسلام والمسلمين. ومن أهم مزاياه أنه لا يكتفي بعرض الهجمات التي يتعرض لها الإسلام في جميع نواحيه من قبل المستشرقين الغربيين والمسلمين المتفرنجين فحسب ، بل يتناول أيضاً بشكل علمي ومنطقي العقلية التي يستند إليها خصوم الإسلام وأعدائه الداخليين والخارجيين على السواء ليفهم القارىء ويدرك كيفية تفكيرهم.

أمّا المؤلفون الذين تم انتقادهم في هذا الكتاب ، فهم «ولفرد كانتوِل سميث» مدير المعهد الإسلامي بجامعة ميل جيل في كندا ، والمؤرخ الإنكليزي الشهير أرنولد توينبي ، وويليام دوغلاس القاضي حالياً بالمحكمة العليا في أمريكة ، وجوليان هكسلي عالم الأحياء ومدير اليونسكو سابقاً من ١٩٤٦م ـ ١٩٤٨م ، وألبرت سوتيزر ،

والباحثة إيليز روزولت ، وجون سي باديو الأستاذ السابق بالجامعة الأمريكية بالقاهرة والسفير الأمريكي حالياً في مصر.

أمّا المسلمون المتفرنجون الذين شملهم نقد المؤلفة فهم: ضياء آلب تورك ، والدكتور طه حسين ، وآصف عساف فَيْضي ، وغيرهم. كما تعاملت المؤلفة في سياق فلسفي مع موضوعات مثل تحريم التصوير ، وأهمية القيم ، وينتهي الكتاب بجواب السؤال التالي «**هل التغريب أمر حتميٌّ**»؟؟

* * *

٩ ـ شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث[١]

يشتمل الكتابُ على ثلاثة أبواب :

الباب الأول : يتحدّث عن شهيد الحركة الإسلامية في تركيا العلاّمة **الشيخ بديع الزمان سعيد نورسي** ، وهو يعدُّ من أبرز الشخصيات الإسلامية بتركية في النصف الأول من القرن العشرين ، وهو أيضاً أبرز الشخصيات التي ركّزت على الجهاد السلمي بالكلمة في مواجهة الحركات السياسية الرسمية وغير الرسمية والعنيفة ضد الأسس والقواعد والمبادىء الإسلامية بالمجتمع التركي .

تعرّض للسجن والنفي عدّةَ مرات ، منها ما هو خارج تركيا ، ومنها ما هو داخلها في زمن كمال أتاتورك ، لكنّه لم يتراجع عن الدفاع عن الإسلام ومبادئه عبرَ الكلمة والخُطب والمواعظ والتوجه السلمي .

وهو أول من تقدّم للسلطانين العثمانيين عبد الحميد الثاني وخَلَفه محمد رشاد بفكرة إنشاء جامعة علمية إسلامية بتركية تشبه جامعة الأزهر المصرية ، لكنّ ظروف الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) والانقلاب العسكري على الدولة العثمانية حالا دون ذلك .

ورغم أنّ سعيد نورسي لم يتبع أيَّ أسلوب جهادي عنيف في

---

(١) قام بترجمة وتعريب هذا الكتاب الأستاذ طارق السيد خاطر ، وطُبع بدار المختار الإسلامي للنشر والتوزيع بالقاهرة

مواجهة سلطات الجمهورية العلمانية المعادية للإسلام فإنّه تعرّض للأذى على أيدي العلمانيين الكماليين ، وأسلوبه في الجهاد السلمي جعله مضربَ المثل في تركيا المعاصرة في النضال بالمنهج المدني .

وقد قالت عنه جمعية الدفاع عن المظلومين التركية في ندوة أقيمت في فبراير ٢٠٠٨م: «إنّه الرجلُ الذي لم يقدِّمْ أيَّ تنازلات بخصوص الحرية ، وامتنع عن قبول هدايا السلطان عبد الحميد الثاني (توفي ١٩١٨م) أو تكليف أتاتورك (توفي ١٩٣٨م) له بالعمل واعظاً عاماً لولايات شرق تركية» .

وفي **الباب الثاني** ، تتحدّث مريم جميلة عن **عثمان دان فوديو** الشيخ الثائر مع أولاده وأحفاده في إفريقية . عثمان دان فوديو ـ وهو معروف لقليل من الإنكليز ، لكنّه لبضعة ملايين من سكان السودان الغربي ـ يعتبر بطلاً قومياً وقائداً روحياً يأتي بعد النبي ﷺ نفسه عندهم .

قصة عثمان دان فوديو هي قصة الجهاد التي نتجت عن تأسيس الحكم الفولاني (الفيلاني) لما يُعرَف الآن بالأقاليم الشمالية لنيجيرية في نهاية القرن الثامن عشر .

كان هذا البلد مقسَّماً بين عدة ممالك صغيرة ، معظمها يتكلم لسان الهوسا ، وهي بالاسم مسلمة ، ولكنّها في حرب مستمرة فيما بينها . ولد عثمان ، المعروف بشيخو (الشيخ) ، في منطقة غوبير في حوالي عام ١٧٥٤م . كان أبوه فوديو فولانياً من عشيرة «توردة» ، وكان شيخو وأخو عبد الله قد نشآ على تعاليم الإسلام على المذهب المالكي .

في سن مبكرة ، زار مدينة «أغادير» الصحراوية ، حيث استقبله

سلطانها استقبالاً حاراً ، وبقي فيها للدراسة بضع سنين كان خلالها تلميذاً نجيباً ، وأثناء عودته من أغادير ، استقبله ملك غوبير «باوا جان غوارزو».

عاش شيخو بضع سنين في ضيافة الملك في مدينة «الكلاوا» وعمل معلّماً لأبناء البيت الملكي «ياكوبا» و«يونفا» و«نفاتا».

اختار وريث الملك باوا الملك «نفاتا» دينَ المشركين ، وعمل على وقف انتشار الإسلام ، فقد أعطى أوامره بأنه لا يُسْمح لأيٍّ إنسان أن يصبح مسلماً ، إلا أن يولد مسلماً ، وعلى كل الذين أسلموا أن يرجعوا إلى دين آبائهم. وحرّم «**نفاتا**» على الرجال أن يعتمُّوا ، وعلى النساء أن يغطّين وجوههن.

انسحب شيخو إلى قرية **دِغِل** رافضاً كفرَ «**نفاتا**» ، حيث عاش هناك منعزلاً خلال فترة حكم نفاتا ووريثه ياكوبا.

إنَّ تعاليمَ شيخو الحماسية قُوبلت بنجاح واسع ، وخصوصاً بين رجال قبيلته ، وبسرعة جمع حوله عصبة صغيرة من المتحمسين الذين تعلقوا بكلماته واعتبروه سيدهم.

لقد عاش شيخو ليرى نتيجة جهاده. لقد وحد الإسلام تحت راية رفعها عالياً. لقد أصبح الفولاني من قبيلة الرعاة الرُّحَّل ، الجنس الحاكم في كل ولايات الهوسا. كان رجلاً مخلصاً في إيمانه ، وصاحب عقيدةٍ دينية قوية ، لديه ثقة لا يعتريها شك في دعوته الربانية ، وشخصيته أعطت لأتباعه ثقة مشابهة لثقته. عاداته البسيطة وحياته الشاقة كانت مختلفة تماماً إذا ما قورنت بحياة الحكام الوثنيين المتأثرة بمظاهر البرابرة ، وشيخو لم يكن جندياً في نفسه ، فقد أرجع نجاحه إلى فضل الله فقط.

بعد تقسيم دولته ، اعتزل شيخو الناس ، وسخّر نفسه لحياة التعليم ، أولاً في **سيفاوة** ، ثم في مدينة **سوكوتو**. وهنا مات في سنة ١٨١٧م ، ودُفن داخل جدران المدينة ، حيث ما زال قبره مكاناً للزيارة.

عبّر شيخو قبل موته عن أمنيته في أن يكون ابنه بيلّو خليفته أميراً للمؤمنين ، وعندما مات شيخو كان أخوه عبد الله في غواندو ، على بعد ستين ميلاً. وعندما سمع بموت شيخو سار مباشرة إلى سوكوتو ، ولكن في الوقت نفسه كان بيلو قد اختير رسمياً أميراً للمؤمنين ، وأغلق بوابات المدينة في وجه عمه.

أما البابان الثالث والرابع للكتاب ، فهما يتركزان على **شخصية الإمام الشهيد حسن البنا** وجماعة «الإخوان المسلمين».

ولد حسن البنا في المحمودية بمصر عام ١٩٠٦م ، لأسرة بسيطة ، فقد كان والده يعمل مأذوناً ، ويبدو أنّ مقومات الزعامة والقيادة كانت متوفرة لديه ، ففي (**مدرسة الرشاد الإعدادية**) كان متميزًا بين زملائه ، ومرشحًا لمناصب القيادة بينهم ، حتى إنّه عندما تألفت (**جمعية الأخلاق الأدبية**) وقع اختيار زملائه عليه ليكون رئيسًا لمجلس إدارة هذه الجمعية.

غير أنَّ تلك الجمعية المدرسية لم تُرضِ فضولَ هذا الناشىء ، وزملائه المتحمسين ، فألفوا جمعيةً أخرى خارج نطاق مدرستهم ، سموها (**جمعية منع المحرمات**) وكان نشاطها مستمدًا من اسمها ، عاملاً على تحقيقه بكل الوسائل ، وطريقتهم في ذلك هي إرسال

الخطابات لكل من تصل إلى الجمعية أخبارُهم بأنهم يرتكبون الآثام ، أو لا يُحسنون أداء العبادات.

ثم تطوّرت الفكرة في رأسه بعد أن التحق بمدرسة المعلمين بدمنهور ، فألف (**الجمعية الحصافية الخيرية**) التي زاولت عملها في حقلين مهمين هما:

١ ـ نشر الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، ومقاومة المنكرات والمحرمات المنتشرة.

٢ ـ مقاومة الإرساليات التبشيرية التي اتخذت من مصر موطنًا ، تبشر بالمسيحية في ظل التطبيب ، وتعليم التطريز ، وإيواء الطلبة.

بعد انتهائه من الدراسة في مدرسة المعلمين ، انتقل إلى القاهرة ، وانتسب إلى دار العلوم ، واشترك في (**جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية**) وكانت الجمعية الوحيدة الموجودة بالقاهرة في ذلك الوقت ، وكان يواظِبُ على سماع محاضراتها ، كما كان يتتبع المواعظ الدينية التي كان يلقيها في المساجد حينذاك نخبة من العلماء العاملين.

ويبدو أن فكرة الإخوان قد تبلورت في رأسه أول ما تبلورت وهو طالب بدار العلوم ، فقد كتبَ موضوعًا إنشائيًا كان عنوانه «ما هي آمالك في الحياة بعد أن تتخرّج؟» ، فقال فيه: «إن أعظم آمالي بعد إتمام حياتي الدراسية أمل خاص ، وأمل عام». وفي مارس من عام ١٩٢٨ تعاهد مع ستة من الشباب على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في الإسماعيلية وهم: حافظ عبد الحميد ، أحمد السكري ، فؤاد إبراهيم ، عبد الرحمن حسب الله ، إسماعيل عز ، وزكي المغربي.

وتجدر الإشارةُ إلى أنّ الأحزاب المصرية قاومت فكر حسن البنا ، وحالت دون توسّع رقعة الإخوان المسلمين السياسية ، ومن تلك الأحزاب ، حزب الوفد (أكثر الأحزاب انتشاراً في ذلك الوقت) والحزب السعدي. وكان البنا قد خاض الانتخابات أكثر من مرَّة بدائرة الدرب الأحمر بالقاهرة ، وكان بها المركز العام لجماعته ، وكان يقطنُ بها بحي المغربلين ، لكنّه لم يفز في أي مرة لا هو ولا زملاؤه في أي دائرة بما فيهم أحمد السكري سكرتير الجماعة ، وكان مرشّحاً بالمحمودية موطن مولده.

أعلن النقراشي (رئيس وزراء مصر في ذلك الوقت) في مساء الأربعاء ٨ ديسمبر ١٩٤٨م قراره بحلّ جماعة الإخوان المسلمين ، ومصادرة أموالها ، واعتقال معظم أعضائها ، وفي اليوم التالي بدأت حملة الاعتقالات والمصادرات. ولما همّ الأستاذ حسن البنا أن يركب سيارة وُضع فيها بعض المعتقلين اعترضه رجال الشرطة قائلين: لدينا أمر بعدم القبض عليك. ثم صادَرت الحكومةُ سيارته الخاصّة ، واعتقلت سائقه ، وسُحب سلاحه المُرخص به ، وقبضت على شقيقَيْه اللذين كانا يرافقانه في تحركاته ، وقد كتب إلى المسؤولين يطلبُ إعادة سلاحه إليه ، ويُطالب بحارس مسلح يدفع هو راتبه ، وإذا لم يستجيبوا ، فإنه يُحَمّلهم مسؤولية أيّ عدوان عليه.

في الساعة الثامنة من مساء السبت ١٢ فبراير ١٩٤٩م كان الأستاذ البنا يخرجُ من باب (جمعية الشبان المسلمين) ويرافقه رئيس الجمعية لوداعه ، ودقّ جرس الهاتف داخل الجمعية ، فعاد رئيسها ليجيب الهاتف ، فسمع إطلاق الرصاص ، فخرجَ ليرى صديقه الأستاذ البنا وقد أصيب بطلقات تحت إبطه وهو يعدو خلف السيارة التي ركبها

القاتل ، ويأخذ رقمها وهو رقم «٩٩٧٩» والتي عُرِفَ فيما بعد أنها السيارة الرسمية للأميرالاي محمود عبد المجيد المدير العام للمباحث الجنائية بوزارة الداخلية ، كما هو ثابت في مفكرة النيابة العمومية عام ١٩٥٢م. لم تكن الإصابة خطرة ، بل بقي البنا بعدها متماسك القُوى كامل الوعي ، وقد أبلغ كل من شهدوا الحادث رقم السيارة ، ثم نُقل إلى مستشفى القصر العيني فخَلع ملابسَه بنفسه.

لفظ البنا أنفاسه الأخيرة في الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل ، أي بعد أربع ساعات ونصف من محاولة الاغتيال ، ولم يعلم والده وأهله بالحادث إلا بعد ساعتين أخريين ، وأرادت الحكومةُ أن تظل الجثة في المستشفى حتى تخرج إلى الدفن مباشرة ، ولكن ثورة والد الشهيد جعلتها تتنازل فتسمح بحمل الجثة إلى البيت ، مشترطة أن يتم الدفن في الساعة التاسعة صباحاً ، وألا يقام عزاء!. اعتقلت السلطةُ كلَّ رجلٍ حاول الاقتراب من بيت البنا قبل الدفن ، فخرجت الجنازة تحملها النساء ، إذ لم يكن هناك رجل غيرُ والدِه ومكرَّم عبيد باشا الزعيم القبطي الذي كان تربطه علاقة صداقة بالأستاذ حسن البنا.

وفي خاتمة الكتاب ، تدعو المؤلفة المسلمين إلى أن يستيقظوا حيث تقول: «في الوقت الذي تعمل فيه شرور الإلحاد المادية المدعومة من جميع القوى التي تملك التكنولوجيا الحديثة على تدميرنا روحياً وحضارياً وسياسياً ليلَ نهارَ دون توقف؛ نختار نحن المسلمين بدلاً من الالتزام بالدين والإيمان العميق بالله سبحانه وتعالى ، وبحبله المتين في جهد موحد ضد أعدائنا الحقيقيين. . . نختار ببلاهة السير على طريق الحضارة الأجنبية الغربية بأمل خادع في نيل الكرامة الاجتماعية ، ومتاع

ولذات هذه الحياة الزائلة مع تجاهل تام للحياة الأخروية الأبدية ، وبالتالي نهمل نحن المسلمين تماماً واجباتنا تجاه الخالق عز وجل ، وتجاه إخواننا المسلمين.

ليس هذا هو الطريق إلى التقدم ، إنه ليس سوى الاتجاه نحو السقوط والضياع والهلاك أفراداً وجماعات . .

إخواني ! أخواتي في الإسلام! اتبعوا هدي القرآن ليس كمجموعة من الشعائر التعبدية فقط ، بل كمرشد عملي للسلوك في حياتنا اليومية الخاصة والعامة أيضاً ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾ [النساء : ٨٤].

اتركوا جانباً الخلافات الطائفية والنعرات المذهبية ، وهيّا للتعاون والعمل بتوافق في سبيل الله لنصرة الحركات الإسلامية أينما وجدت.

لا تضيّعوا وقتكم الغالي الثمين في الأشياء غير المجدية ، وبمشيئة الله سيتوِّج المولى حياتكم بالفلاح العظيم في الدنيا ، وبالفوز الأعظم في الآخرة»[١].

* * *

(١) «شهداء الحركة الإسلامية» لمريم جميلة ، ص: ٨٣ ـ ٨٤.

الخاتمـــة

بعد عرض هذه الدراسة المتعلّقة بحياة الداعية الفاضلة **السيدة مريم جميلة** ، وأفكارها ، ومنهجها ، ومدى اهتمامها بالقضايا الإسلامية المعاصرة ، وعملها على تربية الجيل المسلم الصاعد ، واستعراض أهم مؤلفاتها نستطيع أن نوجز ما انتهينا إليه في النقاط التالية :

١ ـ على الرغم من أنها ولدت في مدينة نيويورك الأمريكية عام ١٩٣٤م لأبوين يهوديين ، ونشأت وترعرعت في أحضان الثقافة الغربية الفاسدة والمتلوثة بركام الجاهلية ، ومع ذلك لم تذق الخمر في حياتها ، ولم تخادن الرجال ، ولم تحضر حفلات القوم ، وكل هذا عجيب من مثلها ، ودليل على عناية الله بها .

٢ ـ أثناء حضورها لدروس الحاخام اليهودي ، سنحت لها الفرصة بالاطلاع على تناقضات الديانة اليهودية ، مما جعلتها تكتشف زيف اليهود وفسادهم ، واكتشفت أيضاً حقد علماء اليهود على المسلمين وعلى الرسول ﷺ ، حتى بدأت تنفر من اليهودية ، وتقترب من هدي الإسلام .

لذا فإنها أقبلت على القراءة المطوَّلة عن كل ما يتعلق بالعرب والمسلمين ممّا أدى إلى دخولها إلى حظيرة الإسلام .

٣ ـ بعد إسلامها ، قدّمت مريم جميلة نموذجاً فريداً للمرأة المسلمة

التي بحثت عن الحقيقة ، وصبرت وصابرت ، حتى عرفت الطريق إلى النجاة ، فهي تدعو إلى الله ، وتقاوم شريعة المبطلين ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. فمعظم مؤلفاتها تدور محاورها على إبراز نقائص الحضارة الغربية الفاسدة ، وافتقارها إلى إسعاف البشرية المضطربة ، وتفوُّق الحضارة الإسلامية على جميع الحضارات والثقافات المادية الأخرى.

٤ ـ تعتبر مراسلاتها مع مؤسس الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية سماحة الإمام العلامة أبي الأعلى المودودي نقطة التحول في حياتها ، حيث أزال المودودي شكوكها وسوء فهمها عن الإسلام ، وأقنعها بالأدلة الساطعة ، والبراهين العلمية القاطعة ، بأنّ الإسلام دين الله الخالد الذي يصلح لكل عصر ومصر ، وهو الذي يخلّص البشرية من حطام الدنيا ، وركام الحضارة المادية ، ويضمن للإنسان الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

٥ ـ حاولت أن تدعو والديها للإسلام مراراً عندما كانت في أمريكة وبعد وصولها إلى (لاهور) برسائل متعددة ، لكنهما رفضا ، وماتا كافرين ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : ٥٦].

* * *

ملحق

الإسلام في التاريخ الحديث

تأليف ولفرد كانتول سميث

By: Wilfred Cantwell Smith

مؤلف هذا الكتاب مستشرق كندي معاصر ، يدير معهداً للدراسات الدينية المقارنة بمونتريال ، وله مجموعة من المؤلفات عن البلاد الإسلامية ، يعدُّ أوفاها وأشملها هذا الكتاب الذي ألفه سنة ١٩٥٧ بعد دراسة عميقة واطلاع واسع ، فقد قرأَ مئات الكتب والمجلات والنشرات باللغات العربية والتركية والأردية وغيرها من اللغات الشرقية ، وطاف بكثير من بلاد الشرق الإسلامي ، ومكث في بعضها فترة من الزمن. فجاءت دراسته شاملة للفكرة الإسلامية ذاتها ، وللأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية والروحية للبلاد الإسلامية على نطاق واسع.

وهذا الكتابُ في نظري يعتبر من أعمق ما قرأت من دراسات المستشرقين عن الإسلام والمسلمين. كما أنَّ له طابعاً خاصاً يميزه عن غيره من تلك الدراسات.

فالمؤلف يحدّثك بصراحة عجيبة عن أشياء لا تُنْتَظَرُ من مسيحي غربي أن يحدثك عنها بهذه الصراحة ، ويبرزُ لك من جمال المفاهيم الإسلامية ـ وخاصة في مواجهة المفاهيم المسيحية ـ ما لا تنتظر من

غربي مسيحي كذلك أن يبرزه بهذه الصورة الواضحة المبلورة المنصفة غير المتحيزة.

فهو مثلاً في **الفصل الأول** من الكتاب ـ وهو أروعُ فصوله ـ يعقد مقارنةً بارعةً بين إحساس الرجل الهندي والمسيحي والمسلم والماركسي تجاه التاريخ.

● **الرجل الهندي** لا يأبَهُ للتاريخ ، ولا يحسُّ بوجوده ، لأنّ التاريخ هو ما يسّجله البشرُ من أعمال في عالم المادة وعالم الحس. والهنديُّ مشغولٌ أبداً بعالم الروح. عالم اللانهاية. ومن ثَمّ فكل شيء في عالم الفناءِ المحدودِ لا قيمةَ له عنده ولا وزن. والتاريخُ بالنسبة إليه شيءٌ ساقط من الحساب.

● **أما المسيحي** فهو يحسُّ بالتاريخ ، ولكنّه احساسٌ غيرُ محكَم الرباط ، فهو يعلم أنّ مِنْ واجبه «تحقيق ملكوت الله في الأرض». وذلك هدفٌ له عنده حساب. ولكنّه يعلم كذلك أنَّ المخلوق البشري له نقط ضعفه وهبوطه وانحرافاته ، والتاريخُ ـ في نظره ـ هو في الأغلب مجموعُ هذا الضعف والهبوط والانحرافات. وهو راض به على أنَّه أمرٌ واقعٌ لا سبيلَ إلى تغييره تغييراً جوهرياً. ومن ثَمَّ فهو يعيش بشخصية مزدوجة ، أو في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رابط: المثل الأعلى ـ الجميل في ذاته ـ غيرُ قابل للتطبيق. والواقع البشري المطبَّق في واقع الأرض منقطِعٌ عن المثل الأعلى المنشود. ويسيرُ هذان الخطان في نفسه متجاورين أو متباعدين ، ولكن على غير اتصال.

● أمّا **المسلم** فهو يحسُّ احساساً جادّاً بالتاريخ ، إنّه يؤمِن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، ولكن بطريقة أخرى. يؤمِنُ بأنَّ الله قد وضع

نظاماً عملياً واقعياً يسيرُ البشرُ في الأرض على مقتضاه. ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقعَ الأرض في إطاره. ومن ثَمّ فهو دائماً يقيس كلَّ عمل فردي أو جماعي ، وكلَّ شعورٍ فردي أو جماعي بمقدار قربه أو بعده عن ذلك النظام الذي وضعه الله ، والذي ينبغي تحقيقه في واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق.

والتاريخ هو في نظر المسلم سجلُ المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوتِ الله في الأرض. ومن ثَمَّ فكلُّ عمل وكلُّ شعور ـ فردياً كان أو جماعياً ـ ذو أهمية بالغة ، لأنَّ الحاضر هو نتيجة الماضي ، والمستقبل متوقف على الحاضر ، وكل عمل أو شعور للفرد أو للجماعة هو جزءٌ من هذا الكيان العام المشتبك المتلاحق الذي يقاس بمقدار قربه أو بعده من النظام الإلهي المفروض ، القابل دائماً للتطبيق.

● وأما **الماركسي** فهو يؤمنُ كذلك ايماناً جادّاً بالتاريخ ، ولكن على نحو آخر. إنّه يؤمن بحتمية التاريخ . . . بمعنى أنَّ كلَّ خطوة تؤدّي إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية. ولكنّه لا يؤمن إلا بهذا العالم المادي المحسوس. بل لا يؤمن من هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده. وكل شيءٍ عدا هذا العالم ، بل عدا المذهب الماركسي منه ، فهو باطل. ومن ثَمَّ لا توجدُ مقاييس خارجية يمكن أن يقاسَ إليها العالَمُ أو التاريخ أو المذهب ذاته. وإنّما مقاييسه ذاتية. فما يراه صواباً فهو صواب. وما يقع بالفعل هو ما لابدَّ أن يقع.

والماركسي يتبع عجلة التاريخ ، ولكنه لا يوجهها ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها ، لا المقاييس الأخلاقية ولا الروحية ولا الإلهية ، وكل عمله في خط سير التاريخ ألا يقفُ في طريق تلك العجلة ، بل يسايِرُها في دورانها في خطها المرسوم.

هذه المقارنة البارعةُ التي يقدّمها المؤلف في فصله الأول ، والتي يخرج منها **بأنَّ نظرة الرجل المسلم هي أسلمُ النظرات وأشملها ، من أبدع ما قرأت عن الفكر الإسلامية في أي كتاب من الشرق أوالغرب.** وإنِّي أتخيّلُ لو أنَّ كاتباً مسلماً هو الذي تناول هذه النقطة لما عبَّر عنها ولا بلورها بأجمل ولا أنصع مما فعل المؤلف في الصفحات الأولى من الكتاب.

* * *

وكذلك يعقد مقارنة بين **مفهوم التضحية في المسيحية وفي الإسلام.** إنها في كلا الحالين تضحية. **ولكنها في المفهوم المسيحي تضحيةٌ سلبية ، وفي المفهوم الإسلامي تضحية إيجابية.**

● **المسيحي يضحي بنفسه ، لأنه لا يريدُ أن تمرّ به عجلة التاريخ الخاطئة** وهو حي وسامح لها بالمرور. فهو يقف في طريقها حتى تدوسه وتقتله. ويكون ذلك أغلى قربان يتقدّم به إلى الله.

● أما **المسلم** حين يضحي بنفسه ففي حسّه أن هناك نظاماً إلهياً يرادُ أن يطبق في واقع الأرض ، وفي حسه أنّه وهو يضحّي بنفسه يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الإمام. يدفعها في سبيل التحقيق الواقعي في عالم الأرض. **فهي تضحيةٌ إيجابية** ، ذات أثر فعال في واقع الحياة.

* * *

وكذلك أيضاً يقرّر المؤلف أنَّ النظام الإسلاميَّ نظامٌ فريد في تاريخ الأرض كله ، وتاريخ نُظُمها كذلك. فريد في أنّه يصوغ واقع الأرض صياغةً إلهية ، ويحقق ذلك في واقع الأرض لا في عالم المُثل والأحلام. نظام يوحِّدُ بين السماء والأرض ، بين المفاهيم الخلقية

والروحية وبين السلوك الواقعي في الحياة. نظام لا يمكن أن يطبق بمعزل عن حياة الناس الاجتماعية في عالم الواقع. نظام لا يعرفُ الثنائية الموجودة في النظم الأخرى ، التي تضعُ مثالاً نظرياً غيرَ قابلٍ للتطبيق في ناحية ، وواقعاً غيرَ محكومٍ بهذا المثال في ناحية أخرى ، ولا تحاوِلُ المزجَ بين هذا وذاك.

كل تلك الأفكار الجميلة الناصعة الصافية المبلورة ، يعرِضُها الكاتب في أمانة وانصاف ، لا تتوقعهما من رجل غربي لا يدين بالإسلام.

بل إنّه ليتجاوزُ النطاق الفكري الخالص إلى نطاق السياسة ، فيحدثك بنفس الصراحة في مواضع دقيقة ، فيذكر لك أنّ الغربَ لم يتخلّص بعدُ ـ ولا يظن المؤلف أنه يستطيع أن يتخلّص بسهولة ـ من الروح العدائية التي يحسُّ نحو الإسلام ، والتي عاشَ فيها ثلاثة عشر قرناً متوالية ، ولا من ذكرى الفزع الذي ظل يحس به قروناً طويلة من جرّاء توسّع الجيوش الإسلامية وانتقاصها أطراف الإمبراطورية الرومانية من الشرق والغرب ، وتوغلها في قلبها ، وتهديد مراكزها . . . ذلك الفزعُ الذي لا يدانيه في رأي المؤلف فزع الغرب من الشيوعية في القرن العشرين. وهو يقول في صراحة : إنّ هذا العداءَ ما يزال ماثلاً حتى اليوم في تصرفات الغرب نحو العالم الإسلامي ، في عدوانه عليه بالسلاح تارة ، وبالضغط الاقتصادي تارة ، وبالحرب الفكرية والروحية تارة ، **وإنّ خلق إسرائيل في قلب العالم الإسلامي كان جزءاً من خطة الغرب في محاولة القضاء على الإسلام ، وجزءاً من بقايا تلك الروح العدائية الكامنة في نفوس الغربيين.**

* * *

ولكنّ هذا الوجه المنصف الصريح ليس هو الوجه الوحيد للكتاب :

فبعد هذه المقدِّمات الجميلة عن الفكرة الإسلامية ، بعد هذه الصراحة العجيبة في معالجة بعض الأمور السياسية الدقيقة ، يتحوَّلُ المؤلف إلى وجهة جديدة يبدو من الغريب أن تصدر عن نفس المؤلف الذي قال هذا الكلام في مقدمات الكتاب .

لقد قال : «إنّ النظام الإسلامي متفرّد ، لأنّه يصوغُ المجتمع صياغة إلهية ، ويحقق في واقع المجتمع أفكاره التي يستمدها من العقيدة ، ومن ثَمَّ فهو بعيدٌ عن الثنائية التي تعيش فيها النظم الغربية الحاضرة . وأكد لك بوضوح كامل في **الفصل الأول** أن هذه هي مزية الإسلام على غيره من النظم ، وأنّ هذه هي حقيقته الجوهرية التي يلمسها كل دارس لهذا الدين» .

ولكنه يعودُ فيقول لك : «إنّ على المسلمين أن يساوقوا حركة التطور ، فيفصلوا بين الدين وسياسةِ أمورِ المجتمع ، ويفصلوا بين المثال والواقع ، بين السماء والأرض ، أي أن يعيشوا في ثنائية مشابهة لتلك التي يعيشُ فيهاالغرب . وبعبارة أخرى أن يتخلَّوْا عن الحقيقة الجوهرية للإسلام !» .

كيف يخرجُ المؤلف بهذه النتيجة من تلك المقدمات؟

إنّه يدور دورةً طويلةً مع التاريخ ـ التاريخ الحديث بصفة خاصة ـ ليقول : «إنّ المسلمين تأخّروا في الفترة الأخيرة عن اللحاق بركب المدنية ، وإنَّ المدنية استحدثت أدوات جديدة للحياة ، أدوات اقتصادية واجتماعية وسياسية صارت جزءاً لا يتجزّأ من الحياة الحديثة ، وإنّ على المسلمين أن يتّخذوا هذه الأدوات ذاتها إذا أرادوا

اللحاق بالركب ، أي يتّخذوا وسائل الحياة الغربية كلها إذا أرادوا اللحاق بالركب ، أي يتخذوا وسائل الحياة الغربية كلها في عالم الواقع ، ثم . . . فليظلوا مسلمين في عالم المثال. فلتظل لهم عقيدتهم ، ولكن في معزلٍ عن سياسة أمور المجتمع والسيطرة على مجرى الحياة فيه».

والمثالُ الذي يبرزه المؤلف ليحتذيه العالم الإسلامي كله هو **تركية الحديثة**. إنّها الدولةُ التي نبذت الدين ، وأسست دولة علمانية تتخذُ كلَّ وسائل الحياة الغربية في المجتمع.

وهو يتحمّسُ في وصف هذه الدولة حماسةً عجيبةً يكاد ينسى فيها نفسه ، يكاد ينسى وقاره العلميَّ الهادىء ، بل إنّه ليخرجُ على الطبيعة الغربية ذاتها في معالجة الشؤون الفكرية ، ويندفع في أوصافه وعباراته كالشرقيين الذين يعيبُ عليهم الغربُ شدة الحماسة والاندفاع الوجداني في اثبات «الحقائق» العلمية!

كم مرة ذكر كلمة «**النجاح العجيب**» و«**البراعة**» و«**القوة**» و«**الحكمة**» و«**الواقعية**» و«**الارتفاع إلى مستوى الأحداث**» و«**الحصافة**» و«**الكياسة**». . كلها في وصف **الأتراك بعد ثورتهم الجامحة على الدين**. . .

ولكنْ أعجبُ ما قاله في الفصل الخاص بتركية ، هو قوله: «إنّ تركية ليست دولة لا دينية ، وإنْ كانت دولةً علمانية! إنها في نظره دولةٌ مسلمةٌ! وأهلها مسلمون متدينون! كل ما هناك ـ في نظر المؤلف ـ أنّهم قد أحدثوا تطوراً في المفاهيم الإسلامية ذاتها. فقرروا ـ مثلاً ـ أنّ الدين لا يجوز أن يحكم أمورَ المجتمع ، وإنّما يظل قابعاً في الضمير!».

ويتيقظ المؤلف ـ لحظةً ـ إلى هذه المغالطة المكشوفة ، فيقول : إنّ «بعض الناس» سيلاحظ أنّ هذا «التطور» في فهم الإسلام هو تطور على **الطريقة الغربية المسيحية** ، التي تفصِلُ بين الواقع والمثال ، وبين الدين والمجتمع ، وأنّ تركية الحديثة ـ إنْ كانت متدينةً ـ فهي متدينة على الطريقة المسيحية ، لا على طريقة الإسلام. ولكنّه يروغُ من هذه الملاحظة التي لا شك في صدقها بقوله : إنّ هذا من مقتضيات التطور في العالم الحديث! .

وبقدر ما يتحمّس المؤلف لتركية اللادينية ، فإنّه يصبُّ جام غضبه على باكستان ، لغير شيءٍ سوى أنّها قررت في يوم من الأيام أن تكون دولةً مسلمة في القرن العشرين .

فإذا كانت تركية هي **النجاح العجيب** ، **والبراعة** ، **والقوة** ، **والحكمة** ، **والتعقل**. . . إلخ . فباكستان هي **الفشل الذريع** ، **والخيبة** ، **والضعف** ، **وسوء التصرف** ، **والتعصب** ، **والحماقة**. . . إلى آخر ما يكيل لها المؤلف من أوصاف .

وينسى المؤلف نفسُه مرةً أخرى في فصل باكستان . فبعد أنْ يقرّرَ ـ في صراحة عجيبة ـ أنَّ باكستان فشلت في أن تكون «دولة مسلمة» لأنَّ الحزبَ الذي تولّى الحكمَ فيها وقتَ إنشائها لم يكن مسلماً عميقَ الجذور في التربية الإسلامية الحقة ، وإنّما كان هو الحزب الذي ربّاه الغرب على عينه ، ودرّبه على ألوان من الكفاية الإدارية ، هيأت له الوصول إلى مقاعد الحكم . . . يعود فينسى نفسَه ، وينسى الحقيقة التي صرّح بها ، ويقول : «إنّها فشلت في أن تكون دولة مسلمة ، لأنّ

ذلك أمرٌ غير ممكن في القرن العشرين! وأنّ التعصّبَ وحده هو الذي يدعو إلى التفكير فيه!».

* * *

وأخيراً ينتقل المؤلف إلى قضية لعلها أخطر قضايا الكتاب وأدقها جميعاً. إنّها **قضية الأقلية المسلمة في الهند**، التي زادت قلة بعد تقسيم شبه القارة إلى دولتي الهند وباكستان.

وقد لا يدرِكُ القارىءُ لأول وهلة سرَّ الاهتمام الكبير الذي يوليه المؤلف هذه الأقلية الموزعة في أرجاء الهند. ولكنّه يفصح عن نفسه تماماً في نهاية الفصل، ومرة أخرى في نهاية الكتاب.

إنّه يقول بعد شرح طويل دقيق لأحوال المسلمين في الهند. والضغط العنيف الذي يقع عليهم من الهنود، الضغط السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وبعد أن يبدى أمله في أن يخفَّ هذا الضغط في المستقبل، ويتاح للمسلمين أن يجدوا فرصة للبقاء والاستمرار... يقول بعد ذلك: «إنّ هؤلاء المسلمين يواجهون حالة لم يواجهوها في تاريخهم كله منذ بدء تاريخهم إلى اليوم.

إنّهم ليسوا أقلية مقهورة مغلوبة على أمرها كالأقلية المسلمة في روسية أو الصين، التي لا تملك من أمر نفسها شيئاً، ولا ينتظر منها أن تصنع شيئاً في مواجهة القوة الهائلة التي تقهرها. وهم في الوقت ذاته ليسوا من القوة والكثرة والتجمع بحيث يقيمون المجتمع الإسلامي المستقل، ولا الدولة المسلمة القائمة بذاتها، كما تفرِضُ تعاليم الإسلام على المسلمين. وإنّما هم أقلية تشارك مشاركة حرة هكذا يقول المؤلف أو لعّله يرجو: «في حكم دولة كبيرة غير مسلمة. يشاركون

بالتمثيل في البرلمان ، والتمثيل في الحكم المحلي ، وولاية الوظائف العامة التي تصل إلى رئاسة المجالس الإقليمية ، وإلى مناصب الوزارة ، ولكنّهم في الوقت ذاته لا يكوّنون مجتمعاً مسلماً ، ولا دولة مسلمة.

حالة جديدة غير ما مرَّ بالمسلمين في تاريخهم كله ، حيث كانوا دائماً إما غالبين حاكمين ، وإمّا مغلوبين على أمرهم ومحكومين بغيرهم ، ولكنّهم لم يكونوا قط «أحراراً» ومع ذلك فهم عاجزون عن تحقيق كيانهم الذاتي المستمد من حقيقة كونهم مسلمين.

ويهتمُّ المؤلف اهتماماً بالغاً بهذه الحالة الجديدة الفريدة ، ويشيد إشادة بالغة بروح «التعقل» التي استولت على هذه الأقلية المسلمة المحصورة في الهند ، والتي جعلتها تتنازل ـ لأول مرة ـ عن مفهوم أساسي من مفاهيم الفكرة الإسلامية.. من أجل أن تعيش.

ولا يدعك المؤلِّفُ في حيرتك تتساءل عن سرِّ هذا الاهتمام البالغ بمأساة هؤلاء الناس. فهو يشرح لك بنفسه ، بغير حاجة إلى تأويل.

إنّ هذه الأقلية المسلمة في الهند ليست ـ في نظره ـ حالة فريدة ، **وإنما هي حالة رمزية ... ترمز إلى وضع المسلمين كله في العالم الحديث! فالمسلمون في العالم الحديث أقلية حرة ، مشاركة في حكم عالم أكبر منها ، لا يدينُ بالإسلام. وعليهم ـ كما فعل مسلمو الهند ـ أن يتنازلوا عن ذلك المفهوم الأساسي من مفاهيم دينهم ، وهو الحياة في مجتمع مسلم قائم بذاته ، في ظل حكومة مسلمة مستقلة الكيان.. لكي يتمكنوا من الحياة!**

ما رأيُ الكاتب إذن لو جاءه أحدُ الشيوعيين يقول له: إنّ الغرب

«الديمقراطي» أقلية عددية بالنسبة للعالم الشيوعي ، وإنّ عليه أن يتنازلَ عن مفاهيمه الديمقراطية لكي يستطيع أن يعيش في العالم الحديث؟! .

ويختتم المؤلف كتابه بفصل قصير يقع في ثماني صفحات ، تحسُّ فيه كأنما عاد إلى الروح التي كتب بها **الفصل الأول** من الكتاب ، روح الإنصاف والعدالة والارتفاع عن التحيز المعيب . . .

إنّه يقول : **إنّ العالم اليوم بروحه المادية الغارقة في المادية ، قد ذاق كثيراً من الشقاء والقلق والانحراف والاضطراب . وإنّه لابدّ متطلع غداً إلى روحانية ترفعه من وهدته الهابطة ، وترد له إيمانه بالله والعالم الآخر ، كحقيقة واقعة مؤثرة في واقع الحياة . وإنّه لا يستبعد أن يكونَ الإسلامُ هو عقيدة المستقبل للعالم كله . العقيدة التي تنقذه من ورطته ، وترد إليه الهدوء والاستقرار .**

نعم! ولكن أيُّ إسلام هذا الذي يريده المؤلف عقيدةً لعالم الغد؟ يقول : إنه الإسلام المتطور! فهل يقصد إسلام تركية في القرن العشرين؟ .

* * *

مهما يكن من شيء فهذا الكتاب يستحقُّ أن يُقرأ ، وأن يُقرأ بإمعان . فالمسلمونَ ينبغي أن يروا صورتهم في مرآة الآخرين ، مشوهة كانت أم غير مشوهة ، ليعرفوا عيوبهم الحقيقية ، وعيوبهم المدعاة ، ويحاولوا أن يستفيدوا مما يوجَّه إليهم من النقد ، ليحددوا وضعهم في العالم الحديث .

إنني شخصياً قد أفدت من هذا الكتاب فائدتين عظيمتين :

الأولى : هي الإحساس بمدى أهمية العالم الإسلامي في التاريخ

الحديث ، تلك الأهمية التي تثيرُ اهتمامَ الغرب إلى هذا الحد الواضح في الكتاب.

والثانية: هي ادراك الجهد الضخم الذي ينبغي أن يبذله المسلمون في أنفسهم وأفكارهم وسلوكهم ليجعلوا الإسلامَ ـ كما يقول المؤلف ـ عقيدةً صالحة للعالم كله. عقيدة تشمل عالم المادة وعالم الروح في نظام واحد ، وتريحُ العالم من الثنائية التي تمزّقُ النفسَ والحياة.

محمد قطب[١]

(١) (المجلة) السنة الثامنة ـ العدد ٩٦ ـ كانون الأول ١٩٦٤ (القاهرة).

الفهرس

الفصل الثاني
التعريف بمؤلفاتها
١٥٩ ـ ٢٠٩